مواهب الليل
في شرح دعاء كميل

مواهب الليل

في شرح دعاء كميل

الجُزءُ الثَّاني

الشيخ فاضِل الصفَّار

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء﴾ سورة إبراهيم: الآية ٤٠

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ سورة البقرة: الآية ١٨٦

في ثواب الأعمال قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **﴿ألّا أدلّكم على سلاح ينجيكم من عدّوكم، ويدرّ أرزاقكم؟ قالوا: بلى. قال: تدعون ربكم بالليل والنهار، فإن سلاح المؤمن الدعاء﴾**(١).

وقال الصادق عليه السلام: **﴿وعليكم بالدعاء فإن المسلمين لم يدركوا نجاح الحوائج عند ربهم بأفضل من الدعاء والرغبة إليه، والتضرّع إلى الله والمسألة له، فارغبوا فيما رغّبكم الله فيه، وأجيبوا الله على ما دعاكم إليه لتفلحوا وتنجوا من عذاب الله﴾**(٢).

---

(١) الكافي: ج٢، ص٤٦٨، ح٣؛ ثواب الأعمال: ص٢٧.
والعدو يشمل هوى النفس والشيطان والمال والحرام والولد العاق والسلطان الجائر وكل ما يوجب السوء والشر على العبد، وبالدعاء ينجو منه.

(٢) الكافي: ج٨، ص٤، ح١؛ البحار: ج٧٥، ص٢١٢، ح٩٣.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿اللهم بحق يَس والقرآن الحكيم، وبحق طه والقرآن العظيم. يا من يقدر على حوائج السائلين، ويعلم ما في الضمير، يا منفّس عن المكروبين، يا مفرّج عن المغمومين، يا راحم الشيخ الكبير، يا رازق الطفل الصغير، يا من لا يحتاج إلى التفسير صلّ على محمد وآل محمد﴾[١]. اجعلنا مشغولين بأمرك، آمنين بوعدك، آيسين من خلقك، آنسين بك، مستوحشين من غيرك، راضين بقضائك، صابرين على بلائك، شاكريك على نعمائك، متلذذين بذكرك، فرحين بكتابك، مناجين بك آناء الليل والنهار، مستعدين للموت، مشتاقين إلى لقائك، مبتغضين للدنيا، محبين للآخرة، وآتنا ما وعدتنا على رسلك، ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد[٢].

---

(١) الدعوات (للراوندي): ص٥٤، ح١٣٨؛ البحار: ج٩٢، ص١٩٦، ح٢٩؛ الدعاء عن الإمام زين العابدين عليه السلام قال: ﴿ضمنّي والدي عليه السلام إلى صدره يوم قتل والدماء تغلي وهو يقول: يا بني، احفظ عنّي دعاء علمَتنيه فاطمة صلوات الله عليها، وعلمها رسول الله صلى الله عليه وآله، وعلّمه جبرائيل في الحاجة والمهم والغم والنازلة إذا نزلت، والأمر العظيم الفادح﴾.

(٢) جامع الأخبار: ١٥٤؛ البحار: ج٩٢، ص٣٦١، ح١٦، من دعاء النبي صلى الله عليه وآله.

بسم الله تعالى

هذا هو الجزء الثاني من مواهب الليل في شرح دعاء كميل ويبتدأ من قوله عليه السلام: ﴿ اللّٰهُمَّ إنّي أتَقَرَّبُ إلَيْكَ بِذِكْرِكَ، وَأسْتَشْفِعُ بِكَ إلى نَفْسِكَ﴾ .

﴿اللّهُمَّ إِنّي أَتَقَرَّبُ إِلَيْكَ بِذِكْرِكَ،
وَأَسْتَشْفِعُ بِكَ إِلى نَفْسِكَ﴾

التقرّب بذكر الله سبحانه

ما هي مناسبة ذكر القرب والشفاعة بعد طلب العفو والمغفرة؟

والجواب: أن دواعي التزكية تقتضي ذلك، فإن المتقرّب إلى الله لابد أن يعمل على تخلية الباطن من الرذائل أولاً حتى يتسم بالتحلية؛ لأن الرذائل تمنع الاتصال والقرب، وهذا أمر تتطلبه كل عملية بناء وتربية، فكما أن الطبيب يرفع موانع العلاج ثم يصف الدواء، والصبّاغ يزيل أوساخ اللباس ثم يحليه بالألوان، وهكذا الفلاح والمعلّم، كذلك العابد والراغب إلى الله عز وجل.

ومن هنا جاءت هذه الفقرة بعد الاستغفار من الذنوب الخاصة والعامة؛ إذ الأولى في مقام رفع الموانع أي التخلية، وبعدها يطلب التحلية، وأول التحلية توفير مقتضيات القرب من الله عز وجل، وهو ذكره سبحانه؛ لأن ذكر ودوامه من أعظم سمات الأولياء والمقرّبين الموجبة للتوفيق ومزيد العناية والرضا. قال تعالى: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾[1] أي اذكروني بطاعتي اذكركم برحمتي كما عن البعض[2]، وقال عز وجل: ﴿**أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾[3].

ولعل من هنا قالوا في بيان معنى الدعاء: ((يا مطهّر)) أي يطهّرنا من النجاسات الظاهرية البدنية كما يطهّرنا من النجاسات الباطنية الروحية؛ إذ فكما أنّ في الجسم نجاسات عشرة مشهورة كذلك في الروح الخبيث

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٥٢.

(٢) مجمع البيان: ج١، ص٤٣٥، تفسير الآية ١٥٢ من سورة البقرة.

(٣) سورة الرعد: الآية ٢٨.

نجاسات عشرة: ثمانية من حيث العمل، واثنتان من حيث العلم: أما الثمانية التي من حيث العمل فاثنتان منها طرفا الإفراط والتفريط في ((العفّة)) وهما (الشره) و(الخمود)، واثنتان طرفا الإفراط والتفريط في ((الشجاعة)) وهما (التهوّر) و(الجبن) واثنتان طرفا الإفراط والتفريط في السخاوة وهما (التبذير) و(التقتير) واثنتان طرفا الإفراط والتفريط في ((الحكمة)) وهما: (الجربزة) و(البلاهة) وهذه الحكمة تسمى ((حكمة عملية)) وهي غير الحكمة العملية التي هي قسيم ((الحكمة النظرية)).

وأما الاثنتان اللتان من حيث الإخلال بالعلم، فهما: (الجهل البسيط) و(الجهل المركب) وكما أن أشدّ النجاسات البدنية هو الكفر ولاسيّما كفر النفاق بناءً على أن النصب منه، كذلك شرّ النجاسات الروحية النفسية هو الجهل، فإن الجاهل أبعدُ الخلق من الله، كما أن العالم العارف أقربهم إليه، ولذا ورد: (أنّ الله تعالى لم يتخذ ولياً جاهلاً) و:(أن الجاهل على كل حال في خسران)[1] و﴿وأن نوم العالم خير من عبادة العابد﴾[2].

وأما المطهِّر فواحد وهو علم التوحيد، فإن العمل أيضاً وسيلة له وراجع إليه، ولذا كان آخر مراتب العمل بعد (التخلية) و(التحلية) و(التجلية) (الفناء) ويقال في تفسيره إنه شهود كل وجود، وكل كمال وجود في وجود الحق، والشهود هو العلم والمعرفة[3].

---

(١) شرح الأسماء الحسنى: ج١، ص٩٦-٩٧، (بتصرف).

(٢) الفقيه: ج٤، ص٣٦٧، باب النوادر.

(٣) انظر شرح الأسماء الحسنى: ج١، ص٩٧.

والظاهر أن الباء للسببية، وعطف الاستشفاع على الذكر لبيان لزوم اتخاذ الواسطة؛ لأنها أدعى إلى القبول والاستجابة؛ إذ ألف عين لأجل عين تكرم.

وعليه فإن طلب المؤمن القرب منه سبحانه وإن كان سببه الذكر إلّا أن سبب القبول هو الشفاعة بالمحبوب، ولا شك أن أقرب شيء إلى الباري عز وجل هو نفسه وذاته المقدسة؛ لأنها الكمال المطلق، وإنما يصح الإطلاق في قوله: ﴿وأستشفع بك إلى نفسك﴾ مع عدم المغايرة حقيقة وواقعاً بلحاظ المغايرة الاعتبارية؛ لاختلاف جهة اللحاظ، فتارة يلحظ العبد ربه من حيث صفاته الفعلية كالشفيع والرحيم، ويجعله بهذا اللحاظ واسطة لصفاته الذاتية التي هي منبع كل الخيرات، ومنشأ الأفعال أيضاً بما فيها أفعاله عز وجل، ولعل ما ورد في مستدرك الوسائل: ﴿اللهمّ إنّ هذا منك وبك ولك وإليك﴾[1] قد يشير إلى ذلك أيضاً فتأمل. وذكره سبحانه بتمجيده وتقديسه وتسبيحه وتهليله والثناء عليه بجميع محامده[2]، ودوامه المواصلة عليه ودوام الذكر بين رحماء الناس وأهل القدرة فيهم يوجب مزيد عطائهم ورحمتهم بالذاكرين لهم، فكيف بالباري سبحانه خالق الرحمة والغني الكريم القادر على كل شيء؟

---

(١) مستدرك الوسائل: ج١٠، الباب ٣٢ من أبواب الذبح، ص١٠٨، ح١١٥٩٦؛ فقه الرضا عليه السلام: ص٢٢٤، وفيه: ﴿اللهم منك وبك ولك وإليك﴾.

(٢) لسان العرب: ج٤، ص٣١٠، (ذكر).

ففي الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام: ﴿أوحى الله عزّ وجل إلى بعض أنبيائه يا ابن آدم اذكرني في غضبك أذكرك في غضبي لا أمحقك فيمن أمحق، وارض بي منتصراً فإن انتصاري لك خير من انتصارك لنفسك﴾(١).

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: ﴿مكتوب في التوراة التي لم تُغَيَّر أنّ موسى عليه السلام سأل ربه فقال: يا رب أقريب أنت منّي فأناجيك أم بعيد فأناديك؟ فأوحى الله عز وجل إليه: يا موسى أنا جليس من ذكرني، فقال موسى: فمن في سترك يوم لا ستر إلّا سترك؟ فقال: الذين يذكرونني فأذكرهم، ويتحابّون فيَّ فأحبّهم، فأولئك الذين إذا أردت أن أصيب أهل الأرض بسوء ذكرتهم فدفعت عنهم بهم﴾(٢).

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: ﴿قال الله عز وجل لموسى: أكثر ذكري بالليل والنهار، وكن عند ذكري خاشعاً، وعند بلائي صابراً، واطمئن عند ذكري، واعبدني ولا تشرك بي شيئاً إليّ المصير، يا موسى اجعلني ذخرك، وضع عندي كنزك من الباقيات الصالحات﴾(٣).

ومما ناجى الله تعالى به موسى عليه السلام قال: ﴿يا موسى، لا تنسني على كل حال، فإنّ نسياني يُميت القلب﴾(٤).

---

(١) الكافي: ج٢، ص٣٠٣، ح٨.

(٢) الكافي: ج٢، ص٤٩٦، ح٤؛ الوسائل: ج٧، الباب ١ من أبواب الذكر، ص١٤٩-١٥٠، ح٨٩٧١.

(٣) الكافي: ج٢، ص٤٩٧، ح٩؛ الوسائل: ج٧، الباب ٥ من أبواب الذكر، ص١٥٥، ح٨٩٨٧.

(٤) الكافي: ج٢، ص٤٩٨، ح١١؛ الوسائل: ج٧، الباب ٥ من أبواب الذكر، ص١٥٦، ح٨٩٨٩.

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال الله عز وجل: من ذكرني في ملأ من الناس ذكرته في ملأ من الملائكة»[١].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن الله عز وجل يقول: من شغل بذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي من سألني»[٢].

وفي المحاسن: قال النبي صلى الله عليه وآله لأصحابه: «ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من الدينار والدرهم، وخير لكم من أن تلقوا عدوّكم فتقتلوهم ويقتلوكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ذكر الله كثيراً»[٣].

المواظبة على الذكر

ويتحقق الذكر بالتذكر والمواظبة عليه حتى يصبح من الملكات، فإنّ القلب المنشغل بذكر الله سبحانه يبتعد عن مكائد الشيطان؛ إذ لم يجعل الله لرجل من قلبين في جوفه، فإذا ذكر الله انهزم عنه الشيطان، وتنوّر بالمعرفة والحضور الدائم. **هذا أولاً**.

---

(١) الكافي: ج٢، ص٤٩٨، ح١٣؛ الوسائل: ج٧، الباب ٧ من أبواب الذكر، ص١٥٩، ح٩٠٠٢.

(٢) الكافي: ج٢، ص٥٠١، ح١؛ الوسائل: ج٧، الباب ١٠ من أبواب الذكر، ص١٦٢، ح٩٠١٠.

(٣) المحاسن: ج١، ص٣٨-٣٩، ح٤٢، وفيه: (وتقتلونهم ويقتلونكم)؛ وانظر الكافي: ج٢، ص٤٩٩، ح١.

وثانياً: تقوى فيه دوافع النفس المطمئنة، وتدفعه إلى العمل الصحيح.

وثالثاً: تصفو نفسه وقلبه فتشرق فيهما أنوار الهداية؛ لأن القلوب والأرواح تصدأ، والذكر مطهرٌ لها، ومعلوم أنَّ الفيوضات الإلهية تنزل على النفوس الطيبة الطاهرة الخالية من الأدران.

ومن هنا ورد في الحديث: «لكل شيء صقالة، وصقالة القلوب ذكر الله»[(١)] ومن أعلى مراتب الذكر الاقتداء بمحمد وآله (صلوات الله عليهم أجمعين) في المعرفة والحب والطاعة؛ لأنه صلى الله عليه وآله الذكر، وهم أهله المستفاد من مثل قوله تعالى: ﴿**فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ**﴾[(٢)] كما في متضافر الأخبار[(٣)]، فالاقتداء بهم والركون إليهم عليهم السلام سكون للنفس، وضمان للسعادة في الدارين. عن جعفر بن محمد عليهما السلام في قوله: ﴿**أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ فقال: «بمحمد صلى الله عليه وآله تطمئن القلوب، وهو ذكر الله وحجابه»[(٤)].

وإذا واظب العبد على الذكر تشرق في قلبه أنوار الخوف والرجاء التي هي من سمات قلوب الأولياء. قال سبحانه: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ**

---

(١) جامع أحاديث الشيعة: ج١٥، ص٣٥٣، ح١١٢٠؛ مستدرك الوسائل: ج٥، الباب ١ من أبواب الذكر، ص٢٨٥، ح٥٨٦٩.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٧.

(٣) أمالي الصدوق: ص٦٢٤، ح٨٤٣؛ الدعائم: ج٢، ص٣٥٣، ح١٢٩٧؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص٢١٦، ح١.

(٤) تفسير العياشي: ج٢، ص٢١١، ح٤٤؛ تفسير نور الثقلين: ج٢، ص٥٠٢، ح١١٨.

وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[(١)] وحينئذ يتسم القلب بالرّقة والرحمة، فيستحق نزول الرحمة؛ لأنه بالرحمة تستنزل الرحمة.

﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللهِ﴾[(٢)] ولعل ذكر لين الجلود إشارة إلى أنّها مدخل إلى تليين القلوب أو أن لين القلب أمر جانحي غير محسوس يظهر أثره على لين الجلد المحسوس من باب تشبيه غير المحسوس بالمحسوس أو أنّهما سبب ومسبَّب؛ بداهة أن الظاهر معلول الباطن، وبدوام الذكر يصبح القلب قلباً مطمئناً كما أشارت إليه الآية المباركة[(٣)] وبهذا يخرج حب الدنيا من قلب الإنسان، وتصفو روحه، ويزكو ضميره، فيصل إلى مقامات القرب الرفيعة وهنا نلفت النظر إلى ما ورد في رواية عن جابر عن أبي جعفرعليه السلام قال: «قلت: إن قوماً إذا ذكروا شيئاً من القرآن أو حدثوا به صعق أحدهم حتى يرى أن أحدهم لو قطعت يداه ورجلاه لم يشعر بذلك، فقال: سبحان الله، ذاك من الشيطان ما بهذا نعتوا، إنما هو اللين والرقة والدمعة والوجل»[(٤)]؛ وقوله: « لم يشعر بذلك» كناية عن الإغماء والغشية، وردع الإمامعليه السلام عنه ووصفه بأنه من الشيطان يكشف عن أمرين:

---

(١) سورة الانفال: الآية ٢.

(٢) سورة الزمر: الآية ٢٣.

(٣) سورة الرعد: الآية ٢٨.

(٤) تفسير البرهان: ج٤، ص٧٠٧ في تفسير آية ٢٣ من سورة الزمر: ح٢؛ وانظر الكافي: ج٢، ص٦١٦، ح١؛ أمالي الصدوق: ص٣٢٨، ح٣٨٧.

أحدهما: أن ذلك تصنعاً منهم للرياء أو لخداع الناس.

ثانيهما: أن الشيطان يلبسهم ويستولي عليهم ويصيّرهم كذلك؛ لأجل التغرير بهم وبغيرهم، وفي ذلك دلالة تفتح الأبصار والبصائر وتفضح أصحاب هذه الأساليب.

والباء في قولهعليه السلام: ﴿بذكرك﴾ إما للسببية أو للاستعانة[1] وكلاهما مناسب، ولكن الأوّل أقوى، وعليه فالذكر سبب إلى القرب، والقرب سبب إلى رفعة الدرجات حتى الوصول إلى مقام الولاية.

و﴿بك﴾ باؤها للتعدية[2]، وفيها دلالة على الرقة وغاية الانقطاع إلى الله سبحانه؛ إذ جعل نفسه عزّ وجل شفيعاً إليه.

---

(١) جاء في مغني اللبيب: ج١، ص١٠١-١٠٣.

حرف الباء: الباء المفردة: حرف جرٍّ لأربعة عشر معنى:

الثالث: الاستعانة، وهي الداخلة على آلة الفعل نحو: (كتبت بالقلم) و:(نَجَرتُ بالقدوم) قيل: ومنه (باء) البسملة؛ لأن الفعل لا يتأتى على الوجه الأكمل إلّا بها.

الرابع: السببية، نحو: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ سورة البقرة: الآية ٥٤، ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾ سورة العنكبوت: الآية ٤٠، ومنه: لقيت بزيدٍ الأسدَ، أي بسبب لقائي إياه وقوله:

قد سُقِيَتْ آبالُهُم بالنّار والنار قد تشفي من الآوارِ

أي أنها بسبب ما وُسِمَتْ به من أسماء أصحابها يُخلّى بينها وبين الماء.

(٢) جاء أيضاً في مغني اللبيب: ج١، ص١٠٢، في حرف الباء.

الباء المفردة: حرف جر لأربعة عشر معنى:

الثاني: التعدية: وتسمى باء النقل أيضاً، وهي العاقبة للهمزة في تصيير الفاعل مفعولاً، وأكثر ما تُعَدِّي الفعل القاصر. تقول في: ذهب زيد: ذهبت بزيد، وأذهبتُه، ومنه ﴿ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ﴾ أي أذهب الله نورهم.

وكلّما كان الشفيع عظيماً كان قبول شفاعته محتّماً ولا أعظم من الله، ولا أكمل منه سبحانه، ولكن قوله: ﴿إلى نفسك﴾ ليس المراد منه المعنى الحقيقي؛ لتنزّهه سبحانه عن أن يكون له نفس تحل فيها المعاني أو الحياة حتى إذا فارقها خرج من كونه حياً تعالى عن ذلك علّواً كبيراً، بل هو إشارة إلى ذاته ووجهه الكريم من باب مجاز المقابلة أو المجانسة، كما في قوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾(١) وربّما أريد منه الحقيقة بحمل النفس على الذات كما جاء في بعض معانيها، كقولهم فعل ذلك فلان نفسه أي ذاته أو الإرادة أو الغيب والسرّ على ما جاء من معانيها(٢)، وحينئذ تكون دلالتها فيما نحن فيه جلية. أما الأول والثاني فظاهر، وأما الثالث فمتعلق الشفاعة هو علمه وسرّه سبحانه الذي لا ينفك عن الرحمة والرأفة بالعباد؛ لكونهما من ذاتيات الرؤوف الرحيم وقد توسّل بذلك لضمان القبول والاستجابة فتأمل.

مراتب الذكر

الذكر حضور المعنى في النفس واستعماله الغالب في القول من باب المصداق الظاهر؛ لأن من شأن القول أن يذكر به المعنى، أو هو سبب إحضاره في النفس، وبهذا اللحاظ يقال للحظور بعد النسيان ذكر، وللناسي متذكر، فهو ليس معنى آخر، بل داخل في الجامع على ما هو

---

(١) سورة المائدة: الآية ١١٦.

(٢) انظر مجمع البيان: ج٣، ص٤٥٧-٤٥٨، تفسير لآية ١١٦ من سورة المائدة.

التحقيق في رجوع المشتركات في مادة واحدة إلى جامع واحد، وبه نجمع بين ما قيل من التعاريف[١].

والذكر على مراتب:

منها: معناه المصدري، ومن أجلى مصاديقه الذكر اللساني. قال تعالى: **﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾**[٢] ودلالته عامة في الأذكار وقراءة القرآن والدعاء والتسبيح والتهليل وقول المعروف والإصلاح بين الناس ونشر المعارف الإلهية والأحكام الشرعية، وقد نهي عن الجهر به؛ للتنزيه أو الإرشاد؛ لأن الإخفاء أوفق في الإخلاص، وأبعد من الرياء، وأقرب إلى القبول، وما قد يقال من انصراف اللفظ إليه فبدوي لا ينهض لحصر الدلالة به.

وفي البحار: اعلم أنّ أصل الذكر التذكر بالقلب، ومنه: **﴿اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾**[٣] أي تذكروا، ثم يطلق على الذكر اللساني حقيقة، أو من باب تسمية الدال باسم المدلول ثم كثر استعماله فيه لظهوره حتى صار هو السابق إلى الفهم وقال بعضهم: ذكر اللسان مع خلوّ القلب عنه لا يخلو من فائدة؛ لأنه يمنعه من التكلم باللغو، ويجعل لسانه معتاداً بالخير، وقد

---

(١) انظر مجمع البيان: ج١، ص٤٣٤، تفسير الآية ١٥٢ من سورة البقرة؛ وتفسير الميزان: ج١٦، ص١٣٦، في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾؛ ومفردات الراغب: ص١٨١، (ذكر)؛ ومجمع البحرين: ج٣، ص٣١١، (ذكر).

(٢) سورة الأعراف: الآية ٢٠٥.

(٣) سورة البقرة: الآية ٤٠.

يلقي الشيطان إليه أنّ حركة اللسان بدون توجّه القلب عبث ينبغي تركه، فاللائق بحال الذاكر حينئذ أن يحضر قلبه رغماً للشيطان، ولو لم يحضره فاللائق به أن لا يترك ذكر اللسان رغماً لأنفه أيضاً[(١)].

قال المحقق الكاشاني في خلاصة الأذكار: إن قيل الذكر بمجرد اللسان مع غفلة القلب هل فيه فائدة أم لا؟ فنقول: نعم. إن ذلك لا يخلو من فائدة ما، من حيث إنّه اشتغل بطاعة الله من وجه فإن الميسور لا يسقط بالمعسور، وما لا يدرك كله لا يترك كله. قيل لأبي عثمان المغربي: إن لساني في بعض الأحوال يجري بالذكر والقرآن وقلبي غافل، فقال: اشكر الله إذا استعمل جارحة من جوارحك في خير، وعوّدهُ الذكر، ولم تستعمله في الشر، ولم يعوّده الفضول، ولا يخفى أنَّ هذا النوع من الذكر قليل الجدوى جداً، إلى أن قال: قيل ينبغي لمثل هذا أن يحتاط في ألفاظ ذكره، فلا يستعمل منها إلّا ما يناسب حاله لئلا يكذب أو يذنب، كما قال الربيع بن خيثم: لا يقل أحدكم أستغفر الله وأتوب إليه فيكون ذنباً وكذباً، بل يقول: اللهم اغفر لي وتب عليّ. يعني بذلك أنه إذا استغفر عن قلب لاه لا يستحضر طلب المغفرة، ولا يلجأ إلى الله بقلبه فيكون ذلك ذنباً، وإذا قال: أتوب إليه ولم يتب فذلك كذب، وإلى هذا أشارت رابعة العدوية حيث قالت: استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير[(٢)].

---

(١) البحار: ج٦٨، ص٢٠٥، توضيح.

(٢) خلاصة الاذكار: ص٢٧٤-٢٧٥؛ وانظر أعيان الشيعة: ج٦، ص٤٥٦.

ولا يخفى أن هذا يصح بلحاظ أدب العبد وسعيه لتهذيب نفسه، وأما بلحاظ النوع فهو غير صحيح؛ لورود الآيات والأخبار الحاثة على إظهار الاستغفار بصيغة الاستفعال والدعاء بصيغة (اللهم).

هذا وقد قسم العلامة المجلسيقدس سره الذكر إلى أقسام ثم قال: وأما الذكر اللساني بدون الذكر القلبي كما هو الشائع عند أكثر الخلق لو كان له ثواب لكانت له درجة نازلة من الثواب، ولا ريب أن الذكر القلبي فقط أفضل منه، وكذا المواعظ والنصائح التي يذكرها الوعّاظ رياءً من غير تأثر قلبهم بها، فهذا أيضاً لو لم يكن صاحبه معاقباً فليس بمثاب ثم إن العامة اختلفوا في أن الذكر القلبي هل تعرفه الملائكة وتكتبه أم لا؟ فقيل بالأول؛ لأن الله تعالى يجعل له علامة تعرفه الملائكة بها، وقيل بالثاني؛ لأنهم لا يطّلعون عليها[(١)].

وبذلك يعرف أن غاية ذكر العبد لربه تبارك وتعالى هو التقرب منه وكمال التقرب منه يتم بالتخلّق بأخلاقه، كما ورد الأمر به: ((تخلّقوا بأخلاق الله))[(٢)] وورد: ((تخلّقوا بأخلاق الروحانيين))[(٣)] وهو من أعلى مراتب الذكر، ومن هنا قالوا بأنه موصل إلى مقام الولاية.

---

(١) البحار: ج٧٢، ص٣٢-٣٣، ح٢٤، (بتصرف).

(٢) البحار: ج٥٨، ص١٢٩، الحجة السادسة.

(٣) تفسير الصراط المستقيم: ج١، ص٤٢٧؛ الحكمة المتعالية: ج٥، ص١٠٨، الحاشية.

ومنها: القرآن الكريم كما دلّت عليه الآيات الشريفة. قال تعالى: ﴿**أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا**﴾[(١)] ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ**﴾[(٢)] بمعنى أن يجعل القرآن طريقاً إلى القرب إليه سبحانه في الأفكار والأعمال، فإنّ الحق وكمالاته تجلّى في آيات القرآن، وفيه الأدلة التي إذا تفكر فيها العاقل عرفه عزّ وجل عقلاً وشرعاً، فكما أنّ كتاب التكوين يشرح صفات الحق وأسماءه وكمالاته تكويناً كذلك كتاب التدوين يشرح هذه الصفات والكمالات الداعية إلى الهدى والصراط المستقيم، وبهذه العناية أيضاً سمّي القرآن وحي النبوة، والكتب المنزّلة على الأنبياء ذكراً، والآيات في ذلك كثيرة لا حاجة إلى إيرادها في هذا الموضع، فالقرآن الكريم ذكر كما أن كتاب نوح وصحف إبراهيم وتوراة موسى وزبور داود وإنجيل عيسى عليه السلام وغيرها من الكتب السماوية المذكورة في القرآن كلها ذكر، وأهلها المتعاطون لها المؤمنون بها أهل الذكر[(٣)]، وفي الأخبار ما يدل على ذلك[(٤)].

---

(١) سورة ص: الآية ٨.

(٢) سورة الحجر: الآية ٩.

(٣) انظر مفردات الراغب: ص١٨١، (ذكر)؛ ومجمع البحرين: ج٣، ص٣١١، (ذك ر).

(٤) في تفسير البرهان: ج٣، ص٤٢٥، ح٨.

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «جلّ ذكره: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ قال: الكتاب الذكر، وأهله آل محمد صلى الله عليه وآله أمر الله عز وجل بسؤالهم ولم يأمر بسؤال الجهّال، وسمّى الله عز وجل القرآن ذكراً، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وقال عز وجل: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾».

وجاء في ح١١ من المصدر نفسه: عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ قال: «الذكر القرآن، وآل رسول الله أهل الذكر، وهم المسؤولون».

ومنها: رسول الله صلى الله عليه وآله. قال تعالى ﴿**قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا رَّسُولًا**﴾(١) فالذكر وصف للنبي صلى الله عليه وآله، كما أن الكلمة وصف لعيسى عليه السلام، بناء على أن رسولاً بدلاً منه، ولكونه في كمال التذكير صار عين الذكر، من قبيل قولهم (زيد عدل) و (علي حق) وهو المروي، فعن الرضا عليه السلام قال: في حديث المأمون: «الذكر رسول الله صلى الله عليه وآله، ونحن أهله، وذلك بيّن في كتاب الله حيث يقول في سورة الطلاق: ﴿**فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُوْلِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ**﴾(٢) قال: فالذكر رسول الله ونحن أهله»(٣).

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قوله: ﴿**فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُوْلِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَّسُولًا**﴾ قال: الذكر اسم من أسماء محمد، ونحن أهل الذكر»(٤).

ولعل الوجه في ذلك أن وجوده صلى الله عليه وآله مذكر بالله سبحانه، ومذكر بآدابه وأخلاقه، بل هو مجلى كمالات الخالق وأسمائه وصفاته، فهو وجه الله وعين الله ونور الله وحجة الله وخليفته في أرضه وسمائه.

فهو في حقيقته التكوينية ذكر، وكذا في حقيقته التشريعية.

---

(١) سورة الطلاق: الآيتان ١٠-١١.

(٢) سورة الطلاق: الآيتان ١٠-١١.

(٣) تفسير البرهان: ج٤، ص٣٥٠، في تفسير الآية ١٠ من سورة الطلاق؛ مسند الإمام الرضا عليه السلام: ج٢، ص١٢٠؛ تفسير نور الثقلين: ج٣، ص٥٧، ح٩٨.

(٤) تفسير البرهان: ج٣، ص٤٢٥، ح١٠.

ومنها: آل محمد عليهم السلام بعد حذف المضاف إليه ومع أنه كالأول في النتيجة إلّا أن التفريق لبيان اختلاف المرتبة أو بالحمل على مجاز التقدير وبه وردت الآيات والروايات قال تعالى: ﴿**فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ**﴾[١] وفي تفسيره ورد عنهم عليهم السلام: ﴿نحن والله أهل الذكر﴾[٢] فهو من قبيل قوله: ﴿**وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ**﴾[٣] على ما يبدو، ووجه كونهم أهل الذكر ظاهر جلي، وفي الأخبار عن علي بن حمزة قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ﴿شيعتنا الرحماء بينهم

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٧؛ سورة النحل: الآية ٤٣.

(٢) راجع مجمع البحرين: ج٣، ص٣٠٩، (ذ ك ر) قوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ سورة النحل: الآية ٤٣، عن أبي جعفر عليه السلام قال: ﴿نحن والله أهل الذكر﴾ فقلت: أنتم المسؤولون؟ قال: ﴿نعم﴾ قلت: وعليكم أن تجيبونا قال: ﴿ذاك إلينا إن شئنا فعلنا، وإن شئنا تركنا﴾.

ورد في البرهان: ج٣، ص٤٢٣، في تفسير الآية ٤٣ من سورة النحل.

ح١: عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الذكر أنا، والأئمة أهل الذكر، وقوله عز وجل: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ قال أبو جعفر عليه السلام: ﴿نحن قومه، ونحن المسؤولون﴾.

وجاء في ح٥: عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت له إن من عندنا يزعمون أن قول الله تعالى: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ أنهم اليهود والنصارى؟ فقال: ﴿إذاً يدعونكم إلى دينهم﴾ قال: ثم أومى بيده إلى صدره ﴿نحن أهل الذكر، ونحن المسؤولون﴾ وقال: قال أبو جعفر عليه السلام: ﴿الذكر القرآن﴾، وانظر الوسائل: ج١٧، الباب ٧ من أبواب صفات القاضي، ص٢٦٨، ح٢١٣٠٤.

(٣) سورة يوسف: الآية ٨٢.

الذين إذا خلوا ذكروا الله. إنّ ذكرنا من ذكر الله، إنّا إذا ذكرنا ذكر الله وإذا ذكر عدوّنا ذكر الشيطان﴾[١].

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ﴿تزاوروا فإنّ في زيارتكم إحياء لقلوبكم، وذكراً لأحاديثنا، وأحاديثنا تعطف بعضكم على بعض، فإن أخذتم بها رشدتم ونجوتم، وإن تركتموها ضللتم وهلكتم، فخذوا بها وأنا بنجاتكم زعيم﴾[٢].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: ﴿ما اجتمع في مجلس قوم لم يذكروا الله عز وجل ولم يذكرونا إلّا كان ذلك المجلس حسرة عليهم يوم القيامة﴾ ثم قال: قال أبو جعفر عليه السلام: ﴿إنّ ذكرنا من ذكر الله، وذكر عدوّنا من ذكر الشيطان﴾[٣].

ومنها: العبادة، والمراد بها العمل بصدق النية، وهو يجري في التعبديات، بل والتوصليات من الواجبات والمندوبات والمباحات إذا قصد بها القربة الخالصة.

ولعل إليه أشار تفسير البعض لقوله تعالى: ﴿**اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا* وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا**﴾[٤] حيث قال: الذكر يشمل الصلاة وقراءة القرآن والحديث وتدريس الصلاة ومناظرة العلماء[٥]، والوجه أن في العبادة والعلم ذكر القلب والعقل والجوارح.

---

(١) الكافي: ج٢، ص١٨٦، ح١.

(٢) المصدر نفسه: ح٢.

(٣) الكافي: ج٢، ص٤٩٦، ح٢.

(٤) سورة الأحزاب: الآيتان ٤١-٤٢.

(٥) مجمع البحرين: ج٣، ص٣١١، (ذكر).

وأما عطف التسبيح على الذكر فإما من باب عطف الخاص على العام لأهميته، وقد فسّر بصلاتي الصبح والعشاء الآخرة، فخصهما بالذكر؛ لأن لهما مزية على غيرهما من حيث إن ملائكة الليل والنهار تجتمع فيهما(١)، أو من باب عطف المباين على المباين؛ لكون التسبيح تنزيهاً، والذكر حمد وثناء، ففي الأول معنى السلب لتعلقه بصفات الجلال، وفي الثاني معنى الإيجاب لتعلقه بصفات الجمال.

هذا والمقصود من النية الخالصة غير ما قد يتصوره البعض من إقران العمل بلفظ النية؛ لأن هذا مجرد لقلقة لسان وحديث نفس أو خطور فيها، وهذه ليست معنية عند الكُمّلين، بل هي ميل النفس وانقطاعها إلى الله سبحانه دون مزاحمة أو مشاركة أي جهة أخرى، ولعله إليه أشار قول سيد البشر صلى الله عليه وآله: «إنّما الأعمال بالنيات»(٢) و: «لكل امرئ ما نوى»(٣) و: «نيّة المؤمن خير من عمله»(٤) وهذا الميل هو جوهر العبودية ومنشأ الآثار الإلهية والبركات الربانية. قال بعض العارفين: إن الله تعالى جعل خزائن نعمه عرضة لمؤمليه، وجعل مفاتيحها صدق نيّة راجيه(٥).

---

(١) مجمع البيان: ج٨، ص١٦٧، تفسير الآية ٤٢ من سورة الأحزاب.

(٢) التهذيب: ج٤، ص١٨٦، ح٥١٩؛ أمالي الطوسي: ص٦١٨، ح١٢٧٤.

(٣) المصدران السابقان.

(٤) الكافي: ج٢، ص٨٤، ح٢؛ علل الشرائع: ج٢، ص٥٢٤، ح١؛ مشكاة الأنوار: ص٢٥٧، ح٧٥٩.

(٥) كشكول البهائي: ج٢، ص٣١٨.

وقال الشيخ البهائي قدس سره: يظن البعض أن قوله عند تسبيحه أو تدريسه أسبّح قربة إلى الله أو أدرس قربة إلى الله محتضراً معنى هذه الألفاظ على خاطره هو النية، وهيهات إنما ذلك تحريك لسان وحديث نفس أو فكر وانتقال من خاطر إلى خاطر، والنية عن جميع ذلك بمعزل. إنما النّية انبعاث النفس وانعطافها وميلها وتوجهها إلى فعل ما فيه غرضها وبغيتها، وهذا الانبعاث والميل إذا لم يكن حاصلاً لها لم يمكنها اختراعه واكتسابه بمجرد الإرادة المتخيلة، وما ذلك إلّا كقول الشبعان أشتهي الطعام وأميل إليه قاصداً حصول تلك الحالة، وكقول الفارغ أعشق فلاناً وأحبه وأعظمه بقلبي، بل لا طريق إلى اكتساب صرف القلب إلى الشيء وميله وتوجهه إليه إلّا باكتساب أسبابه، فإن النفس إنما تنبعث إلى الفعل الذي يقصده ويميل إليه إجابة للغرض الموافق الملائم لها بحسب اعتقادها، وما يغلب عليها من الأحوال، فإذا غلبت شهوة النكاح واشتد توقان النفس إليه لا يمكن المواقعة على قصد الولد، بل لا يمكن إلّا على نية قضاء الشهوة فحسب وإن قال بلسانه أفعل السنّة وأطلب الولد قربة إلى الله محضراً معاني هذه الألفاظ بباله، ومحضراً لها في خياله[1].

أقول: وهذا أحد الوجوه في ترجيح نتيجة النية على العمل في الخير والشر في مثل قولهم عليهم السلام: «نيّة المؤمن خير من عمله»[2].

---

(١) كشكول البهائي: ج٢، ص٣١٨، (بتصرّف).

(٢) الكافي: ج٢، ص٨٤، ح٢؛ علل الشرائع: ج٢، ص٥٢٤، ح١.

ومنها: الخلق؛ لأن المخلوق كلمة الخالق وآية وجوده، كما أن جمال المخلوق ودقّة نظمه دليل على كمال الخالق وحكمته، فوجود المخلوق ذكر للخالق؛ إذ هو كلمته، والكلمة دليل على المتكلم في أصل الوجود، وكمالها دليل على كماله؛ لأن الكلام صفة المتكلم، وتقال على الأقوال والأفعال، ومن الثاني قوله سبحانه: ﴿**بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ**﴾[1] وقوله عزّ وجل: ﴿**قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي**﴾[2] إذ فسرت الكلمات في بعض التفاسير بالمصنوعات.

وفي الدعاء: ﴿نعوذ بكلمات الله التامات﴾ قيل: هي أسماؤه الحسنى وكتبه المنزلة[3]، وفي الأخبار الشريفة هي المعصومون عليهم السلام[4].

ولا يراد من قولهم أن الله متكلم ما كان بأداة وجارحة لسان؛ لأنه عز وجل لا يتكلم. وإنما المراد قوله وفعله الذي أوجده في بعض الأجسام كما في الشجرة التي كلمت موسى عليه السلام، وبذلك يظهر أن ما ذهب إليه الأشاعرة من أنه عز وجل متكلم بلسان وشفتين بديهي البطلان؛ لاستلزامه الجسمانية والحاجة والحدوث وهو عزّ وجل منزّه عنها، وعلى هذا فإن كلامه سبحانه حادث وليس بقديم، كما يظهر أيضاً أن ما ذهب

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٤٥.

(٢) سورة الكهف: الآية ١٠٩.

(٣) مجمع البحرين: ج٦، ص١٥٧، (كلم).

(٤) عيون المعجزات: ص٢٩؛ الفضائل: ص١١٤.

إليه بعضهم في تفسير الكلام بالمعنى القائم بالنفس المسمى بالكلام النفسي لا دليل عليه، بل قام الدليل على بطلانه كما حقق في الكلام[١] والأصول[٢].

ومنها: غير ذلك من معان ومصاديق، ويمكن إرجاع المراتب المذكورة وغيرها إلى تقسيم ثلاثي حاصر بين التكوين والتدوين والتشريع فتأمل تعرف.

وبعد أن عرفت أن حقيقة الذكر حضور المذكور لدى الذاكر يعرف وجه كونه عزّ وجل ذاكراً، فهو من جهة بمعنى حضور ذاته لذاته بذاته، ومن هنا كان سبحانه أجلّ ذاكر؛ لأن ذاته حاضرة لديه بلا نقص وتأثير سبب، بل حضور ذاته لذاته بذاته.

كما أن مخلوقه بعلمه الحضوري حاضر عنده دائماً، فهو سبحانه ((خير الذاكرين)) نعم ذكره لذاته علمه بذاته سبحانه، كما أن ذكره لمخلوقه بعلمه به أولاً ثم بالإفاضة عليه في أصل الوجود وكمالاته ثانياً، ولعل وصفه سبحانه: ((بخير الذاكرين)) من هذا الباب[٣].

والشفاعة في قوله: ﴿**وأستشفع بك إلى نفسك**﴾ التقوية والإعانة[٤]، ويراد بها الانضمام إلى آخر ناصراً له وسائلاً عنه، وأكثر ما تستعمل في انضمام من هو أعلى حرمة ومرتبة إلى من هو أدنى[٥]، ووجهه ظاهر، وحيث

---

(١) شرح الأسماء الحسنى: ج١، ص١٨٤.

(٢) منتهى الأصول: ج١، ص١١٦.

(٣) انظر شرح الأسماء الحسنى: ج١، ص٣٨، باختلاف يسير.

(٤) مجمع البحرين: ج٤، ص٣٥٤، (شفع).

(٥) مفردات الراغب: ص٢٦٣، (شفع).

إن المقام مقام القرب والدنو من ساحته المقدسة تبارك وتعالى جعل نفسه القدوسية شفيعاً له في نيل المقصود؛ لأنه الكريم الرحيم الذي لا يخيب سائلاً، أو يرد آملاً، إذا أزال السائل موانع الإجابة عن نفسه، وقد سعى في ذلك بما تقدم من دعوات فانتظر الرد وضمن الإجابة؛ لأنه عزّ وجل قال: ﴿**فاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾[1] ولكن حيث يرد احتمال بقاء بعض الموانع اتخذه شافعاً ليضمن تحقق المقصود. روي عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿الشفيع جناح الطالب﴾[2] وقال رجل لبعض الولاة: إن الناس يتوسلون إليك بغيرك فينالون معروفك، ويشكرون غيرك، وأنا أتوسل إليك بك ليكون شكري لك لا لغيرك[3]، وحيث إن التغاير اعتباري بين الشفيع والشافع لا يبقى مورد للتساؤل عن كيفيته.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٥٢.

(٢) نهج البلاغة: ص٤٧٩، قصار الحكم ٦٣.

(٣) المستطرف في كل فنٍ مستظرف: ج١، ص٢٢٢.

﴿وَأَسْأَلُكَ بِجُودِكَ أَنْ تُدْنِيَنِي مِنْ
قُرْبِكَ، وَأَنْ تُوزِعَني شُكْرَكَ، وَأَنْ
تُلْهِمَني ذِكْرَكَ﴾

الشكر والذكر

الباء في ﴿بجودك﴾ إما للقسم أو سببية[1]، والجود والكرم على بعض الوجوه من قبيل الفقير والمسكين، فالجود بذل المقتنيات مالاً أو علماً[2]، ومنه الجيد. يقال للشيء الذي بذل فيه ما يستحقه من جهد أو مال أو علم، وقولهم أجاد فلان في شعره أو منطقه أو صنعته على هذا المعنى، والجواد: الذي لا يبخل بعطائه، ومنه الدعاء: ﴿أنت الجواد الذي لا يبخل﴾[3] وهو على هذا المعنى يقرب من صفات الذات؛ لعدم انفكاكه عن الغني المطلق.

وفي الحديث سأل رجل أبا الحسنعليه السلام وهو في الطواف فقال له: أخبرني عن الجواد؟ فقالعليه السلام: ﴿إن لكلامك وجهين، فإن كنت تسأل عن المخلوق فإن الجواد الذي يؤدي ما افترض الله عزّ وجل عليه، والبخيل من بخل بما افترض الله عليه، وإن كنت تعني الخالق فهو الجواد إن أعطى، وهو الجواد إن منع؛ لأنه إن أعطى عبداً أعطاه ما ليس له، وإن منع منع ما ليس له﴾[4].

---

(١) انظر مغني اللبيب: ج١، ص١٠٣، في معاني الباء المفردة.

(٢) مفردات الراغب، ص١٠٣، ((جود)).

(٣) مصباح المتهجد: ص٤٧٩؛ المصباح: ١٢٦؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٢٩، ((جود)).

(٤) التوحيد: ص٣٧٣، ح١٦، (بتصرف)؛ الخصال: ص٤٣، ح٣٦؛ عيون أخبار الرضاعليه السلام: ج٢، ص١٢٩، ح٤١.

والكرم: كل ما يرضى ويحمد من الأفعال والأوصاف[١]، ومنه قولهم: وجه كريم: أي مرضي في حسنه وبهائه، وكتاب كريم: أي مرضي في معانيه[٢].

والكريم: من صفات الله وأسمائه يطلق على إحسانه وإنعامه الظاهر. قال سبحانه: ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾[٣] وهو اسم لذي الأخلاق والأفعال المحمودة الظاهرة منه[٤]، ووصف به يوسف الصديق عليه وعلى نبينا ألف تحية وسلام؛ لأنه اجتمع له شرف النبوة والعلم والعدل ورياسة الدنيا[٥]. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾[٦] يعني كرّمناهم بالنطق والعقل والتمييز والصورة الحسنة وتسليطهم على ما في الأرض وتسخير سائر الحيوانات لهم[٧]، وهو من صفات الفعل، وعلى هذا تظهر وجوه الافتراق والاجتماع عن الجود، ولعل من هنا تدرج في السؤال من الجود إلى الكرم، أو باعتبار أن الجواد هو الذي يعطي مع السؤال والكريم الذي يعطي من غير سؤال، ولذا وصف بالكرم؛ لأن فيه تكريم وتعزيز للمعطى إليه، وليس العكس

---

(١) انظر مجمع البيان: ج٤، ص٤٢٧-٤٢٨، تفسير الآية ٤من سورة الانفال؛ والمصدر نفسه: ج١٠، ص٢٨٦، تفسير الآية ٦من سورة الانفطار.

(٢) مجمع البحرين: ج٦، ص١٥٢، (كرم).

(٣) سورة النمل: الآية ٤٠.

(٤) انظر مفردات الراغب: ص٤٤٥-٤٤٦، (كرم)؛ لسان العرب: ج١٢، ص٥١٠، (كرم).

(٥) مجمع البحرين: ج٦، ص١٥٢، (كرم).

(٦) سورة الإسراء: الآية ٧٠.

(٧) انظر مجمع البيان: ج٦، ص٢٧٣-٢٧٤، تفسير الآية ٧٠ من سورة الإسراء.

كما ذكر[١]، فذكر الجود قبل الكرم للترقّي من الأدنى إلى الأعلى؛ بداهة أن الإعطاء قبل السؤال أو دونه أنسب بكمال الغني.

وطلب أن يدنيه من قربه. كأنه قال أسألك بسبب جودك وكرمك أن تعطيني بعطاء هو القرب منك، وذلك عبر تهيئة أسبابه ووسائله، وهو التوفيق لطاعتك وإدامة عبادتك حتى يحصل من هذا الدوام التخلق بأخلاقك، والاتصاف بصفاتك على ما أمرت بالسؤال، ووعدت بالإجابة، وهو يستفاد من مثل الحديث القدسي: ﴿عبدي أطعني أجعلك مثلي، أنا حي لا أموت أجعلك حياً لا تموت، أنا غني لا أفتقر أجعلك غنياً لا تفتقر، أنا مهما أشأ يكن أجعلك مهما تشأ يكن﴾[٢]، ومنه: أن لله عباداً أطاعوه فيما أراد فأطاعهم فيما أرادوا. يقولون للشيء كن فيكون[٣].

ونلاحظ أن أول طلب سأله الإمام عليه السلام بعد كل تلك المقدمات هو الدنو منه سبحانه؛ لأن القرب هو غاية كل العبادات البدنية والقلبية، الظاهرية والباطنية، ولعله هو الغاية في الخلق أيضاً، بناء على أن غاية المعرفة هو القرب منه والاتصاف بكمالاته.

ولعل هذه هي الحكمة في وجوب قصد القربة في العبادات وسائر المستحبات، والمقصود من الدنو ليس المكاني بل المقامي؛ لتنزهه تعالى عن المكان

---

(١) معجم الفروق اللغوية: ص١٧١، (٦٧٤).

(٢) انظر مشارق انوار اليقين: ص١٠٠.

(٣) انظر مشارق انوار اليقين: ص١٠٠.

والزمان، ومن مراتب القرب المقامي الترفع من نواقص الإمكان والطبيعة البشرية العاجزة والرقي إلى التخلق بالأخلاق الإلهية وكمالاتها الرفيعة.

ومن أعظم آثار الشكر أنه يزيد النعم، فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من أُعطي الشكر أُعطي الزيادة. يقول الله عز وجل: ﴿**لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ**﴾[١]»[٢].

وعنه عليه السلام قال: «مكتوب في التوراة أُشكر من أنعم عليك، وأنعم على من شكرك، فإنه لا زوال للنعماء إذا شكرت، ولا بقاء لها إذا كفرت، الشكر زيادة في النعم وأمان من الغير»[٣].

وعنه عليه السلام قال: «ما أنعم الله على عبد من نعمة فعرفها بقلبه وحمد الله ظاهراً بلسانه فتمّ كلامه حتى يؤمر له بالمزيد»[٤].

وقال بعضهم: قد جعل الله لعباده علامة يعرف بها الشاكر، فمن لم يظهر عليه المزيد علمنا أنه لم يشكر، فإذا رأينا الغني يشكر الله تعالى بلسانه وماله في نقصان علمنا أنه قد أخل بالشكر إما أنه لا يزكي ماله، أو يزكيه لغير أهله، أو يؤخره عن وقته، أو يمنع حقاً واجباً عليه من كسوة عريان أو إطعام جائع أو شبه ذلك[٥].

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٧.

(٢) انظر الكافي: ج٢، ص٩٥، ح٨.

(٣) الكافي: ج٢، ص٩٤، ح٣.

(٤) المصدر نفسه: ج٢، ص٩٥، ح٩.

(٥) المستطرف: ج١، ص٣٨٧.

ونعم الله سبحانه لا تعد ولا تحصى يعجز عن بلوغ شكرها شاكر، إلّا أن في بعض الأخبار من قال سبع مرات في اليوم: الحمد لله على كل نعمة كانت أو هي كائنة فقد أدى شكر جميع النعم[١].

وقد اتفقت كلمة أهل المعرفة على أن الشكر من أظهر آداب العبودية ومقاماتها؛ إذ العقل قبل النقل يحكم بوجوب شكر المنعم؛ لأن بالشكر اعتراف ضمني بالعجز والنقص والفقر للخالق العظيم، وأنه لولاه لما كان شيئاً مذكوراً[٢].

وهذا الاعتراف بالنقص يسوق الإنسان إلى مقام التواضع والخضوع والتذلل أمام الخالق، وهو يدنيه لمقام العبودية التي تقوده إلى التخلق بأخلاق العبد الكامل مقابل المولى العظيم، وهو من أعظم أسباب القرب منه سبحانه.

آثار دوام الشكر

إن الشكر من الأعمال التي يحكم بها العقل الأولي، ولكن التوفيق لهذا المقام لا يحصل إلّا للأوحدي. قال تعالى: ﴿**وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**﴾[٣] ولهذا ما سأل عليه السلام الشكر وإنما إيزاعه فقال: ﴿أن توزعني شكرك﴾

---

(١) انظر ثواب الأعمال: ص٩؛ الوسائل: ج٧، الباب ٤٨ من أبواب الذكر، ص٢٣٢، ح٩١٧٢.

(٢) انظر الباب الحادي عشر: ص١٨.

(٣) سورة سبأ: الآية ١٣.

والإيزاع هو الولوع على قول[١] والإلهام على آخر[٢] وهذا ما لا يمكن إلّا بالتسديد والتوفيق الإلهيين.

والفرق بينهما يظهر من وجهين:

أحدهما: في متعلق السؤال، فإنه على القول الأول متعلقه حصول الميل والشوق المؤكد للشكر حتى يجد العبد لذته فيه فلا ينفك عنه، وعلى الثاني التذكير به ليقوم العبد بفعله.

ثانيهما: في المعنى، فإن الولوع يتحرك في ذات العبد ويبتدئ الشكر منهُ، وأما فعل الباري عز وجل فهو إيجاد سببه وهو الولوع، وهذا يغاير الإلهام؛ لأنه يستند الشكر فيه إلى العبد سبباً ومسبباً، وأما فعل الباري عزّ وجل الذي تعلّق به السؤال هو التذكير الدائم به لكي لا يغفل العبد عنه أو ينساه، بل ليديمه أبداً، وعلى هذا جاء قول الشاعر:

أوليتني نعماً أبوح بشكرها وكفيتني كل الأمور بأسرها
فلأشكرنّك ما حييت وإن أمت فلتشكرنّك أعظمي في قبرها[٣]

وقول آخر:

أيا رب قد أحسنت عوداً وبدأة إليّ فلم ينهض بإحسانك الشكر

---

(١) مفردات الرغب: ص٥٥٩، (وزع)؛ لسان العرب: ج٨، ص٣٩٠، (وزع).

(٢) مجمع البيان: ج٧، ص٣٦٨، تفسير الآية ١٩ من سورة النحل؛ مجمع البحرين: ج٤، ص٤٠٢، (وزع).

(٣) المستطرف: ج١، ص٣٨٩.

فمن كان ذا عذر لديك وحجة　　　فعذري إقراري بأن ليس لي عذرُ[١]

هذا وقول بعضهم الإيزاع: أصله المنع، وأوزعني: منعني عن الانصراف عن ذلك باللطف[٢] يتوافق مع ما تقدم، وكذا من فسّره بإيصال الشيء إلى القلب؛ بداهة أن القلب محل الولوع والإلهام[٣].

وحيث إن الشكر أمر اختياري يعرفه كل عاقل لم يقع عليه السؤال، بل وقع على ما يحتاج إلى التوفيق المستمر له، وهو الولوع به أو تذكره الدائم المستمر الذي يعد من أبرز سمات العباد الصالحين، ولذا وقع في سياق تعداد النعم الإلهية الظاهرة والباطنة، وهو من أكبر ما سأله الأنبياء والأولياء عليهم السلام من الخالق الكريم جل جلاله. قال تعالى على لسان سليمان عليه السلام: ﴿**رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ**﴾[٤] أراد بالنعمة عليه تعليمه منطق الطير والنمل وإكرامه بالملك والنبوة، وعلى داود عليه السلام بإكرامه بالنبوة وإلانة الحديد له وإعطائه فصل الخطاب، وأما والدته فمن أفضلها زواجها من نبي الله سبحانه وحجته[٥]؛ لتكون في ظل النعم الظاهرة والباطنة، وقال تعالى: ﴿**وَوَصَّيْنَا الإنسان**

---

(١) المستطرف: ج١، ص٣٨٩.

(٢) مجمع البيان: ج٩، ص١٤٢، تفسير الآية ١٥ من سورة الأحقاف؛ وانظر لسان العرب: ج٨، ص٣٩٠، (وزع).

(٣) انظر مجمع البيان: ج٩، ص١٤٢؛ لسان العرب: ج٨، ص٣٩٠، (وزع).

(٤) سورة النمل: الآية ١٩.

(٥) انظر مجمع البيان: ج٧، ص٣٧١، تفسير الآية ١٩ من سورة النمل.

بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[١].

أقسام الشكر

لعل أجمع ما قيل في تعريف الشكر ما في مفردات الراغب. قال: الشكر تصوّر النعمة وإظهارها[٢]، وإنما أدخل التصوّر في معانيه؛ لأن ضدّه النسيان، وهو ينشأ من الغفلة أو الجحود، وهما نقيضا الشكر، ومن هنا نشأ التقسيم الثلاثي للشكر. قالوا: الشكر ثلاثة أضرب: شكر بالقلب وهو تصوّر النعمة، وشكر باللسان وهو الثناء على المنعم، وشكر بسائر الجوارح وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقها[٣].

وعن المحقق الطوسي قدس سره: الشكر أشرف الأعمال وأفضلها، واعلم أن الشكر مقابلة النعمة بالقول والفعل والنية، وله أركان ثلاثة:

الأول: معرفة المنعم وصفاته اللائقة به، ومعرفة النعمة من حيث إنّها نعمة، ولا تتم تلك المعرفة إلّا بأن يعرف أن النعم كلّها جليّها

---

(١) سورة الاحقاف: الآية ١٥.

(٢) مفردات الراغب: ص٢٦٥، (شكر).

(٣) البحار: ج٦٨، ص٢٢، تبيين؛ مفردات الراغب: ص٢٦٥؛ وانظر مجمع البحرين: ج٣، ص٣٥٣، (شكر).

وخفيّها من الله سبحانه، وأنه المنعم الحقيقي، وأن الأوساط كلّها منقادة لحكمه مسخّرة لأمره.

الثاني: الحال التي هي ثمرة تلك المعرفة، وهي الخضوع والتواضع والسرور بالنعم من حيث إنّها هدية دالة على عناية المنعم بك، وعلامة ذلك أن لا تفرح من الدنيا إلّا بما يوجب القرب منه.

الثالث: العمل الذي هو ثمرة تلك الحال، فإنّ تلك الحال إذا حصلت في القلب حصل فيه نشاط للعمل الموجب للقرب منه، وهذا العمل يتعلق بالقلب واللسان والجوارح.

أما عمل القلب فالقصد إلى تعظيمه وتحميده وتمجيده والتفكر في صنائعه وأفعاله وآثار لطفه والعزم على إيصال الخير والإحسان إلى كافّة خَلقه.

وأما عمل اللسان فإظهار المقصود بالتحميد والتمجيد والتسبيح والتهليل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى غير ذلك.

وأما عمل الجوارح فاستعمال نعمه الظاهرة والباطنة في طاعته وعبادته والتوقّي من الاستعانة بها في معصيته ومخالفته كاستعمال العين في مطالعة مصنوعاته وتلاوة كتابه ومذاكرة العلوم المأثورة من الأنبياء والأوصياء عليهم السلام، وكذا سائر الجوارح.

فظهر أن الشكر من أمهات صفات الكمال، وتحقّق الكامل منه نادر كما قال سبحانه: ﴿**وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**﴾ ولما كان الشكر بالجوارح التي هي من نعمه تعالى ولا يتأتى إلّا بتوفيقه سبحانه فالشكر أيضاً نعمة من نعمه، ويوجب شكراً آخر فينتهي إلى الاعتراف بالعجز عن الشكر، فآخر مراتب

الشكر الاعتراف بالعجز عنه، كما أن آخر مراتب المعرفة والثناء الاعتراف بالعجز عنهما، وكذا العبادة كما قال سيّد العابدين العارفين والشاكرين ﷺ: ﴿لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك﴾. وقال ﷺ: ﴿ما عبدناك حق عبادتك، وما عرفناك حق معرفتك﴾[(١)].

فتحصل: أن الشكر القلبي عبارة عن المعرفة بالنعم الإلهية والعلم بأنها منه سبحانه لا غير، وهو من أشرف أقسام الشكر، ومن هنا قالوا: إنه واجب على جميع الخلائق، وقد ورد في المأثور الكثير مما يشهد له، وما قيل من أن الشكر معرفة العجز عن الشكر يرجع إليه[(٢)]، وقد يقال إن العبادات القلبية أفضل من العبادات البدنية؛ لكون القلوب محل النوايا، وهي تعطي العمل حقيقته من حيث السمو والدنو، وقد ورد النص بأن: ﴿نية المؤمن خير من عمله، ونية الكافر شرّ من عمله، وكل عامل يعمل على نيته﴾[(٣)] هذا بناء على أن (من) (للتفضيل)[(٤)] وليست (جنسية)[(٥)] وهو وجيه؛ لتقوّم عبادية العمل ومقبوليته بالنية، والله سبحانه ينظر إلى القلوب قبل الصور والأعمال، كما يستفاد من متضافر الأدلة، وربما يرد عليه أن العمل أشق على العبد من النية فكيف تفضله النية؟ ويمكن الجواب عنه من وجهين:

---

(١) البحار: ج٦٨، ص٢٢، ح١، (بتصرف).

(٢) انظر المستطرف: ج١، ص٣٨٦.

(٣) انظر الكافي: ج٢، ص٨٤، ح٢.

(٤) موسوعة النحو والصرف والإعراب: ص٦٥٦، الرقم ٩.

(٥) انظر مغني اللبيب: ج١، ص٣١٩ من أوجه (مِنْ).

الأول: عدم تسليم أشقية العمل من النية، بل الأمر بالعكس عند الكُمّلين؛ إذ ليس المقصود من النية مجرد القصد أو معرفة وجه العمل كما قد يألفه العموم، بل المراد النية الخالصة، وهي من أصعب الأمور وأشقها على العباد؛ إذ لا يصل إليها أحد إلّا بعد تنزيه الجوانح وتهذيب الأعمال بمزيد الطاعات على ما هو مقتضى الإخلاص بحسب المعنى اللغوي(١). قال تعالى: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء**﴾(٢) و:﴿**وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾(٣).

الثاني: أن المعيار في التفاضل ليس زحمة العمل، بل شرافته، والنية حيث إنها ترتبط بالروح -وهي من الوجود الملكوتي- تكون أوسع من العمل وجوداً وقدرة؛ لأنه يرتبط بالبدن وهو محدود بالزمان والمكان والطاقات القاصرة. فالفرق بين الوجود الروحي والبدني كالفرق بين الدنيا المحدودة والآخرة اللامحدودة في الآثار والثمار. من هنا نلاحظ أن شجرة واحدة في الآخرة تعطي عشرات الثمار المختلفة بالنوع بينما في الدنيا لا تعطي إلّا ثمرة واحدة، وطعم ماء الكوثر يحتوي كل طعوم المأكولات والمشروبات بينما ماء الدنيا ليس هكذا، وكذلك الإنسان الذي يحبّ الخير ويطمح لإقامة أعمال ومشاريع كثيرة لكن ماله لا يساعد؛ لأنه محدود، أو عمره محدود

---

(١) انظر مجمع البيان: ج٤، ص٢٤٠، تفسير الآية ٢٩ من سورة الأعراف.

(٢) سورة البينة: الآية ٥.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٢٩.

فالطموح في كثير من الأحيان أوسع من القدرات؛ لأنه من شؤون الروح بينما المال والعمر ونحوهما فمن شؤون البدن.

والحاصل: أن مقام النية روحاني لا محدود –نسبة إلى البدن– فيفوق مقام العمل الذي هو جسماني محدود، ولهذا تكون نيّة المؤمن أفضل من عمله، ونيّة الكافر شر من عمله، ولعل ما يؤيد هذا المعنى ما روي عن أبي عبد الله عليه السلام: «إنما خُلِّد أهل النار في النار؛ لأن نيّاتهم كانت في الدنيا أن لو خُلّدوا فيها أن يعصوا الله أبداً، وإنما خُلِّد أهل الجنة في الجنة؛ لأن نيّاتهم كانت في الدنيا أن لو بقوا فيها أن يطيعوا الله أبداً، فبالنيّات خُلّد هؤلاء وهؤلاء، ثم تلا قوله تعالى: ﴿**قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ**﴾[1] قال: على نيّته»[2].

ومن هنا قد يختلف مقام الشكر باختلاف مراتب المعرفة، وحق الشكر ما كان في المعرفة، وفي الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «فيما أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام يا موسى اشكرني حقّ شكري، فقال: يا رب وكيف أشكرك حق شكرك وليس من شكر أشكرك به إلّا وأنت أنعمت به عليّ؟ قال: يا موسى، الآن شكرتني حين علمت أن ذلك منّي»[3].

ولا يخفى أن أداء الشكر كما يقتضيه ممتنع على العبد؛ لاقتضاء كل نعمة شكراً، والشكر بنفسه نعمة؛ لأنه من توفيقه عزّ وجل فتقتضي شكراً

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٨٤.

(٢) الكافي: ج٢، ص٨٥، ح٥؛ علل الشرائع: ج٢، ص٥٢٣، ح١.

(٣) الكافي: ج٢، ص٩٨، ح٢٧؛ البحار: ج٦٨، ص٣٦، ح٢٢.

أيضاً وهكذا، فيتسلسل ويكون من غير المقدور، وما ورد في الأدلة من الحث على الشكر فلتعليم العبد وإلفاته إلى فقره الذاتي وقصوره الدائم فلا يجحد ولا يطغى، ولو قبل الباري منه شكره فهو تفضّل ولطف من الله سبحانه، وعليه يحمل ما ورد في الأخبار عن الصادقعليه السلام: «من أنعم الله عليه بنعمةٍ فعرفها بقلبه فقد أدى شكرها»[١] بل هو ظاهر ما ورد أن داودعليه السلام خاطب ربه قائلاً: «يا رب، كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلّا بنعمة ثانية من نعمك، فأوحى الله تعالى إليه: إذا عرفت هذا فقد شكرتني»[٢].

وعن مولانا أمير المؤمنينعليه السلام: «ما أنعم الله على عبد نعمة فعلم أنّها من الله إلّا كتب الله له شكرها قبل أن يحمده عليها، ولا أذنب عبد ذنباً فعلم أن الله قد اطلع عليه إن شاء غفر له وإن شاء أخذه قبل أن يستغفره إلّا غفر الله له قبل أن يستغفره»[٣].

وهو يفيد أن العلم بمصدر النعمة له أجر، وإظهار الحمد عليها له أجر آخر.

وأما الشكر اللساني فإظهار النعمة، باستعمالها في محلّها الذي أراده منعمها، كما أن الكفر الذي يقابله هو إخفاؤها والستر عليها.

وتعظيم المنعم من حيث إنه منعم يتم بالذكر باللسان والاعتقاد بالجنان والعمل بالأركان، ومنه يعرف أن شكر الجوارح يقع بالطاعة والاستفادة

---

(١) الكافي: ج٢، ص٩٦، ح١٥.
(٢) البحار: ج٦٨، ص٣٦، ح ٢٢.
(٣) البحار: ج٧٥، ص٨٢، ح٨١.

من الجوارح فيما خلقت لأجله. قال تعالى: ﴿**اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا**﴾[(١)] حيث جعل العمل شكراً، وأن الشكر طاعة المنعم وتعظيمه وروي أن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله كان يرفع إحدى رجليه في الصلاة ليزيد تعبه[(٢)]، وكان يصلي الليل كله، ويعلّق صدره بحبل حتى لا يغلبه النوم[(٣)]، وأنه صلى الله عليه وآله قام حتى تورّمت قدماه، فقيل له: يا رسول الله أتفعل هذا بنفسك وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً لله شكوراً»[(٤)].

وفي حكمة إدريس عليه السلام: «لن يستطيع أحد أن يشكر الله على نعمه بمثل الإنعام على خلقه ليكون صانعاً إلى الخلق مثل ما صنع الخالق إليه»[(٥)] ومن هنا قالوا في الشكر: (هو صرف النعمة فيما خلقت لأجله)[(٦)].

ولعل هذا التعريف أكمل من غيره؛ لأنه يشمل أقسام الشكر الثلاثة.

وعليه يحمل قول بعض أهل المعرفة: الشكر ثلاث منازل: ضمير القلب ونشر اللسان ومكافأة اليد[(٧)]، فالشاكرون هم الذين ثبت فيهم وصف الشكر، واستقرت فيهم هذه الفضيلة، وقد بان أن الشكر المطلق

---

(١) سورة سبأ: الآية ١٣.

(٢) مجمع البيان: ج٧، ص٦-٧.

(٣) المصدر نفسه: ص٧، تفسير الآية ٢ من سورة طه.

(٤) انظر البحار: ج١٧، ص٢٥٧؛ عوالي اللآلئ: ج١، ص٣٢٦، ح٦٩.

(٥) المستطرف: ج١، ص٣٨٧.

(٦) جامع السعادات: ج٣، ص٢٢١، (مع اختلاف يسير).

(٧) المستطرف: ج١، ص٣٨٧.

هو أن لا يذكر العبد شيئاً -وهو نعمة- إلّا وذكر الله معه، ولا يمس شيئاً -وهو نعمة- إلّا ويطيع الله فيه.

فقد تبيّن أن الشكر لا يتم إلّا مع الإخلاص لله سبحانه علماً وعملاً، فالشاكرون هم المخلصون لله الذين لا مطمع للشيطان فيهم.

هذا وفي الوقت الذي يعجز العبد عن شكر النعم فإن الباري عزّ وجل يشكر لعباده أعمالهم وهو لطف عظيم يستدعي مزيد الشكر، ولذا ورد من أسمائه سبحانه الشاكر. قال تعالى ﴿**وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا**﴾[(١)] والشكور. قال تعالى: ﴿**وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ**﴾[(٢)] وهو من أبنية المبالغة يراد بها المجازاة على الشكر تسمية للجزاء باسم المجزي، فشكر الله سبحانه لعباده مجازاتهم على ما أقاموه من طاعة على حسب قاعدة (خذ الغايات واترك المبادي).

منازل الذاكرين

وقوله: ﴿**وأن تلهمني ذكرك**﴾ ورد في آخر مسائله لضمان دوام الفيض بالنعم الظاهرة والباطنة بالتقرب إليه بذكره أولاً؛ لأن الفيض يرد على قدر الاستعداد، ثم طلب إلهامه ذلك ليكون في مستقر رحمته دائماً فلا يغفل عنه أو ينساه بتشوش البال أو كثرة الانشغال؛ لأن الله سبحانه لا ينسى من ذكره، ولا يخيب من دعاه.

---

(١) سورة النساء: الآية ١٤٧.

(٢) سورة التغابن: الآية ١٧.

والإلهام إلقاء الشيء في الروع، ويختص بما كان من جهة الله تعالى وجهة الملأ الأعلى[١]، ثم إن التذكر والذكر درجة يصل إليها الطالبون، وهي لا تحصل إلّا بتطهير الباطن من موانع القرب بالعبادات القلبية والبدنية، ولها منازل: أولها التوبة ثم الإنابة؛ لقوله: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾[٢] أما التوبة فهي من مراتب التخلية؛ لأنها عهد مع الله بترك العصيان. أما الإنابة فهي عهد على التحلية والطاعة، وهي من خصوصيات ذوي القلوب الخاشعة والعقول المستنيرة. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾[٣] فحقيقة الذكر لا تحصل إلّا لذي اللب الخالص عن قشر النشأة الدنيوية، وذو اللب هو الذي خلص من علائق الدنيا وحجبها الحيوانية والطبيعية؛ بداهة أن هذا المقام من سنخ عالم الروحانيات المقدّس، وما دام لم تحصل أو تغلب على الإنسان جهة الروحانية وتتحرر من طبيعة الإنسانية الناقصة والبهيمية لم يصل إلى درجة الذاكرين.

مراتب الذكر

ذكر أهل المعرفة للذكر مراتب سبع:

الأولى: الذكر القالبي، والثانية: النفسي، والثالثة: القلبي، والرابعة: السري، والخامسة: الروحي، والسادسة: العيوني، والسابعة: غيب الغيوب.

---

(١) مفردات الراغب: ص٧٤٨، (لهم).

(٢) سورة غافر: الآية ١٣.

(٣) سورة الرعد: الآية ١٩، وسورة الزمر: الآية ٩.

ووجهوا ذلك بأن الذاكر يبتدئ الإنابة بذكر اللسان، وحيث لم يسر الذكر إلى باطنه ولم يتجاوز سيره في السلوك من المحسوسات الجزئية يكون ذكره قالبياً، فإذا كرر الذكر وداوم عليه انعكس على سلوكه وأخلاقه فبدّل قبائحها إلى محاسن أدرك أثر الذكر في نفسه كان ذكره نفسياً، وإذا حصل بسبب تبدّل قبائحه صفاء النفس وانحطت عنه كدورات النواقص والشرور أدرك حلاوة الذكر وجذبه الشوق إلى المذكور صار ذاكراً من غير لسان، وربما يسمع صوت ذكر القلب[١] وصار ذكره قلبياً.

وإذا صفا القلب أكثر وتلألأت فيه نورانية الذكر القلبي وانقطع إلى المذكور دون التفات إلى غيره في الجملة كان الذكر سرياً، فإذا خلا عقله من الآراء الفاسدة ولبه من العقائد المشوشة ولم يتعلق قلبه بغير مذكوره انقطع عن عالم الجبروت، وتجرد عن الجسد ونواقصه، واتخذ حكم الروح، فلم يزل متعلقاً بالقدس والطهارة، فانياً في حب مذكوره، ومنجذباً إليه كان الذكر خفياً، فإذا سار في ذلك العالم لم يبق للذكر والذاكر وجود غير تجلي المذكور يكون الذكر تلقائياً، والحضور دائمياً، وهو المسمّى عندهم بغيب الغيوب، وقد ذكر العلامة النراقي قدس سره في خزائنه جملة من شروط الذكر والذاكر في أثناء العمل لا يخلو بعضها من فوائد فراجع[٢].

---

(١) وبعضهم شبه صوت الذكر القلبي بصوت الحمام والقمري.

(٢) انظر الخزائن: ص٣٢٤-٣٢٥.

﴿اللّهُمَّ إنّي أَسْأَلُكَ سُؤالَ

خاضِعٍ مُتَذَلِّلٍ خاشِعٍ أنْ

تُسامِحَني وَتَرْحَمَني﴾

سؤال الخاشعين

قالوا: الخشوع يظهر أثره على البدن والعين والصوت. أما الخضوع ففي الصوت فقط، وشاهد الثاني قوله تعالى: ﴿**فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ**﴾[1] أي ترقق القول، ولا تلنَّ الكلام للرجال، ولا تخاطبن الأجانب مخاطبة تؤدي إلى طمعهم[2]، وشاهد الأول قوله سبحانه: ﴿**الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ**﴾[3] أي خاضعون متواضعون لا يرفعون أبصارهم عن مواضع سجودهم، ولا يلتفتون يميناً ولا شمالاً[4]، وقوله عز وجل: ﴿**خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ**﴾[5] أي ذليلة خاضعة عند رؤية العذاب، وإنّما وصف الأبصار بالخشوع؛ لأن ذلّة الذليل أو عزّة العزيز تتبين في نظره، وتظهر في عينه[6]، وبعض أهل اللغة قالوا: الخضوع يقال على البدن، والخشوع في العين والصوت[7]، وقيل هما بمعنى[8].

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٢.

(٢) مجمع البيان: ج٨، ص١٥٥، تفسير الآية ٣٢من سورة الأحزاب.

(٣) سورة المؤمنون: الآية ٢.

(٤) مجمع البيان: ج٧، ص١٧٦، تفسير الآية ٢ من سورة المؤمنون.

(٥) سورة القمر: الآية ٧.

(٦) مجمع البيان: ج٩، ص٣١٢، تفسير الآية ٧ من سورة القمر.

(٧) مجمع البحرين: ج٤، ص٣٢١، (خشع).

(٨) مفردات الراغب: ص٢٨٥، (خضع).

وربما يقال الخضوع في البدن والخشوع في القلب؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾[١] وفي الآية إشارة إلى أن الخشوع مقرون بالمحبة والخوف؛ لأن طلب الخشوع بلسان الفقر والحاجة دليل على نهاية المحبة من الطالب.

وفي المفردات الخشوع الضراعة، وأكثر ما يستعمل فيما يوجد على الجوارح، والضراعة أكثر ما تستعمل فيما يوجد في القلب، ولذلك قيل فيما روي: إذا ضرع القلب خشعت الجوارح[٢].

والظاهر أن الخضوع أعم من الخشوع عرفاً؛ لإطلاقه على ما كان في الجوارح والجوانح عن اختيار أو عن قهر أو إكراه، بخلاف الخشوع؛ إذ لا يطلق إلّا على ما كان في الجوانح، فالنسبة بينهما هي العموم المطلق، ويشهد له ما روي أن النبي صلى الله عليه وآله رأى رجلاً يعبث بلحيته في صلاته فقال: «لو خشع قلبه لخشعت جوارحه»[٣] وفي هذا دلالة على أن الخشوع في الصلاة يكون بالقلب والجوارح، فأما بالقلب فهو أن يفرغ قلبه بجمع الهمة لها والإعراض عمّا سواها، فلا يكون فيه غير العبادة والمعبود، وأما بالجوارح فهو غض البصر والإقبال عليها وترك الالتفات والعبث[٤].

---

(١) سورة الحديد: الآية ١٦.

(٢) مفردات الراغب: ص٢٨٣، (خشع).

(٣) الدعائم: ج١، ص١٧٤؛ مستدرك الوسائل: ج٥، الباب ١١ من أبواب قواطع الصلاة، ص٤١٧، ح٦٢٣٣.

(٤) مجمع البيان: ج٧، ص١٧٦، تفسير الآية ٢ من سورة المؤمنون.

ومما أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه: ﴿هب لي من قلبك الخشوع ومن بدنك الخضوع ومن عينيك الدموع في ظلم الليل وادعني فإنك تجدني قريباً مجيباً﴾[١].

وفي إرشاد القلوب: الخشوع الخوف الدائم اللازم للقلب، وهو أيضاً قيام العبد بين يدي الله تعالى بِهَمٍّ مجموع وقلب مروع.

وروي أنه من خشع قلبه لم يقربه الشيطان، ومن علامته غض العيون وقطع علائق الشؤون، والخاشع من خمدت نيران شهوته، وسكن دخان أمله، وأشرق نور عظمة الله في قلبه، فمات أمله، وواجه أجله، فحينئذ خشعت جوارحه، وسالت عبرته، وعظمت حسرته، والخشوع أيضاً يذلل البدن والقلب لعلّام الغيوب. قال الله تعالى: **﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾**[٢] يعني متواضعين خاشعين.

ومن الخشوع ذهول القلوب عند استحضار عظمة الله تعالى، وهو من مقدمات الهيبة، ولا ينبغي للمرء أن يظهر من الخشوع فوق ما في قلبه، ومن الخشوع التذلل لله تعالى بالسجود على التراب، وكان الصادق عليه السلام لا يسجد إلّا على تراب من تربة الحسين عليه السلام تذلّلاً لله تعالى واستكانة إليه[٣].

---

(١) أمالي الصدوق: ص٤٣٨، ح١.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٦٣.

(٣) إرشاد القلوب: ج١، ص١١٤-١١٥، (بتصرف).

والظاهر أن هذه الصفات الثلاث تقع في المراتب الطولية، وهي من أكثر الخصال محبوبية عند الله سبحانه، أولها الخضوع وهو يعني التواضع في محضر الخالق بالجوارح: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾[١] والهون التذلل والرفق واللين من التواضع[٢] لعباد الله وجعلته الآية من صفات العبودية؛ لأنه يقرّب العبد منه سبحانه، وبعدها يحصل التذلل والتواضع إليه، ويتحقق بكمال الانقياد إليه والطاعة له، ثم الخشوع ويتحقق بانكسار القلب من الخوف والمحبة الإلهية.

ومن هنا تعرف بعض آثار السجود لله سبحانه معنوياً، وما ورد من دلالته على أفضل حالات العبد دنوّاً واقتراباً من الساحة الإلهية ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾[٣]؛ إذ في السجود كمال الخضوع والخشوع، كما يعرف معنى قولهم عليهم السلام: إن «الصلاة معراج المؤمن»[٤] و: «قربان كل تقي»[٥]؛ بداهة أن الركوع والسجود من أركانها، وما عبد الله كما عبد بالسجود، كما يفسّر سبب طرد الله سبحانه إبليس من رحمته وجعله من الخالدين في العذاب، وفي الأخبار الشريفة عن أبي بصير قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «يا أبا محمد، عليك بطول السجود، فإنّ ذلك من سنن الأوّابين»[٦].

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٦٣.

(٢) انظر مفردات الراغب: ص٨٤٨، (هان).

(٣) سورة العلق: الآية ١٩.

(٤) البحار: ج٧٩، ص٣٠٣، ح٢؛ روضة المتقين: ج٢، ص٦.

(٥) الكافي: ج٣، ص٢٦٥، ح٦؛ البحار: ج١٠، ص٩٩، ح١.

(٦) علل الشرائع: ج٢، ص ٣٤٠، ح١.

وعن أبي عبد الله عليه السلام: ﴿حدثني أبي عن جدي عن آبائه عليهم السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: أطيلوا السجود، فما من عمل أشد على إبليس من أن يرى ابن آدم ساجداً؛ لأنه أمر بالسجود فعصى، وهذا أمر بالسجود فأطاع فيما أمر﴾[١].

وقد أدب الأئمة عليهم السلام أصحابهم على طول السجود وقد ذكر أبو القاسم نصر بن الصباح عن الفضل بن شاذان. قال: دخلت على محمد بن أبي عمير وهو ساجد، فأطال السجود، فلما رفع رأسه وذكر له طول سجوده قال: كيف ولو رأيت جميل بن دراج! ثم حدثه أنه دخل على جميل بن دراج فوجده ساجداً فأطال السجود جداً؛ فلما رفع رأسه قال محمد بن أبي عمير: أطلت السجود! فقال: لو رأيت معروف بن خربوذ[٢].

وعن أبي أسامة قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ﴿عليك بتقوى الله والورع والاجتهاد وصدق الحديث وأداء الأمانة وحسن الخلق وحسن الجوار، وكونوا دعاة إلى أنفسكم بغير ألسنتكم، وكونوا زيناً ولا تكونوا شيناً، وعليكم بطول الركوع والسجود، فإن أحدكم إذا أطال الركوع والسجود هتف إبليس من خلفه وقال: يا ويله أطاع وعصيت، وسجد وأبيت﴾[٣].

وعن أبي عبد الله عليه السلام: ﴿أصول الكفر ثلاثة: الحرص والاستكبار والحسد، فأما الحرص فإن آدم عليه السلام حين نهي عن الشجرة حمله الحرص على

---

(١) علل الشرائع: ج٢، ص٣٤٠، ح٢.

(٢) اختيار معرفة الرجال: ص٢٢٨، الرقم ٣٧٣.

(٣) الكافي: ج٢، ص٧٧، ح٩، وفيه: (إذا طال الركوع)؛ الوسائل: ج٦، الباب ٦ من أبواب الركوع، ص٣٠٦، ح٨٠٣٩.

أن يأكل منها، وأما الاستكبار فإبليس حيث أُمِرَ بالسجود لآدم فأبى، وأمّا الحسد فابنا آدم حيث قتل أحدهما صاحبه﴾[١].

وفي أحوال الخاضعين الخاشعين روي عن مالك بن دينار قال: خرجت إلى مكة حاجاً فبينما أنا سائر إذ رأيت شاباً ساكتاً لا يذكر الله تعالى، فلما جنَّ الليل رفع وجهه نحو السماء وقال: يا من لا تسرّه الطاعات ولا تضرّه المعاصي هب لي ما لا يسرّك، واغفر لي ما لا يضرّك، ثم رأيته بذي الحليفة وقد لبس إحرامه والناس يلبوّن وهو لا يلبّي، فقلت: هذا جاهل، فدنوت منه فقلت له: يا فتى! قال: لبيك قلت: لم لا تلبي؟ فقال: يا شيخ وما تغني التلبية وقد بارزته بذنوب سالفات وجرائم مكتوبات، والله إنّي لأخشى أن أقول لبيك فيقول: لا لبيّك ولا سعديك، لا أسمع كلامك، ولا أنظر إليك، فقلت له: لا تقل ذلك فإنه حليم إذا غضب رضي، وإذا رضي لم يغضب، وإذا وعد وفى، ومتى توعّد عفا، فقال: يا شيخ أتشير عليّ بالتلبية؟ قلت: نعم، فبادر إلى الأرض واضطجع، ووضع خده على التراب، وأخذ حجراً فوضعه على خده الآخر، وأسبل دموعه، وقال: لبيّك اللهّم لبيّك قد خضعت لك، وهذا مصرعي بين يديك، فأقام كذلك ساعة ثم مضى فما رأيته إلّا بمنى وهو يقول: اللهم إنّ الناس قد ذبحوا ونحروا وتقرّبوا إليك وليس لي شيء أتقرّب به إليك سوى نفسي فتقبّلها منيّ، ثم شهق شهقة وخرّ ميتاً[٢].

---

(١) الكافي: ج٢، ص٢٨٩، ح١.

(٢) المستطرف: ج١، ص٢٦٢.

﴿أنْ تُسامِحَني وَتَرْحَمَني﴾

في التنزيه والتحلية

بين طلب السماح والرحمة علاقة المقتضي والمقتضى، أو العلة والمعلول، فإن السماح هو العفو والغفران، وهو تنزيه في النتيجة يهيّئ المحل القابل لنزول الرحمة؛ بداهة أنها تنال من يليق بها، فرحمة الله قريب من المحسنين[(١)]، وهما مترتبان على الاعتراف بالعجز والخضوع إلى الباري تكويناً وتشريعاً.

كما أن من أهم أسباب تحصيل الرحمة الإلهية التسامح مع خلق الله والرحمة بهم، وفي النصوص، «أرحم ترحم»[(٢)] وعن النبي صلى الله عليه وآله: «الراحمون يرحمهم الرحمن يوم القيامة. ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء»[(٣)].

وعن نوف البكالي قال: أتيت أمير المؤمنين عليه السلام وهو في رحبة مسجد الكوفة، فقلت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فقال: «وعليك السلام يا نوف ورحمة الله وبركاته» فقلت له: يا أمير المؤمنين عظني، فقال: «يا نوف أحسن يحسن إليك» فقلت: زدني يا أمير المؤمنين، فقال: «يا نوف أرحم ترحم» فقلت: زدني يا أمير المؤمنين، فقال: «يا نوف قل خيراً تُذكر بخير» فقلت: زدني يا أمير المؤمنين. قال: «اجتنب الغيبة فإنها إدام كلاب النار»[(٤)].

وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من لا يَرحم لا يُرحم، ومن لا يَغفر لا يُغفر له» وعنه صلى الله عليه وآله قال: «أرحموا تُرحموا، وأغفروا يُغفر لكم»

---

(١) ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ سورة الأعراف: الآية ٥٦.

(٢) أمالي الصدوقَ: ص٢٧٨، ح٣٠٨.

(٣) البحار: ج٧٤، ص١٦٧، ح٤.

(٤) أمالي الصدوق: ص٢٧٨، ح٣٠٨.

وعنه صلى الله عليه وآله قال: ﴿قال الله عزّ وجل: إن كنتم تريدون رحمتي فارحموا خلقي﴾[(١)] وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: ﴿إن أبدال أمتي لن يدخلوا الجنة بالأعمال، ولكن يدخلونها برحمة الله وسخاوة النفس وسلامة الصدور والرحمة لجميع المسلمين﴾[(٢)].

ونستخلص مما تقدم: أن الخضوع طريق للتذلل، وهو طريق للخشوع، وهو طريق للرحمة، وهي طريق للقرب، والقرب طريق للوصول إلى أعلى المراتب، ولعل من هنا وصف الباري عزّ وجل أفضل خلقه بأنه: **﴿رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾**[(٣)]؛ لكونه واسطة الخير إلى العوالم أجمع من أصناف الجبروت والملكوت والجن والإنس والملائكة، فكل الموجودات من بركاته وتحت لوائه.

وروي أن النبي صلى الله عليه وآله قال لجبرائيل لما نزلت هذه الآية: ﴿هل أصابك من هذه الرحمة شيء؟ قال: نعم إنّي كنت أخشى عاقبة الأمر فآمنت بك لما أثنى الله عليّ بقوله: **﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾**[(٤)]﴾[(٥)] وهو: (رحمة مهداة)[(٦)] وأهل بيته عليهم السلام أبواب رحمته سبحانه وطرق رضوانه.

---

(١) المستطرف: ج١، ص١٥٤.

(٢) المستطرف: ج١، ص١٥٤.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ١٠٧؛ الكافي: ج١، ص٤٨٢، (وجعل محمداً بركة ورحمة، وجعل علياً عليه السلام، غيرة وبصيرة).

وجاء في ج٣، ص٤٧٣، ح٢: (يا كريم أتوجّه إليك بمحمد نبيّك نبي الرحمة صلى الله عليه وآله).

(٤) سورة التكوير: الآية ٢٠.

(٥) مجمع البيان: ج٧، ص١٢١، تفسير الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء؛ كنز الدقائق: ج٨، ص٤٨٥؛ ج١٤، ص١٥٦؛ البحار: ج١٦، الباب ١١، ص٣٠٦.

(٦) البحار: ج١٦، باب ١١، ص٣٠٦.

﴿وَتَجْعَلَني بِقِسْمِكَ راضِياً قانِعاً،
وَفي جَميعِ الْأَحْوالِ مُتَواضِعاً﴾

الرضا بالمقدّرات الإلهية

لأن طلب القرب من أهم الغايات التي يقصدها الأولياء في مناجاتهم، وهو أفضل ما طلبه الطالبون عقلاً ونقلاً، أشار عليه السلام إلى صفات ثلاث توصل العبد إلى القرب، وهي الرضا بما يقسمه الرب لعبده، والقناعة بما يعطيه، والتواضع له.

والقسم بسكون السين إفراز النصيب[1]، وفي المجمع: الحظ والنصيب[2]، والفرق بينهما كالفرق بين المصدر واسم المصدر. قال تعالى: ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾[3] يعني الملائكة[4] تقسّم أرزاق بني آدم ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، فمن نام بينهما نام عن رزقه، كما في بعض الأخبار تتولى الملائكة تقسيم أمر العباد: جبرائيل عليه السلام للغلظة، وميكائيل للرحمة، وملك الموت لقبض الأرواح، وإسرافيل للنفخ[5].

وفي الدعاء: «وأعوذ بك من الذنوب التي تحبس القسم»[6] وهي:

---

(١) مفردات الراغب: ص٤٠٣، (قسم).

(٢) تفسير جوامع الجامع: ج٣، ص٤٢٦؛ تفسير غريب القرآن: ص٢٢٤؛ مجمع البحرين: ج٦، ص١٣٨، (قسم).

(٣) سورة الذاريات: الآية ٤.

(٤) مجمع البيان: ج٩، ص٢٥٤، تفسير الآية ٤ من سورة الذاريات.

(٥) مجمع البحرين: ج٦، ص١٣٧، (قسم).

(٦) مصباح المتهجد: ص٥٧٢؛ التهذيب: ج٣، ص٩٦، ح٢٥٧؛ مجمع البحرين: ج٦، ص١٣٩، (قسم).

إظهار الافتقار، والنوم عن صلاة العتمة وعن صلاة الغداة، واستحقار النعم وشكوى المعبود تعالى[١].

وكيف كان فالقسم هو ما يقدره الله سبحانه لعبده من الآثار والعواقب في دنياه، والرضا به موافقة النفس لما يقع منها.

الرضا بقضاء الله وقدره

وحقيقته ترك الاعتراض على المقدّرات الإلهيّة في الظاهر والباطن قولاً وفعلاً، ومن هنا يرقى مقام الرضا على مقام الصبر عند الشدائد؛ لأنّ الصبر يتحقق وإن كرهه الإنسان قلباً، بل لعلّ موضوعية الصبر تتحقق عند الكراهة القلبية فقط؛ إذ لو كان ما ينزل على الإنسان محبوباً لديه أو متساوي الحب والبغض لا يسمى صبراً، وأجر الصبر إنما يتحقق؛ لأنه خلاف ما يريده الإنسان أو يحبه ويرغب إليه؛ إذ لا يسمّى من يأكل الطيّب صابراً. أما من صام عنه يسمى صابراً وهكذا. قال تعالى: ﴿**وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ**﴾[٢] وفي كلام سيد الشهداء عليه السلام: ﴿نصبر على بلائه ويوفينا أجور الصابرين﴾[٣].

وفي بعض المنقول أن امرأة أيوب عليه السلام قالت له وقد اشتد به الحال: هلاّ دعوت الله تعالى ليشفيك مما أنت به، فقد طالت عليك، فقال لها: ﴿ويحك

---

(١) مجمع البحرين: ج٦، ص١٣٩، (قسم).

(٢) سورة البقرة: الآية ١٧٧.

(٣) مثير الاحزان: ص٢٩.

لقد كنّا في النعماء سبعين سنة، فهلمّي نصبر على الضرّاء مثلها﴾ قال: فما لبث يسيراً أن عوفي[١].

فالعبد يصل مقام الرضا بالتسليم المطلق أمام التقدير الإلهي وإن كان خلاف ما يحب ويرغب فيه، بل والميل إلى ما قدَّره الله قلباً.

فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له بأيّ شيء يُعلم المؤمن بأنّه مؤمن؟ قال: ﴿بالتسليم لله، والرضا فيما ورد عليه من سرور أو سخط﴾[٢].

وعنه عليه السلام عن أبيه عليه السلام قال: ﴿قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: الإيمان له أركان أربعة: التوكل على الله، وتفويض الأمر إلى الله، والرضا بقضاء الله، والتسليم لأمر الله عزّ وجل﴾[٣] وقيل لبعض العارفين: متى يكون العبد راضياً عن ربه؟ قال: إذا سرّته المصيبة كما تسرّه النعمة[٤]، وهو من أقرب الطرق إلى الله ونيل الزلفى لديه.

فعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: ﴿أوحى الله تعالى لموسى عليه السلام أنك لن تتقرب إليّ بشيء أحب إليّ من الرضا بقضائي﴾[٥] ويتفاوت الرضا بتفاوت المعرفة والترويض، فمن مراتبه ما قاله بعض أهل المعرفة: لو

---

(١) كشكول البهائي: ج٢، ص٢٥٧-٢٥٨.

(٢) الكافي: ج٢، ص٦٣، ح١٢.

(٣) الكافي: ج٢، ص٤٧، ح٢.

(٤) ربيع الابرار: ج٥، ص٣٣٠؛ المستطرف: ج١، ص١٣٠.

(٥) شرح أصول الكافي: ج١، ص٢١٩.

خيّرت يوم القيامة بين الجنة والنار لاخترت النار استحياءً من دخول الجنة، فبلغ ذلك الجنيد، فقال: وما للعبد والاختيار[١].

ولا يتصوّر أنّهُ لا يتألم من منافرات طبعه ومؤذيات بدنه؛ لأن ذلك من طبيعة كل إنسان، ولكن في مقامه المعنوي وصل إلى رتبة لا يرى ألماً في قبال رضا الله بل لذّة، ومنه يعرف أن بعض مراتب العبودية الحقيقية تتحقق بالرضا وليست بالعبادة وحدها.

وفي الأخبار الشريفة: عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: «العبد بين ثلاثة: بلاء وقضاء ونعمة، فعليه في البلاء من الله الصبر فريضة، وعليه في القضاء من الله التسليم فريضة، وعليه في النعمة من الله عزّ وجل الشكر فريضة»[٢].

والوصول إلى مقام الرضا ليس بالأمر السهل أو الهيّن وإنما يتحقق بعناء ومشقّة، ولكن إذا علم الطالب أن الاعتراض على التقديرات الإلهية لا يغيّر من حكمها شعرة ولا يردّها قيد أنملة ويلتفت إلى ذلك عند نزولها يجد أنه لا حَلّ له سوى التسليم، فسوف يسهل عليه الارتياض على ذلك، خاصة إذا أيقن بأن الرضا يوصله إلى مقامات معنوية رفيعة ومكاشفات كثيرة يصلح بها حاله في الدنيا والآخرة.

وفي الكافي عن أبي الحسن الرضا عن أبيه عليهما السلام قال: «رفع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله قوم في بعض غزواته فقال: من القوم؟ فقالوا: مؤمنون يا رسول

---

(١) كشكول البهائي: ج٢، ص٣٠٥.

(٢) الخصال: ص٨٦، ح١٧؛ وانظر البحار: ج٦٨، ص٤٣، ح٤١؛ عين الحياة: ج٢، ص٣٢٣.

الله. قال: وما بلغ من إيمانكم؟ قالوا: الصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، والرضا بالقضاء، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: حلماء علماء كادوا من الفقه أن يكونوا أنبياء إن كنتم كما تصفون، فلا تبنوا ما لا تسكنون، ولا تجمعوا مالا تأكلون، واتقوا الله الذي إليه ترجعون﴾[(١)].

ومنه نفهم بعض سرّ الفيوضات الإلهية والألطاف التي حضى بها مولانا سيد الشهداء عليه السلام في الدنيا والآخرة؛ لأنه سلّم أمره إلى الله وقال في أشدّ ساعاته: ﴿رضاً بقضائك﴾[(٢)] فخصّه الله سبحانه بمزايا وكرامات لم يخصّها لأحد غيره[(٣)].

في القناعة

القناعة من آثار الرضا والتسليم؛ فمتى رضي العبد بقضاء الله وقدره قنع بما وهبه وأعطاه، وسوف لا يطلب ما لا يرضاه ربه، ومن هنا كان أعقل الناس -وهم الأنبياء والأولياء عليهم السلام- قانعين.

فعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿القناعة كنز لا يفنى﴾ وقال صلى الله عليه وآله لبعض أصحابه: ﴿كن ورعاً تكن أعبد الناس، وكن قنعاً تكن أشكر الناس، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً، وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً، وأقلل من الضحك فإن كثرة الضحك تميت

(١) الكافي: ج٢، ص٤٨، ح٤.

(٢) البحار: ج٩٥، ص١٨١.

(٣) انظر الخصائص الحسينية.

القلب، الناس أموات إلّا من أحياه الله بالقناعة، وما سكنت بالقناعة إلّا قلب من استراح، والقناعة ملك لا يسكن إلّا قلب مؤمن، والرضا بالقناعة رأس الزهد، ومعناها السكون عند عدم الشبهات، والرضا بقليل الأقوات، وترك التأسف على ما فات﴾.

وجاء في تأويل قوله تعالى: ﴿**لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقًا حَسَنًا**﴾[(١)] قال: القناعة؛ لأن القناعة رضا النفس بما حضر من الرزق وإن كان قليلاً وقال بعضهم: إن الغنى والعز خرجا يجولان فوجدا القناعة فاستقرا[(٢)].

وجاء في تفسير قوله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام: ﴿**قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي**﴾[(٣)] قال: ﴿القناعة في بعض الوجوه؛ لأنه كان يجلس مع المساكين ويقول مسكين مع المساكين﴾[(٤)].

وعن عيسى عليه السلام: ﴿أجيعوا أكبادكم، وأعروا صوركم لعلكم ترون الحق بقلوبكم﴾[(٥)].

هذا وآثار الاضطراب والوجل والتعاسة والشقاء على غير القنوعين نفسياً وبدنياً ومصيرياً جلية ظاهرة، فعن الصادق عليه السلام: ﴿خمس من لم تكن فيه لم يتهنأ بالعيش: الصحة والأمن والغنى والقناعة والأنيس الموافق﴾[(٦)].

---

(١) سورة الحج: الآية ٥٨.

(٢) ارشاد القلوب: ج١، ص١١٨.

(٣) سورة ص: الآية ٣٥.

(٤) إرشاد القلوب: ج١، ص١١٨.

(٥) مشكاة الأنوار: ص٤٤٨؛ وانظر جامع السعادات: ج٢، ص٥.

(٦) انظر البحار: ج٧١، ص١٨٦، ح٦؛ وانظر سفينة البحار: ج٧، ص٣٧٤-٣٧٦.

ومن لطيف ما حكي في ذلك أن بعض الأرقّاء كان عند مالك يأكل الخاص ويطعمه الخشكار فاستنكف الرقيق من ذلك، وطلب البيع فباعه، فاشتراه من يأكل الخشكار ويطعمه النخالة، فطلب البيع فاشتراه من يأكل النخالة ولا يطعمه شيئاً، فطلب البيع فباعه فشراه من لا يأكل شيئاً وحلق رأسه، وكان في الليل يجلسه ويضع السراج على رأسه بدلاً من المنارة، فأقام عنده ولم يطلب البيع، فقال له النخّاس: لأيّ شيء رضيت بهذه الحالة عند هذا المالك؟ قال: أخاف من يشتريني في هذه المرة من يضع الفتيلة في عيني عوضاً من السراج(١).

حقيقة القناعة وحدودها

القناعة عبارة عن وقوف النفس على حد القلّة والكفاية وقطع طمعها من الكثرة والزيادة، والقانع يعيش سعيداً في حياتيه الروحية والجسدية، وفي الحديث: «عزَّ مَنْ قنع، وذلّ مَنْ طمع»؛ لأنّ القانع لا يذله الطلب فلا يزال عزيزاً(٢).

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾(٣) أن المراد من الحياة الطيبة: القناعة(٤)، ولعل أصل الكلمة من القناع وهو ما يغطى به الرأس،

---

(١) كشكول البهائي: ج٢، ص٤٧.
(٢) شرح أصول الكافي: ج٨، ص١٨١؛ مجمع البحرين: ج٤، ص٣٨٤، (قنع)؛ تاج العروس: ج١١، ص٤٠٧، (قنع).
(٣) سورة النحل: الآية ٩٧.
(٤) نهج البلاغة: ص٥٠٩، قصار الحكم ٢٢٩؛ وانظر إرشاد القلوب: ج١، ص١١٨.

فقنـع أي لبس القنـاع ساتراً لفقره، ويقال: تقنّعـت المرأة إذا تسترت[١].

وقد اتفق أهل المعرفة والتهذيب على أن منغص الحياة ومكدّرها على أبناء البشر هو طلب الفضول من الدنيا وحطامها، والحرص على توافهها تأسفاً على فواتها.

ومن هنا كلما كثرت وسائل العيش والرفاه طالت الآمال، وانفضحت السرائر، وازدادت المشقة، وتعست الحياة، ونشبت الحروب والصراعات.

وسَأل موسى عليه السلام ربه وقال: ﴿أي عبادك أغنى؟ قال: أقنعهم بما أعطيته﴾[٢] ولذا كان أولياء الله قنوعين راضين بما قسمه ربهم لهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله في مدّة عمره الشريف لم يأكل الحنطة، ولم يشبع من خبز الشعير، وكذا علي عليه السلام والأئمة عليهم السلام.

وفي أول دعاء الندبة أنه سبحانه شرط عليهم الزهد في درجات هذه الدنيا الدنيّة، فشرطوا له ذلك، وعلم منهم الوفاء فاجتباهم لنفسه، واختصهم بأمره، وجعلهم أولياءه وحججه على الخلق أجمعين[٣].

وقيل لبعض الحكماء: أرأيت شيئاً أفضل من الذهب؟ قال: نعم، القناعة. وإلى هذا ينظر قول بعض الحكماء: استغناؤك عن الشيء خير من استغنائك به[٤].

---

(١) انظر مفردات الراغب: ص٤١٣-٤١٤، (قنع).

(٢) مجموعة ورام: ص١٧١؛ وانظر جامع السعادات: ج٢، ص٧٩.

(٣) انظر إقبال الأعمال: ج١، ص٥٠٤.

(٤) مستدرك سفينة البحار: ج٨، ص٦١٦.

وفي كشكول الشيخ البهائي قدس سره: كان ديوجانس الكلبي من أساطين الحكماء اليونان، وكان متقشفاً زاهداً لا يقتني شيئاً، ولا يأوي إلى منزل. دعاه الإسكندر إلى مجلسه، فقال للرسول: قل له: إنّ الذي منعك من المسير إلينا هو الذي منعنا من المسير إليك، منعك استغناؤك عنّا بسلطانك ومنعني استغنائي عنك بقناعتي[(١)].

ولقد أجاد عبد العزيز الديريني في قوله:

وجدت القناعة أصل الغنى ... فصرتُ بأهدابها متمسك
ولبست من حليها خلعة ... فلا هي تبلى و لا تتهتك[(٢)]
وإن القناعة كنز الغنى ... فصرت بأذيالها محتسك

وقال آخر:

فلا ذا يراني على بابه ... ولا ذا يراني له منهمك
فصرت غنياً بلا درهم ... أمر على الناس شبه الملك[(٣)]

وفي نهج البلاغة: قال عليه السلام: ﴿القناعة مالٌ لا ينفد﴾[(٤)] وقال: ﴿كفى بالقناعة ملكاً وبحسن الخلق نعيماً﴾[(٥)].

---

(١) كشكول البهائي: ج٢، ص٢٨٠؛ وانظر مستدرك سفينة البحار: ج٨، ص٦١٦؛ أخلاق أهل البيت عليهم السلام: ص٦٦.
(٢) الإشارات في علم العبارات: ج١، ص٢٠٩.
(٣) المستطرف: ج١، ص١٠٥.
(٤) نهج البلاغة: ج٤، ص١٠٩، قصار الحكم ٤٧٥.
(٥) نهج البلاغة: ج٤، ص٥١، قصار الحكم ٢٢٩.

وفي مصباح الشريعة عن الصادق عليه السلام: «لو حلف القانع بتملّكه الدارين لصدقه الله عزّ وجل بذلك، ولأبرّه لعظم شأن مرتبة القناعة، إلى أن قال: ومن قنع بالمقسوم استراح من الهمّ والكرب والتعب، وكلّما نقص من القناعة زاد في الرغبة، والطمع والرغبة في الدنيا أصلان لكل شر، وصاحبهما لا ينجو من النار إلّا أن يتوب» ولذلك قال النبي صلى الله عليه وآله: «القناعة ملك لا يزول، وهو مركب رضا الله تعالى تحمل صاحبها إلى داره، فأحسن التوكل فيما لم تعط والرضا بما أعطيته، واصبر على ما أصابك فإن ذلك من عزم الأمور»(١).

وقال مولانا الباقر عليه السلام: «من يئس مما فات أراح بدنه، ومن قنع بما أوتي قرّت عينه»(٢).

وفي الكافي من ضمن وصّية الإمام أبي الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام لهشام بن الحكم: «يا هشام، من أراد الغنى بلا مال وراحة القلب من الحسد والسلامة في الدين فليتضرّع إلى الله عزّ وجل في مسألته بأن يُكمِّل عقله، فمن عقل قنع بما يكفيه، ومن قنع بما يكفيه استغنى، ومن لم يقنع بما يكفيه لم يدرك الغنى أبداً»(٣).

---

(١) مصباح الشريعة: ص٢٠٢ -٢٠٣؛ البحار: ج٦٨، ص٣٤٩، ح١٨، (بتصرف).

(٢) الخصال: ص٢٥٨، ح١٣٣؛ روضة الواعظين: ص٤٤١.

(٣) الكافي: ج١، ص١٨، ح١٢.

ولما قتل كسرى بذرجمهر وجد في منطقته كتاب فيه: إذا كان القضاء حقاً فالحرص باطل، وإذا كان الغدر في الناس طباعاً فالثقة بكل أحد عجز، وإذا كان الموت بكل أحد نازلاً فالطمأنينة إلى الدنيا حمق[١].

(١) المستطرف: ج٢، ص٨٣٣.

﴿وَفِي جَمِيعِ الْأَحْوالِ مُتَواضِعاً﴾

دوام التواضع

إن الرضا والقناعة ينمان عن تواضع كبير، وهذا يغني عن السؤال، ولذا سأل التواضع في جميع الأحوال لا في حال دون حال؛ لأنه ينم عن التكبر والتمرد، فإن الصفات النفسية والملكات الروحانية لا يمكن أن تتبعض أو تتجزأ، ومن أجلى صفات أولياء الله سبحانه التواضع في جميع الأحوال ومع جميع الناس.

فقد روى أخطب خوارزم حديثاً يرفعه بإسناده إلى النبي صلى الله عليه وآله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «نزل عليّ جبرئيل صبيحة يوم الغار، فقلت: حبيبي جبرئيل! أراك فرحاً، فقال: يا محمد: وكيف أكون كذلك وقد قرت عيني بما أكرم الله به أخاك ووصيك وإمام أمتك علي بن أبي طالب عليه السلام، فقلت: بماذا أكرمه الله؟ قال: باهى بعبادته البارحة ملائكته، وقال: ملائكتي! انظروا إلى حجتي في أرضي بعد نبيي وقد بذل نفسه، وعفر خده في التراب تواضعاً لعظمتي. أشهدكم أنه إمام خلقي ومولى بريتي»[(1)].

وإذا دققنا النظر نجد أن حقيقة العبادات تتقوم بالتواضع، كما أنه باب العلوم والمعارف، وقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله بالتواضع فقال سبحانه: ﴿**وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾[(2)] أي ألن جنابك وأرفق بهم، وخفض الجناح كناية عن التواضع الذي يحبب القلوب، ويجذب النفوس، وأصله أن الطائر

---

(١) البحار: ج١٩، ص٨٧، ح٣٧؛ ينابيع المودة: ج١، ص٣٨٠، ح٤.

(٢) سورة الحجر: الآية ٨٨.

إذا ضم فرخه إلى نفسه بسط جناحه ثم خفضه[١]، وقد جعل سبحانه الآخرة للمتواضعين فقال: ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا**﴾[٢] ووجهه ظاهر.

وفي مصباح الشريعة: ((التواضع مزرعة الخشوع والخضوع والخشية والحياء))[٣] وقد ثبت من سيرة الصالحين أن أكثرهم معرفة بالله أكثرهم تواضعاً، وكلما ازداد الإنسان علماً ازداد تواضعاً، وفي الحديث القدسي: «قال الله تعالى لموسى عليه السلام: هل تعرف لم كلمتك من بين الناس؟ قال: لا يا رب. قال لأني رأيتك تتمرّغ بين يديَّ في التراب تواضعاً لي»[٤].

وفي الحديث أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وآله بهدية فذهب يلتمس وعاء يفرغها فيه فلم يجد فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «فرّغها في الأرض» ثم أكل صلوات الله عليه وآله منها، وقال: «آكل كما يأكل العبد، وأشرب كما يشرب العبد»[٥].

وهذا يفسر بعض حالات الأئمة عليهم السلام في تذللهم وانكسارهم أمام الله عزّ وجل؛ لأن الخضوع لازم المعرفة، والملزوم لا ينفك عن اللازم.

---

(١) انظر مجمع البيان: ج٦، ص١٣٠، تفسير الآية ٨٨ من سورة الحجر.

(٢) سورة القصص: الآية ٨٣.

(٣) مصباح الشريعة: ص٧٤؛ وانظر مستدرك الوسائل: ج١١، الباب ٢٨ من أبواب جهاد النفس وما يناسبه، ص٢٩٩، ح١٣٠٨٧.

(٤) المستطرف: ج١، ص٢٢٦.

(٥) كشكول البهائي: ج٢، ص٢٦١؛ وانظر تاريخ مدينة دمشق: ج٤، ص٧٥؛ الجامع الصغير: ج٢١، ص٣٩٤.

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «أرسل النجاشي إلى جعفر بن أبي طالب وأصحابه فدخلوا عليه وهو في بيت له جالس على التراب، وعليه خلقان الثياب. قال: فقال جعفر عليه السلام: فأشفقنا منه حين رأيناه على تلك الحال، فلما رأى ما بنا وتغيّر وجوهنا قال: الحمد لله الذي نصر محمداً وأقرَّ عينه، ألا أبشِّركم؟ فقلت: بلى أيّها الملك، فقال: إنّه جاءني الساعة من نحو أرضكم عين من عيوني هناك فأخبرني أنّ الله عزّ وجل قد نصر نبيّه محمداً صلى الله عليه وآله، وأهلك عدوَّه، وأسر فلان وفلان وفلان، التقوا بواد يقال له: بدر، كثير الأراك، لكأنّي أنظر إليه حيث كنت أرعى لسيّدي هناك وهو رجل من بني ضمرة، فقال له جعفر: أيّها الملك فمالي أراك جالساً على التراب وعليك هذه الخلقان؟ فقال له: يا جعفر، إنّا نجد فيما أنزل الله على عيسى عليه السلام أنّ من حق الله على عباده أن يحدثوا له تواضعاً عندما يحدث لهم من نعمة، فلمّا أحدث الله عزّ وجل لي نعمة بمحمد صلى الله عليه وآله أحدثت لله هذا التواضع، فلما بلغ النبي صلى الله عليه وآله قال لأصحابه: إن الصدقة تزيد صاحبها كثرة فتصدّقوا يرحمكم الله، وإن التواضع يزيد صاحبه رفعة فتواضعوا يرفعكم الله، وإنّ العفو يزيد صاحبه عزّاً فاعفوا يعزّكم الله»[(١)].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: «إنّ في السماء ملكين موكّلين بالعباد فمن تواضع لله رفعاه ومن تكبّر وضعاه»[(٢)].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنّ من التواضع أن يجلس الرجل دون شرفه»[(٣)].

---

(١) الكافي: ج٢، ص١٢١، ح١.

(٢) الكافي: ج٢، ص١٢٢، ح٢.

(٣) الكافي: ج٢، ص١٢٣، ح٩.

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «فيما أوحى الله عزّ وجل إلى داود عليه السلام: يا داود كما أنَّ أقرب الناس من الله المتواضعون كذلك أبعد الناس من الله المتكبرون»[١].

وعن الحسن بن الجهم عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: قال: «التواضع أن تعطي الناس ما تحبُّ أن تُعطاه»[٢].

وفي حديث آخر قال: قلت: ما حدُّ التواضع الذي إذا فعله العبد كان متواضعاً؟ فقال: «التواضع درجات منها أن يعرف المرء قدر نفسه فينزّلها منزلتها بقلب سليم، لا يحبُّ أن يأتي إلى أحد إلّا مثل ما يؤتى إليه. إن رأى سيئة درأها بالحسنة، كاظم الغيظ، عاف عن الناس، والله يحب المحسنين»[٣].

ومن خصائص المتواضعين أن يكون التواضع لهم ملكة لا حالاً ولا صفة؛ لذا يتواضعون في جميع حالاتهم وأحوالهم ويجهدون أنفسهم بالمراقبات والمحاسبات ليعيشوا التواضع في نفوسهم وأعمالهم وتعاملهم مع الناس، ولو خافوا فتور الهمّة عن ذلك أو الغفلة عنه لدى تبدّل الأحوال -لاسيما عند ارتقاء المراتب وارتفاع الدرجات- عززوا ذلك بالدعاء والالتجاء إلى ربهم تبارك وتعالى ليديم عليهم هذه النعمة، ولا يحرمهم من خيراتها وبركاتها؛ لذا قال عليه السلام: «**وفي جميع الأحوال متواضعاً**».

---

(١) الكافي: ج٢، ص١٢٣-١٢٤، ح١١.
(٢) الكافي: ج٢، ص١٢٤، ح١٣.
(٣) الكافي: ج٢، ص١٢٤، ح١٣.

﴿اللّٰهُمَّ وَأَسْأَلُكَ سُؤالَ مَنِ
اشْتَدَّتْ فاقَتُهُ﴾

الفقر إلى الله سبحانه

أجمعت كتب اللغة على اتحاد الفقر والفاقة في المعنى[1]، وهو الحاجة، والفقير هو المحتاج، وهو مشتق من فقار الظهر، فكأن الحاجة قد كسرت فقار ظهره[2]، وعلى هذا يكون التعبير بالفاقة دون الفقر، مع أن الثاني أظهر؛ لاقتضاء السجع ووحدة السياق مع ما بعده، حيث ورد فيه: ﴿**وانزل بك عند الشدائد حاجته، وعظم فيما عندك رغبته**﴾ وربما يقال بالفرق بينهما بحجة أن الفاقة مشتقة من الفوق، وهو ظرف مكان نقيض تحت، وقد استعير للاستعلاء الحكمي، ومعناه الزيادة والفضل[3]، وعليه يكون التعبير بها دون الفقر؛ لإظهار شدة الفقر والحاجة، وكيف كان فإن للفقر مراتب:

الأولى: الفقر المادي، وجوهره الحاجة إلى ما تقوم به المعيشة من أموال بالفعل أو بالقوة، ومنه أخذ الفقر الشرعي، حيث حدد بالذي لا يملك قوت سنته له ولعياله[4]. قال تعالى: ﴿**لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ**﴾[5] أي منعوا من النفقة[6].

---

(١) انظر لسان العرب: ج١٠، ص٣١٩، (فوق)؛ القاموس المحيط: ص١١٨٧، (فوق)؛ مجمع البحرين: ج٥، ص٢٣١، (فوق)؛ تاج العروس: ج٧، ص٥٣، (فوق).

(٢) انظر مجمع البيان: ج٥، ص٧٤، تفسير الآية ٦٠ من سورة التوبة.

(٣) مجمع البحرين: ج٥، ص٢٣٠، (فوق)؛ وانظر مفردات الراغب: ص٣٨٨، (فوق).

(٤) انظر شرائع الإسلام: (القسم الأول)، ص١٣٥، الثالث؛ مسالك الأفهام: ج١، ص٤٤٤؛ الرياض: ج٥، ص٢٩٤.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٧٣.

(٦) انظر مجمع البيان: ج٢، ص٢٠٢، تفسير الآية ٢٧٣، من سورة البقرة.

وفي بعض الأخبار: كان النبي صلى الله عليه وآله يبيت طاوياً ليالي ما له ولا لأهله عشاء، وكان عامة طعامه الشعير، وكان يعصب الحجر على بطنه من الجوع، وكان يأكل خبز الشعير غير المنخول[١] وقد عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض فأبى أن يقبلها، وكان يقول: «اللهم توفّني فقيراً ولا تتوفني غنياً، واحشرني في زمرة المساكين»[٢].

وعن جابر: دخل النبي صلى الله عليه وآله على ابنته فاطمة الزهراء عليها السلام وهي تطحن بالرحى وعليها كساء من وبر الإبل فبكى، وقال: «تجرّعي يا فاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة. قال الله تعالى: **﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾**[٣]»[٤].

الثانية: فقر العقل، ويراد به الجهل في مقابل العلم، وقد تضافر ذمه في الأخبار الشريفة، وفي نهج البلاغة: «لا غنى كالعقل ولا فقر كالجهل»[٥] وقريب منه في تحف العقول[٦]، وهو قد يجتمع مع الغنى المالي، فما أكثر ما قد يكون الإنسان ذا ثروة كبيرة لكنه فقير العلم أو الدين.

---

(١) سنن النبي صلى الله عليه وآله: ص٢٢٦، ح٢؛ ص١٣٣، ح٤٨؛ شرح نهج البلاغة: ج١٩، ص١٨٩.

(٢) نهج السعادة: ج٦، ص٧٥؛ العهود المحمدية: ص٥٣٣.

(٣) سورة الضحى: الآية ٥.

(٤) المستطرف: ج٢، ص٤٩١.

(٥) نهج البلاغة: ج٤، ص١٤، قصار الحكم ٥٤.

(٦) تحف العقول: ص١٤٢.

الثالثة: فقر النفس، وهو الشره[١]، والحسد وهو المعني في الحديث: ﴿كاد الفقر أن يكون كفراً﴾[٢] والمعني بقولهم (من عدم القناعة لم يفده المال غنى) وقولهم: ﴿الغنى غنى النفس﴾[٣] وفي الدعاء: ﴿وأعوذ بك من الفقر والفاقة﴾[٤] قيل: الفقر المستعاذ منه إنما هو فقر النفس الذي يفضي بصاحبه إلى كفران نعم الله ونسيان ذكره، ويدعوه إلى سد الخلة بما يتدنس به عرضه، ويثلم به دينه، والقلة: تحمل على قلة الصبر أو قلة العدد[٥]، ويفترق هذا الفقر عن المالي في العموم من وجه، ويتجلى في قبائح الصفات كالطمع والبخل والحسد ونحوها.

الرابعة: الفقر إلى الله تعالى، وهو بديهي فطري عام، وعليه حمل بعضهم قوله تعالى: ﴿**رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ**﴾[٦] وقوله تعالى: ﴿**أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللهِ**﴾[٧] بناء على الإطلاق أو العموم، وإليه أشير بالخبر الوارد عنه صلى الله عليه وآله: ﴿اللهم اغنني بالافتقار إليك ولا تفقرني بالاستغناء عنك﴾[٨].

---

(١) مفردات الراغب: ص٣٨٣، (فقر).

(٢) الكافي: ج٢، ص٣٠٧، ح٤؛ أمالي الصدوق: ص٣٧١، ح٤٦٥.

(٣) تحف العقول: ص٥٧؛ أمالي الصدوق: ص٥٧٦، ح٧٨٨؛ البحار: ج٧٢، ص١٠٦، ح٥.

(٤) مهج الدعوات: ص١٦٣.

(٥) انظر مجمع البحرين: ج٣، ص٤٤٣، (فقر).

(٦) سورة القصص: الآية ٢٤؛ وانظر مفردات الراغب: ص١٥٣، (فقر).

(٧) سورة فاطر: الآية ١٥.

(٨) مفردات الراغب: ص١٥٣، (فقر).

وفي الخبر أنهﷺ تعوّذ من الفقر، كما أنه قال: ﴿الفقر فخري وبه افتخر على سائر الأنبياء﴾[(١)] وقد جمع بين القولين بوجوه منها: أن الفقر الذي تعوّذ منه هو الفقر إلى الناس لقبحه وذلته، والذي افتخر بهﷺ هو الفقر إلى الله تعالى، وإنّما كان هذا فخر له على سائر الأنبياءعليهم السلام مع مشاركتهم له فيه؛ لأنّ توحيده واتصاله بالحضرة الإلهية وانقطاعه إليها في الدرجة التي لم يكن لأحد مثلها في العلو، ففقره إليها كان أتم وأكمل من فقر سائر الأنبياء[(٢)].

وفي اصطلاح الحكماء الفقر من ذاتيات كل ممكن؛ لحاجته إلى العلة حدوثاً وبقاءً، وقد اختلفوا في منشئه إلى قولين:

الأول: الفقر الماهوي وهو القول المشهور بينهم؛ لدعوى أن الماهيات عدم محض مالم تظهر إلى الوجود، فهي فقيرة إلى الوجود.

الثاني: الفقر الذاتي وهو المعبّر عنه بالإمكان الفقري عند الحكماء المتأخرين. سمّي بالذاتي؛ لأن الحاجة من ذاتيات الوجود الإمكاني؛ إذ الممكن من ذاته ليس بموجود، ووجوده من علته[(٣)]، وهو الذي قد يُفهم من عبارة دعاء عرفة: ﴿إلهي أنا الفقير في غناي فكيف لا أكون فقيراً في فقري﴾[(٤)].

---

(١) البحار: ج٦٩، ص٣٢، ح٢٦.

(٢) انظر مجمع البحرين: ج٣، ص٤٤٣، (فقر).

(٣) انظر شرح الأسماء الحسنى: ج١، ص١٤-١٥.

(٤) إقبال الأعمال: ص٦٥٩، دعاء عرفة؛ البحار: ج٩٥، ص٣٢٥.

وقول بعضهم إن الفقير لا يحتاج إلى شيء؛ لأن الاحتياج من لوازم الوجود والفقير لا وجود له، فعند ذلك يصير غنياً[(١)] إن أريد به الحاجة إليه عز وجل في أصل الوجود وكمالاته، أو اليقين في الفقر إليه، بحيث يرى العبد نقصه وحاجته من كل جهة وفي كل آن كما اشتهر: أن نهاية الفقر بداية الغنى كان تاماً، وإن أريد به الغناء والوحدة أو الاتحاد فباطل عقلاً وشرعاً.

هذا لأن أهل المعرفة يقولون: إن هذا المقام إذا لم يحصل للعبد لا يصل إلى مقام الشهود؛ لأن العبد ما دام محجوباً بحجاب ماديته وأنانيَّته لا يرى شيئاً، وبهذا يجمع بين الروايات الذامّة للفقر؛ إذ المراد به المادي الدنيوي، والأخرى المادحة، والمراد به الفقر الذاتي إلى الله، كما يظهر وجه الجمع بين ما ورد في مدح الفقر واستحباب الغنى وإظهار النعمة فإن الأولى محمولة على فقر النفس الذي يقود ابن آدم إلى كفران النعم، والثانية على الغنى مع التواضع وخدمة عيال الله سبحانه.

وحقيقة الفقر لا تحصل إلّا عبر أمور:

الأول: ترك الدنيا طلباً وجمعاً؛ لأن محبة الدنيا من علائم المالكية لا المملوكية، والمملوكية دليل الفقر.

الثاني: أن يرى الطالب أن كل وجوده وكمالاته هي للحق ومن الحق ولا شيء له من ذاته، بل إذا لاحظ وجوده عدّه نقصاً وذنباً كما قال شاعرهم:

إذا قلت ما أذنبت قالت مجيبة　　　وجودك ذنب لا يقاس به ذنب

---

(١) شرح الأسماء الحسنى: ج١، ص٦٦.

لأن الطالب إذا لاحظ وجوده انحجب بحجب أنانيته، وهي تبعده عن ساحة القرب.

الثالث: أنه ليس له من دون الله شيء أبداً، ولعل هذا يفسر الحديث: «الفقر سواد الوجه في الدارين»[(١)] على بعض الأقوال[(٢)]؛ بداهة أن من شاهد فقره الذاتي اسودّ وجهه، فإن العدم سواد ليس فوقه سواد؛ لكونه منشأ الشر والنقص والفاقة، كما أن الوجود نور ليس فوقه نور؛ لكونه منشأ الخير والكمال والغنى.

وأما ما ورد في سيرتهم عليهم السلام من الفقر ومدحه فهو من باب التزهد قربة إلى الله سبحانه والمواساة للفقراء؛ لكونهم القدوة، وهذا فقر ممدوح يصل بالعبد إلى المراتب المعنوية السامية، وعليه يحمل ما ورد عنه صلى الله عليه وآله: «الفقر موهبة من مواهب الآخرة وهبها الله تعالى لمن اختاره، ولا يختاره إلّا أولياء الله تعالى»[(٣)].

هذا ولعل قوله عليه السلام: «اشتدّت فاقته» لجهة أن الدعاء في الشدّة مقرون بالإجابة كما دل عليه العقل والنقل.

أما العقل فلأنه يحكم بحسن الإجابة في مواضع الشدّة بل ولزومها؛ لوجود المقتضي وهو الدعاء، وشدة الحاجة وانعدام المانع كون المعطي غنياً

---

(١) البحار: ج٦٩، ص٣٠، ح٢٦.

(٢) انظر شرح الأسماء الحسنى: ج١، ص٦٦؛ ج٢، ص٦٨.

(٣) انظر المستطرف: ج٢، ص٤٩١.

كريماً لا تنقص خزائنه، ولا تزيده كثرة العطاء إلّا جوداً وكرماً، وقد أمر بالدعاء ووعد بالإجابة.

وأما النقل فلمثل قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾[1] ومن المضطرين المذنب الذي يدعوه ويسأله المغفرة، ومنهم الخائف الذي يسأله الأمن، والمريض الذي يطلب العافية، والمحبوس الذي يطلب الخلاص، فإن الكل ضاق بهم الأمر[2]، وإنما خص المضطر بالذكر إما لانطباق الاضطرار على كل عاجز فقير، أو لأن رغبته أقوى وسؤاله أشد، فإذا توفرت هذه العلة في غيره كان له ذات الجزاء.

---

(١) سورة النمل: الآية ٦٢؛ وانظر مرآة العقول: ج١٢، ص١٥، ح٧.

(٢) انظر مجمع البيان: ج٧، ص٣٩٦، تفسير الآية ٦٢ من سورة النمل.

﴿وَأنْزَلَ بِكَ عِنْدَ الشَّدائِدِ حاجَتَهُ﴾

الدعاء عند الشدائد

النزول -بالضم- الحلول، وهو في الأصل الانحطاط من علو. يقال: نزلهم ونزل بهم ونزل عليهم بمعنى[1]، ولكنه في مواضع الشدة يتعدى بالباء، وفي المحكم: النازلة الشدة من شدائد الدهر تنزل بالناس. يقال: نزل به مكروه[2]، وفي المجمع: نزل به كذا أي حل فيه[3]، وأما أنزل فهو متعد.

والله سبحانه عالم بالأسرار والخفايا ولا يحتاج لدى سماع دعاء عبده إلى بيان، ولكن ورد النقل بأن الله سبحانه يحب مسألة عبده، بل ويحب الإلحاح في الدعاء، بل وتسمية الحاجات كبيرها وصغيرها كالحبيب الذي يعلم بحاجة محبوبه ولكن يحب أن يسمعها منه.

وفي الأخبار الشريفة: لا تمل من الدعاء فإنّي لا أمل من الإجابة[4]، وأنّ الله يحب السائل اللحوح، وعن الصادقعليه السلام قال: ﴿إن الله تبارك وتعالى يعلم ما يريد العبد إذا دعا ولكنه يحب أن يبث إليه الحوائج﴾.

وعن كعب الأحبار مكتوب في التوراة: يا موسى، من أحبني لم ينسني، ومن رجا معروفي ألح في مسألتي، يا موسى إنّي لست بغافل عن خلقي

---

(١) انظر مفردات الراغب: ص٧٩٩، (نزل)؛ وتاج العروس: ج١٥، ص٧٢٨، (نزل).

(٢) تاج العروس: ج١٥، ص٧٣٠، (نزل).

(٣) مجمع البحرين: ج٥، ص٤٨٢، (نزل).

(٤) البحار: ج٩٠، ص٣٧٣، ح١٦.

ولكن أحب أن تسمع ملائكتي ضجيج الدعاء من عبادي، وترى حفظتي تقرب بني آدم إليّ بما أنا مقويهم عليه ومسببه لهم[١].

وهو ما يحكم به العقل أيضاً؛ لأنه يرى حسن السؤال وإظهار الحاجة حتى عند مَنْ يعلمها؛ لكونه من مقتضى التواضع والخضوع والتذلل والتأدب بآداب العبودية، وحيث إن حالات الشدة أكثر ما يبدي عجز الإنسان وضعفه يزيده تواضعاً وخضوعاً لربه، ولذا أكثر ما يظهر أثر الإجابة في تلك الحالات، ولعل من هنا قال عليه السلام: ﴿**أنزل بك عند الشدائد حاجته**﴾ ويحب الله سبحانه أن يسأل العبد في الكبائر والصغائر.

وعن الباقر عليه السلام: ﴿لا تحقروا صغيراً من حوائجكم فإنّ أحب المؤمنين إلى الله تعالى أسألهم﴾[٢].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿سلوا الله عزّ وجل ما بدا لكم من حوائجكم حتى شسع النعل فإنّه إن لم ييسّره لم يتيسر﴾[٣]. وعنه صلى الله عليه وآله: ﴿ليسأل أحدكم ربّه حاجته كلّها حتى يسأله شسع نعله إذا انقطع﴾[٤] وفيما أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: ﴿يا موسى، سلني كل ما تحتاج إليه حتى علف شاتك وملح عجينك﴾[٥].

---

(١) انظر عدة الداعي: ص١٤٣.

(٢) مكارم الأخلاق: ص٣١٧.

(٣) مكارم الاخلاق: ص٢٧٠؛ البحار: ج٩٠، ص٢٩٥، ح٢٣.

(٤) مكارم الأخلاق: ص٢٧٠؛ البحار: ج٩٠، ص٢٩٥، ح٢٣.

(٥) عدة الداعي: ص١٢٣؛ البحار: ج٩٠، ص٣٠٣، ح٣٩.

ومن المناجاة قول الشاعر:

يا من يرى ما في الضمير ويسمع   أنت المعد لكل ما يتوقع
يا من يرجّى للشدائد كلها   يا من إليه المشتكى والمفزع
يا من خزائن رزقه في قول كن   أمنن فإنّ الخير عندك أجمع
مالي سوى فقري إليك وسيلة   فبالافتقار إليك فقري أدفع
مالي سوى قرعي لبابك حيلة   فلئن رددت فأي باب أقرع
ومن ذا الذي أدعو وأهتف   إن كان فضلك عن فقيرك يمنع
حاشا لجودك أن تقّنط عاصياً   الفضل أجزل والمواهب أوسع[١]

(١) المستطرف: ج٢، ص٨٢٥.

﴿وَعَظُمَ فيما عِنْدَكَ رَغْبَتُهُ﴾

في الرغبة ومنازل السالكين

والجملة ظاهرة الدلالة، يقال: عظم الشيء: إذا كبر أو كثر كماً أو كيفاً، وفي المفردات: أصله من كبر العظم ثم استعير لكل كبير، فأجرى مجراه محسوساً كان أو معقولاً، عيناً كان أو معنى. قال تعالى: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[1] و: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾[2][3] و(ما) موصولة والرغبة: السؤال والطلب، وكذا الحرص والطمع[4]، ولعل الجامع بينها هو السعة في الإرادة[5]، وتختلف حسناً وقبحاً ومدحاً وذماً باختلاف المتعلق، فالحرص والطمع في موارد الخير والفضيلة ونيل المعروف من الغني الكريم يدل على غاية الحسن والتواضع، وفي موارد الدنيا وشهواتها قبيح مذموم.

واعلم أن الرغبة من منازل العبودية. قال تعالى في وصف أوليائه: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[6] وهي فوق الرجاء؛ لأن الرجاء سلوك الطريق لمحض الشوق رجاء أن يصل إلى المقصود ولمّا يصل، أما الرغبة فهي سلوك الطريق مع الوصول والمشاهدة، وهي مراتب. لعل أعلى مراتبها الإعراض عن لذات الدنيا رغبة في اللذات الأخروية، أو الإعراض عن اللذات

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٥.

(٢) سورة ص: الآية ٦٧.

(٣) مفردات الراغب: ص٣٣٩، (عظم)، (بتصرف).

(٤) مجمع البحرين: ج٢، ص٧١، (رغب).

(٥) مفردات الراغب: ص١٩٨، (رغب).

(٦) سورة الأنبياء: الآية ٩٠.

البدنية رغبة في اللذات الروحانية، وفي الحديث: ﴿لا تجتمع الرغبة والرهبة في قلب إلّا وجبت له الجنة﴾[(١)].

وقد قسّموها على مراتب ثلاث:

الأولى: رغبة أهل العلم في تحصيل العلوم والمعارف الحقّة.

الثانية: رغبة أهل المعرفة لاكتساب الفضائل والملكات الحسنة واجتناب الرذائل والملكات الحيوانية، وهي فوق الأولى، ولعل إليه تشير وصية الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام لهشام بن الحكم: ﴿يا هشام، الصبر على الوحدة علامة قوة العقل، فمن عقل عن الله اعتزل أهل الدنيا والراغبين فيها، ورغب فيما عند الله، وكان الله أنسه في الوحشة، وصاحبه في الوحدة، وغناه في العيلة، ومعزّه من غير عشيرة﴾[(٢)].

الثالثة: رغبة أهل الشهود لمشاهدة جمال الحق وكماله في كل مظهر ومجلى، ولعل منه ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿ما رأيت شيئاً إلّا ورأيت الله قبله وبعده ومعه﴾[(٣)] لشدّة رغبته وشوقه وانشداده إلى ربّه بحيث لا يرى سواه، وقد أشار مولانا الحسين عليه السلام في دعاء عرفة إلى ذلك: ﴿فرأيتك ظاهراً في كل شيء وأنت الظاهر لكل شيء﴾[(٤)] ولعل قوله: ﴿فيما عندك﴾ إشارة إلى هذا المعنى.

---

(١) الفقيه: ج١، ص٢٠٩، ح٦٣٢؛ مجمع البحرين: ج٢، ص٧١، (رغب).

(٢) الكافي: ج١، ص١٧.

(٣) علم اليقين: ج١، ص٤٩؛ وانظر شرح الأسماء الحسنى: ج١، ص٤.

(٤) شرح الأسماء الحسنى: ج١، ص١٩٠؛ مفاتيح الجنان: ص٤٢٨، دعاء الإمام الحسين عليه السلام يوم عرفة.

كما ولعل التسلسل في الفقرات من الفاقة إلى الحاجة إلى الرغبة؛ للدلالة على ترتيب هذه المنازل الثلاث للعارفين؛ إذ يبتدئون بمشاهدة الحق من الفقر ثم الحاجة ثم الرغبة والشهود، بناء على أن الفقر حالي وواقعي، فإذا أظهره العبد كان حاجة فتأمل.

﴿اللّٰهُمَّ عَظُمَ سُلْطانُكَ﴾

خصوصيات السلطنة الإلهية

قوله عليه السلام: «اللهم» استئناف في الخطاب لما جاش في قلبه وضميره من الشوق؛ إذ بعد رغبته وشهوده ووصوله إلى مقام مشاهدة الحق في كل مظهر ومجلى تجلت أمامه عظمة الخالق وسلطنته وهيمنته فصار يمجّد بعظمته بعد علمه بانحطاط رتبته وعجزه وفقره ورغبته، وهذا من مقتضيات الحال، فإن من يرى التفاوت بين النقص والكمال ويلتجئ إلى القوي الكامل ينبغي أن يبيّن ماله من علو وعظمة وغلبة، وهذا من ألطف البيان، فقال: «عظم سلطانك» والسلطان فعلان، ولا يجمع؛ لأن مجراه مجرى المصدر كغفران، وهو من السلطنة والقوة، ويستعمل في الحجة والبرهان، وبالأمرين فسّر قوله تعالى: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾[1] وسميت الحجة سلطاناً لتسلطها على القلوب والعقول.

ولا مانع من حمل المراد على كلا المعنيين، والمعنى على الأول ظاهر، وأما على الثاني؛ فلأنه في مقام إظهار العجز والنقص والاستغفار من الذنوب تكون له الحجة والبرهان على المؤاخذة، ويمكن الجمع بينهما؛ بداهة أن من تجلّى عنده سلطان الخالق وقوته القاهرة على الأشياء قامت عليه الحجة في التوحيد، وامتنع عليه التوسل بغيره من الأسباب في قضاء الحاجات وتلبية الرغبات، ومن خصوصيات السلطنة الإلهية الثبوت والسعة والغلبة والحكمة؛ إذ السلطنة الإلهية حقيقية ذاتية بعكس سائر السلطنات؛ لأنها

---

(١) سورة القصص: الآية ٣٥؛ انظر مجمع البيان: ج٧، ص٤٣٦، تفسير الآية المذكورة.

عرضية، وقيام ممالك الوجود بمالك الملك قيام حقيقي صدوري، وهو قيام القيّومية. أما غيرها فقيام اعتباري.

كما أنها سلطنة غير محدودة. أمّا غيرها محدودة، وكذلك هي دائمة لا تزول من جهة المالك ومن جهة الملك وغيرها يزول من الجهتين، كما أنّها غالبة حكيمة لا ظلم فيها ولا عدوان، ومن الواضح أن هذه الخصوصيات منحصرة بالسلطنة الإلهية، ولهذا خاطبه بالسلطان العظيم؛ إذ لا عظيم سواه، فالسلطنة الإلهية تختلف عن غيرها من جهات: الذات والصفات والأفعال.

إذ هي بالذات سلطنة ذاتية واجبة حقيقية، وفي الصفات دائمة غير محدودة، وفي الأفعال قيّومية مطلقة على الأشياء؛ إذ تصدر عنها الأشياء وتحيط بالأشياء إحاطة العلة بالمعلول، فهي عظيمة بجهاتها الثلاث.

﴿وَعَلا مَكانُكَ﴾

في علو المراتب الإلهية

بعد ثبوت استحالة أن يكون الباري سبحانه في مكان أو يكون له مكان ينبغي أن يحمل اللفظ على غير المعنى الظاهر خلافاً للمجسّمة على ما حقق في محله، فهنا بحثان:

الأول: في معنى العلو.

الثاني: في معنى المكان.

أما الأول فهو في اللغة الارتفاع[1]، ويطلق في المعنويات للرفعة والشرف وجلالة المنزلة، والعلي هو الرفيع القدر الذي ليس فوقه شيء في المرتبة. قال تعالى: ﴿**وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ**﴾[2] ودلالته على ما نحن فيه ظاهرة، ويحتمل معاني أخرى:

منها: القدرة، والمعنى أنه سبحانه علا بالاقتدار.

ومنها: القهر والجبر، علا بمعنى تجبّر، ومنه: ﴿**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ**﴾[3] والمتعالي هو القادر القاهر الذي لا يعجزه شيء، وهو المحكي عن الصدوق قدس سره[4].

ومنها: النزاهة؛ لتعاليه عما لا يليق بشأنه عزّ وجل، فإنّه تعالى عن الأشياء والأنداد وعمّا خاضت فيه وساوس الجهّال و أوهامهم و أفكارهم.

---

(١) انظر مفردات الراغب: ص٣٤٥، (علا)؛ مجمع البحرين: ج١، ص٣٠٤، (علا).

(٢) سورة الحج: الآية ٦٢.

(٣) سورة القصص: الآية ٤.

(٤) التوحيد: ص١٩٨، (بتصرف).

ومنها: الغلبة والنصر؛ لأنّه سبحانه الغالب على أمره. قال تعالى: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى﴾[١] ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾[٢].

ومنها: الغنى كما عن ابن فهد من أنه العليّ المتنزّه عن صفات المخلوقين تعالى أن يوصف بها[٣].

ومنها: المرتبة، والمعنى هو الذي لا رتبة فوق رتبته، وجميع المراتب منحطّة عنه، ومنشأ ذلك اللغة؛ لأن العليّ مشتق من العلو، وهو مأخوذ من العلو المقابل للسفل[٤]، وذلك إما في درجات محسوسة كالدرج والمراقي وجميع الأجسام الموضوعة بعضها فوق بعض،

وإما في المراتب المتخيلة، كما يقال للمَلِك إنه أعلى الناس أي في الرتب المتخيلة، ويستحيل أن يكون علوّه تعالى بهذين المعنيين؛ لاستحالة كونه في المكان وتنزّهه عن الكمالات الخيالية؛ إذ هي كمالات إضافية تتغير وتتبدّل بحسب الأشخاص والأوقات، وقد تكون كمالات عند بعض الناس ونقصاً عند آخرين.

وإما في الرتب المعقولة للموجودات المرتبة نوعاً في الترتيب العقلي، وكل ما له فوقية في الرتبة فله العلو في الرتبة، ومثال التراتبات العقلية: التفاوت بين السبب والمسبب، والفاعل والقابل والكامل والناقص فإذا قدرت مسبباً

---

(١) سورة طه: الآية ٦٨.

(٢) سورة آل عمران: آية ١٣٩؛ سورة محمد: الآية ٣٥.

(٣) عدة الداعي: ص٣٠١، الرقم ١١.

(٤) انظر مفردات الراغب: ص٣٤٥، (علا).

فهو سبب لثان، وذلك الثاني سبب لثالث، وهكذا إلى العاشر، فالعاشر واقع في الرتبة الأخيرة فهو الأسفل، والأول واقع في الدرجة الأولى من السببية فهو الأعلى، ويكون الأول فوق الثاني فوقية لا بمعنى المكان.

ولما كانت ذاته المقدسة هي مبدأ كل موجود حسيّ وعقلي، وعلة الشيء لا يتصور فيها النقصان بوجه من الوجوه لا جرم كان مرتبته أعلى المراتب العقلية على الإطلاق، وله العلو المطلق في الوجود العاري عن الإضافة إلى شيء دون شيء.

ومن هنا نعرف أن المكان كما استعمل ظرفاً بمعنى محل الكون كذلك استعمل هو وكل ما كان من مادته من المشتقات والصيغ في معان أخرى وإن كان مرجعها إلى شيء واحد في الواقع وهو المكنة والاستقرار[١].

ومنها: المكان الحادث الذي علا بنسبته إليه عزّ وجل بالإضافة التشريفية كالكعبة المشرفة أو عرشه ومحل أمره ونهيه، أو بكونه محلاً لتوحيده والإيمان به كقلب المؤمن.

ومنها: العصمة؛ لعلوّها عن النواقص والقبائح، وأكمل مصداق لها هو محمد وآل محمد عليهم الصلاة والسلام، فإنهم عليهم السلام موضع سر الله، وأوعية مشيئته، وظهور أمره ونهيه، ومظاهر عظمته وأسمائه الحسنى، فإرادة الرب في مقادير أموره تهبط إليهم، وتصدر من بيوتهم عليهم أفضل الصلوات وأزكى التسليم، كما دل عليه النقل والعقل.

---

(١) انظر تاج العروس: ج٩، ص٣٤٨-٣٤٩، (مكن).

ولا مانع عقلي أو شرعي يحول دون القول بما ذكر من معان وغيرها مما قد تحتمله العبارة، كما أن ما ذكر من معان من باب التفسير بالمصداق أو المرتبة فلا تنافي بينها؛ لدخولها جميعاً تحت الجامع اللغوي وهو الارتفاع، سوى أنه تارة يراد به الارتفاع المادي، وتارة المعنوي، وكلاهما حقيقي، وتارة يراد به المعنى المجازي بضرب من التأويل.

وأما الثاني – أي المكان– ففيه احتمالات:

منها: المنزلة والشأن، كما يقال فلان بمكان من الأمر، فقوله عليه السلام: ﴿**علا مكانك**﴾ أي تنزهت منزلتك عن منازل كل شيء، وشأنك من شأن كل ذي شأن، وتعاليت وتنزهت من أن يصفك أحد، فأنت الأعلى من كل شيء، وكيف يصف الداني من هو أعلى منه ومن هو محيط به ذاتاً ورتبة؟

ومنها: ما عن بعض أهل الحكمة حيث ذهبوا إلى أن المراد من المكان الرتبة الوجودية التي يعبرّ عنها بالسرمد، وهي ما يعبّر عنها البعض بنفس الأمر[١].

وتقريرها بلسان بعضهم: أن لكل موجود مكاناً ووعاء خاصاً به، فالماديات لها مكان كثيف ظلماني، والفلكيات لها أمكنة، وللمجردات أمكنة وأوعية أيضاً مجردة، فكذلك للحق تعالى مكان فوق كل الأمكنة، ومحيط بكل الأمكنة، ومنزّه عن جميع الأمكنة.

---

(١) انظر بداية الحكمة: ص٢٤، الفصل الثامن من المرحلة الأولى.

فالمكان هنا بمعنى عين ذاته المقدسة، وهي مرتبتها الوجودية في الواقع ونفس الأمر، ولا يعقل أن يكون مكانه غير هذا المعنى أي عين ذاته الواجبة؛ إذ لو كان غير ذلك لكان محتاجاً إلى غيره وهو محال[١].

ومنها: التمكن والاستيلاء، ومنه قوله: ﴿**إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ**﴾[٢] وأمكنته من الشيء تمكيناً أي جعلت له عليه سلطاناً، وتمكن الرجل من الشيء أي قدر عليه، وله مكنة أي قوة وشدة[٣].

ولعل مطلق التمكن والاستقرار الذي يعبّر عنه تارة في المحسوسات بالمحل الذي يستقر فيه الجسم، وأخرى في غيرها بالاستيلاء والتثبت والتسلط والقدرة والشدّة ونحو ذلك هو القدر الجامع بين المعاني، ووجهه أن المكان يحوي الشيء ويحيط به، وهو ينطبق على ما قيل من احتمالات.

ويتحصل مما تقدم: أنه سبحانه أعلى مكاناً من أن تناله أيدي الأوهام، أو تحوم حوله العقول، أو تصل مرتبته مرتبة. تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً.

نعم لا ندرك من حقيقة مكانه شيئاً كما لا ندرك من ذاته وعلمه وقدرته سوى أنه كمال ينبغي أن يثبت له؛ لتنزهه عن النواقص، ولعل في الحديث القدسي: «وعزّتي وجلالي وعظمتي وارتفاع مكاني»[٤] إشارة إلى

---

(١) انظر المبدأ والمعاد: ص٢٦.

(٢) سورة الكهف: الآية ٨٤.

(٣) انظر مجمع البحرين: ج٦، ص٣١٧، (مكن).

(٤) الكافي: ج٦، ص٢٢، ح٤؛ المحاسن: ج٢، ص٥٣٥، ح٨٠٣.

هذا، ولا يلزم منه إشكال عقلي أو شرعي؛ لتوقفهما على إثبات مكان محسوس أو مجرد أو فلكي له عزّ وجل، وقد عرفت عدمه.

ومنها: لعله كناية عن قلب المؤمن كما في الحديث: «لا يسعني أرضي وسمائي ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن»[١] فالقلب المصفّى من كدورات المادة هو مكانه؛ لتعاليه عن الرذائل والشرور، وأكمل مصداق للمؤمن هو النبي وأهل بيته الأطهار عليهم السلام، وكونهم عليهم السلام المكان المعنوي للباري عزّ وجل مما تضافرت به الأدلة، وعضدته براهين العقل[٢].

وكيف كان، فإنه بعد الإقرار بعظمة سلطانه عزّ وجل ولما تجلّت في بصيرته شواهد العظمة استدعى الأمر تنزيهه عن إدراك البشر، فقرن ذهوله بعظمة سلطانه بتنزيهه عن دركه؛ لتوقف الإدراك على إحاطة المدرِك بالمدرَك، وهو باطل بالضرورة، وفي هذا التعبير دلالة بليغة على التوحيد الأفعالي والصفي والإقرار بالعجز عن الوصول إلى حقيقته، كما أنه يتناغم مع شدة الرغبة والانقطاع إليه في طلب المغفرة وتحصيل الإجابة.

---

(١) عوالي اللآلئ: ج٤، ص٧، ح٧.

(٢) لمعرفة تفصيل ذلك انظر كتابنا المظاهر الإلهية في الولاية التكوينية.

﴿وَخَفِي مَكْرُكَ﴾

في المكر الإلهي

المكر الخدعة والحيلة. قيل هو الأصل في معناه[1]، وفيه روايات[2]، وحيث إن الباري عز وجل يتنزّه عنه حمل مكره على أحد معنيين:

أحدهما: مجازاة المكر ومكافأته بعقوبة الماكرين وابتلائهم من باب (خذ الغايات واترك المبادئ).

ثانيهما: استدراج الماكرين في مزيد المعصية وأهل النعم بمزيدها وإمهالهم في الانتقام؛ ليزدادوا إثماً، ولهم عذاب أليم، وهذا لا يختص بالعاصين، بل ينطبق على أعمال الجهال والمصلين الذين يعملون الطاعات الناقصة، أو يسيئون في النعم، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً قال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**﴾[3] أي خير المجازين على المكر؛ لأنه تعالى لا يمكر إلّا ما هو حق وصواب، وهو إنزال المكروه بمن يستحقه.

---

(١) انظر مجمع البحرين: ج٣، ص٤٨٤، (مكر)؛ وانظر لسان العرب: ج٥، ص١٨٣، (مكر).

(٢) عن أمير المؤمنين عليه السلام: ((لولا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إن المكر والخديعة والخيانة في النار لكنت أمكر العرب﴾؛ ثواب الأعمال: ص٢٧١؛ انظر بحار الأنوار: ج٤١، ص١٠٩-١١٠، ح١٧، مثله في ح١٦؛ وفي مرآة العقول: ج١٠، ص٣١٨، ح١؛ قال أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿لولا أن المكر والخديعة في النار لكنت أمكر الناس﴾.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٥٤؛ سورة الأنفال: الآية ٣٠.

وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[1] وقال عز وجل: ﴿قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾[2] وقد أطلق المكر عليها من باب مجاز المشاكلة أو المقابلة، من قبيل: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ﴾[3] ويختلف المكر والحيلة في العموم من وجه، وتفرق الحيلة عنه في الخديعة من غير قصد الإضرار والمكر معه.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[4] كما في قصة دار الندوة حيث اجتمع نفر من قريش في دار قصي بن كلاب وتآمروا في قتل النبي صلى الله عليه وآله[5]، ويجب الخوف من مكره تعالى؛ إذ لا يأمن من مكره إلّا خاسر. قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[6].

وعن عبد العظيم بن عبد الله الحسني قال: حدّثني أبو جعفر الجواد صلوات الله عليه قال: «سمعت أبي يقول: سمعت أبي موسى بن جعفر عليهما السلام يقول: دخل عمرو بن عبيد على أبي عبد الله عليه السلام، فلما سلّم وجلس تلا هذه الآية: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإثم وَالْفَوَاحِشَ﴾[7] ثم أمسك

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٥٤.

(٢) سورة يونس: الآية ٢١

(٣) سورة البقرة: الآية ١٩٤.

(٤) سورة الأنفال: الآية ٣٠.

(٥) انظر مجمع البيان: ج٤، ص٤٥٧-٤٥٨، تفسير الآية ٣٠ من سورة الأنفال.

(٦) سورة الأعرف: الآية ٩٩.

(٧) سورة النجم: الآية ٣٢.

فقال له أبو عبد الله عليه السلام: ما أسكتك؟ قال: أُحبُّ أن أعرف الكبائر من كتاب الله عز وجل، فقال: نعم يا عمرو أكبر الكبائر الإشراك بالله. يقول الله: ﴿مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ﴾[1] وبعده الإياس من روح الله؛ لأن الله عزّ وجل يقول: ﴿إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[2] ثم الأمن لمكر الله؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[3]»[4].

هذا وفي المجمع المكر الالتفاف[5]، وله مصاديق منها الميل إلى جهة الشر في خفية، ومنها الاحتيال بإظهار خلاف الإضمار[6]. يقال فلان يمكر مكراً: التف تدبيره على مكروه لصاحبه، وفي المفردات: المكر صرف الغير عما يقصده بحيلة، وذلك ضربان مكر محمود وهو أن يتحرّى بذلك فعل جميل، وعلى ذلك قال الله عز وجل: ﴿وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[7] ومذموم وهو أن يتحرّى به فعل قبيح. قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾[8][9].

---

(١) سورة المائدة: الآية ٧٢.

(٢) سورة يوسف: الآية ٨٧.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٩٩.

(٤) الكافي: ج٢، ص٢٨٥، ح٢٤؛ مرآة العقول: ج١٠، ص٤٥، ح٢٤.

(٥) مجمع البيان: ج٤، ص٤٥٧، تفسير الآية ٣٠ من سورة الأنفال.

(٦) المصدر نفسه: ص٣١٣-٣١٤، تفسير الآية ٩٩ من سورة الأعراف.

(٧) سورة آل عمران: الآية ٥٤؛ سورة الأنفال: الآية ٣٠.

(٨) سورة فاطر: الآية ٤٣.

(٩) مفردات الراغب: ص٤٧١، (مكر).

ما معنى خفاء المكر؟

أما لماذا قال: ﴿**خفي مكرك**﴾؟

لأنّ أصل المكر ما خفي فإن الماكر ينزل المكروه بالممكور به من حيث لا يعلم، وبتدبير وإرسال في الوقت المناسب[١]، وإنما وصف مكره بالخفاء تأكيداً ومبالغة، وفي إذعان العبد بخفاء مكره إذعان بكمال خوفه منه.

وبما أن المكر بمعناه الحقيقي لا يليق بساحة قدسه جلّ وعلا؛ لأنه من صفات الجاهلين العاجزين يصح هذا الإطلاق هنا من باب الاستعارة أو مجاز المجانسة أو المقابلة كما في قوله تعالى: ﴿**تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ**﴾[٢].

أما كيف يتم الاستدراج؟

فالجواب: يتم بتوفير النعم؛ إذ في قبال كل معصيه يعطيه نعمة أخرى ليصبح وفور النعمة سبباً للنسيان والغفلة حتى يسلب من العبد توفيق الذكر والاستغفار. قال تعالى: ﴿**سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[٣] أي سنأخذهم إلى العقاب قليلاً قليلاً وحالاً بعد حال، كما يرتقي الراقي الدرجة متدرجاً شيئاً بعد شيء حتى يصل إلى العلو[٤].

---

(١) انظر معجم الفروق اللغوية: ص٢٠٦-٢٠٧، (٨١٤).

(٢) سورة المائدة: الآية ١١٦.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٨٢؛ سورة القلم: الآية ٤٤.

(٤) انظر مجمع البيان: ج٤، ص٤٠١، تفسير الآية ١٨٢ من سورة الأعراف؛ ومجمع البحرين: ج٢، ص٢٩٨، (درج).

وفي القاموس: استدرجه أي خدعه، واستدراج الله العبد بأنه كلّما جدد خطيئة جدد له نعمة وأنساه الاستغفار، فيأخذه قليلاً قليلاً ولا يباغته[١]، يعني لا يفاجئه من البغتة وهي الفجأة، أو أن النعم تطغيه وتشغله بلذاتها وشهواتها.

وعن الصادقعليه السلام سئل عن معنى الاستدراج قال: «هو أن العبد يذنب الذنب فيملي له ويجدد له عندها النعم فتلهيه عن الاستغفار من الذنوب، فهو مستدرج من حيث لا يعلم»[٢] وقال تعالى: ﴿**فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ**﴾[٣] فمكر الله سبحانه خفي؛ لأنه يمهل ولا يهمل، ثم إذا أمهل استدرج ثم يأخذ على حين غرة. قال تعالى: ﴿**وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ**﴾[٤] و ﴿**إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاء لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾[٥] وفي نهج البلاغة: «يا ابن آدم، إذا رأيت ربّك سبحانه يتابع عليك نعمه وأنت تعصيه فاحذره»[٦] وقالعليه السلام: «أيّها الناس، ليراكم الله من النعمة وجلين كما يراكم من النقمة فرقين. إنه من وسّع عليه في ذات يده فلم يرَ ذلك استدراجاً فقد أمن مخوفاً، ومن ضيّق عليه في ذات يده فلم يرَ ذلك اختباراً فقد ضيّع مأمولاً»[٧].

---

(١) القاموس المحيط: ج١، ص١٨٨، (درج).

(٢) انظر الكافي: ج٢، ص٤٥٢، ح٢.

(٣) سورة الشعراء: الآية ٢٠٢.

(٤) سورة آل عمران: الآية ٢٨؛ آل عمران: الآية ٣٠.

(٥) سورة نوح: الآية ٤.

(٦) نهج البلاغة: ج٤، ص٧، قصار الحكم ٢٥.

(٧) نهج البلاغة: ج٤، ص٨٣، قصار الحكم ٣٥٨؛ البحار: ج٧٠، ص٣٨٣، ح٨.

وقال عليه السلام: «الحذر الحذر، فوالله لقد ستر حتى كأنه غفر»(١) وقال عليه السلام: «كم من مستدرج بالإحسان إليه، ومغرور بالستر عليه، ومفتون بحسن القول فيه، وما ابتلى الله أحداً بمثل الإملاء له»(٢).

وفي العلل: قال أبو عبد الله عليه السلام: «إذا أراد الله عز وجل بعبد خيراً فأذنب ذنباً تبعه بنقمة ويذكره الاستغفار، وإذا أراد الله بعبد شرّاً فأذنب ذنباً تبعه بنعمة لينسيه الاستغفار ويتمادى به، وهو قول الله عز وجل **﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾** بالنعم عند المعاصي»(٣).

وربما يسأل عن الفرق بين الاستدراج والكرامات والمواهب الإلهية التي يخص الله بها عباده؟

والجواب: أن الفرق يظهر في الشعور والإحساس الباطني من وجهين.

الأول: أن صاحب الكرامة ملتفت مراقب يشتد خوفه وحذره من ربّه تبارك وتعالى كلما ظهرت له خصوصية أو كرامة، بخلاف المستدرج فإنه في الغالب غافل وطامع، ولذا قال أهل المعرفة: أكثر ما اتفق من الانقطاع عن حضرة الله تعالى إنما وقع في مقام الكرامات، فلذا يخاف الأولياء من الكرامة كما يخافون من أنواع البلاء حذراً من كونها ابتلاء واستدراجاً، أو يكون مقدمة للابتلاء بذلك. وهو ما أشارت إليه النصوص المتقدمة.

---

(١) نهج البلاغة: ج٤، ص٧، قصار الحكم ٣٠؛ البحار: ج٧٠، ص٣٨٣، ح٨.

(٢) نهج البلاغة: ج٤، ص٢٧-٢٨، قصار الحكم ١١٦.

(٣) علل الشرائع: ج٢، ص٥٦١، ح١؛ وانظر مرآة العقول: ج١١، ص٣٥٢؛ البحار: ج٧٠، ص٣٨٧، ح١.

الثاني: أن صاحب الكرامة يزداد انقطاعاً إلى ربه تبارك وتعالى، وكلّما ظهرت عليه الكرامات خضع وخشع وشكر؛ لأنه لطف ومنّة إلهية، بينما المستدرج يستأنس ويظن بنفسه خيراً، وأنه نال ذلك عن استحقاق وجدارة، فيكون آمناً من مكر الله سبحانه وسوء المصير.

وربما يظهر الفرق في الفعل أيضاً، فإنه صاحب الكرامة ينسب الكرامة إلى الله سبحانه، ويوظفها لهداية الخلق إلى الله سبحانه، وتهذيب نفوسهم وعقولهم، بينما المستدرج ينسبها إلى نفسه، وربما طغى فيه هذا الشعور فجعله يستحقر غيره، ويستعلي عليه، ويوظف ما لديه؛ لاستعباد العباد وامتلاك رقابهم.

ولعل وجه العلاقة بين خفاء المكر وما تقدم من الطلب والسؤال إظهار مزيد الخضوع والتذلل؛ لأن العاصي لا يجرؤ على المعصية إلّا بعد طغيان النفس والركون إلى شهواتها، وحيث إنه في مقام إظهار التوبة والندم ومشاهدة سلطانه عز وجل وعلو مكانه تجلى عنده الخوف والخشية منه سبحانه خوفاً من مؤاخذته واستدراجه بما أعطاه من النعم، أو أمهله في المجازاة، وورد الخطاب بصيغة الإخبار؛ للحكاية عما يشاهده العبد في وجدانه من اعتقاد، أو للحكاية عن الواقع الذي تحدث عنه الوحي في إخفاء الله سبحانه لمكره، وهذا ما يزيد العبد خوفاً وخشية وخضوعاً وانقطاعاً لربه فيضمن نيل الرغائب.

﴿وَظَهَرَ أمْرُكَ﴾

في علو أمر الله سبحانه

الأمر: الشأن[١]، وهو الجامع لمعانيه المتكثرة بحسب موارد الاستعمالات المختلفة، وفي الحديث: ﴿أمرنا صعب مستصعب لا يحمله إلّا عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان، ولا يعي حديثنا إلّا صدور أمينة وأحلام رزينة﴾[٢] قيل المراد -في بعض معانيه- بأمرهم شأنهم وما لهم من الكمال الخارج عن كمال غيرهم، كالقدرة على ما يخرج عن وسع غيرهم، والحديث عن الأمور الغائبة كالوقائع المستقبلة لزمانهم التي وقعت وفق أخبارهم، فإن هذا الشأن صعب في نفسه لا يقدر عليه إلّا الأنبياء والأوصياء، ومستصعب الفهم على الخلق، معجوز عن حمل ما يلقى منه من الإشارات، ولا يحتمله إلّا نفس عبد امتحن الله قلبه للإيمان، فعرف كمالهم وكيفية صدور هذه الغرائب عنهم ولم يستنكر ذلك ويتعجب منه ويتلقاه بالتكذيب كما فعل ذلك جماعة من جهال الصحابة، بل يتلقى ما يصدر عنهم بالإيمان به، أولئك أصحاب الصدور الأمينة والأحلام الرزينة[٣]، والظهور معروف وله معان قابلة للصدق عليه.

---

(١) انظر مفردات الراغب: ص٢٤، (أمر)؛ تاج العروس: ج٣، ص١٧-١٩، (أمر).

(٢) نهج البلاغة: ج٢، ص١٢٩، الخطبة ١٨٩؛ عيون الحكم والمواعظ: ص١٤٣، وفيه: ((لا يحتمله)).

(٣) مجمع البحرين: ج٣، ص٢١٠، (أمر).

منها: العلو. يقال ظهر أي علا. قال تعالى: ﴿**ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ**﴾[١] أي عالين، وفي الحديث: «أنت الظاهر فليس فوقك شيء»[٢].

ومنها: الغلبة والقهر. قال تعالى: ﴿**فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ**﴾[٣] ومنه قول الرجل: أظهرني الله على عدوي أي غلّبني عليه.

ولعل منشأه الظهر الجارحة[٤]، والظاهر العالي المرتفع، وحقيقته صار على ظهر الشيء.

ومنها: البيّن بنفسه أو بآثاره العالم بجميع الأشياء بحيث لا يخفى عليه شيء، ومنه قولهم: (ظهر لي رأي إذا علمت ما لم تكن تعلمه) ولعلها جميعاً مأخوذة من قول مولانا الإمام الرضا عليه السلام: «وأما الظاهر فليس من أجل أنه علا الأشياء بركوب فوقها وقعود عليها ولكن ذلك لقهره ولغلبته الأشياء وقدرته عليها ووجه آخر أنه الظاهر لمن أراده، ولا يخفى عليه شيء، وأنه مدبر لكل ما برأ، فأي ظاهر أظهر وأوضح من الله تبارك وتعالى؛ لأنك لا تعدم صنعته حيثما توجهت، وفيك من آثاره ما يغنيك، والظاهر منّا البارز بنفسه والمعلوم بحده، فقد جمعنا الاسم ولم يجمعنا المعنى»[٥].

---

(١) سورة غافر: الآية ٢٩.

(٢) مجمع البحرين: ج٣، ص٣٨٨-٣٨٩، (ظهر).

(٣) سورة الصف: الآية ١٤.

(٤) مفردات الراغب: ص٣١٧، (ظهر).

(٥) الكافي: ج١، ص١٢٢، ح٢.

ولولا الجامع لم يصح الانطباق على ما حقق في محله، وخفاؤه علينا لا يخل بوجوده، ولعل مما ورد فيه قوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾(١) أي ما أعلنتم به وما أسررتم، ما عملتم بجوارحكم وما نويتم منه بقلوبكم. هذا ومن أسمائه تعالى الظاهر، أي الظاهر بآياته الباهرة الدالة على وحدانيته وربوبيته، والغالب على أمره، والعالي عن النواقص(٢).

والظهار في اللغة الركوب على الظهر، وفي الشرع تشبيه الزوج المكلف منكوحته -ولو مطلقة رجعية- وهي في العدّة بظهر محرمة أبديّة بنسب أو رضاع أو مصاهرة، كأن يقول لها: (أنتِ عليَّ كظهر أمي). قيل وإنما خصّ الظهر؛ لأن الظهر من الدابة موضع الركوب، والمرأة مركوبة وقت الغشيان، فركوب الأم مستعار من ركوب الدابة، ثم شبّه ركوب الزوجة بركوب الأم الذي هو ممتنع، فكأنه قال ركوبك للنكاح حرام عليّ(٣) وكيف كان، ففي قوله عليه السلام: «ظهر أمرك» احتمالات:

الأول: ظهور أمره يعني ظهور ربوبيته وألوهيته، وكيف لا وهو من أبده البديهيات، والتصديق به لا يحتاج إلى برهان؟ قال تعالى: ﴿أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(٤).

---

(١) سورة الانعام: الآية ١٢٠.

(٢) مجمع البحرين: ج٣، ص٣٨٧-٣٨٨، (ظهر).

(٣) انظر مجمع البحرين: ج٣، ص٣٩١، (ظهر).

(٤) سورة إبراهيم: الآية ١٠.

ولأن الاستفهام قد يراد به الوصول إلى المجهول وهو استفهام الاستعلام، وهو في الاستفهام عن الله سبحانه غير معقول؛ لأنه الظاهر الباطن في الفطر والعقول والآيات الكونية، فينبغي حمله على الاستنكار، فيكون في مورد الاستنكار والتنديد بالزاعمين للشك تعنداً؛ لأنهم يشككون به في كلامهم، وتأبى ذلك فطرهم وقلوبهم. قال تعالى: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا**﴾[١].

وقال الشاعر:

لقد ظهرت فلا تخفى على أحد ... إلّا على أكمه لا يعرف القمرا[٢]

وفي دعاء عرفة: «متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدلّ عليك أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك؟»[٣] إذ الدليل لابد أن يكون أوضح وأظهر من المدلول عليه؛ لأنه معرِّف أو كالمعرِّف، فلابد أن يكون مساوياً أو أجلى من المعرّف، وقوله تعالى: ﴿**الظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ**﴾[٤] أي الظاهر في وجوده وآثاره وأفعاله، وحيث لا يدرك كنهه العقل؛ لاستحالة إحاطة المحدود باللامحدود كان باطناً.

---

(١) سورة النمل: الآية ١٤.

(٢) لقد ظهرت فلا تخفى على أحد ... إلّا على أكمه لا يعرف القمرا
لكن بطنت بما أظهرت محتجباً ... فكيف يعرف من بالعرف إستترا
في البحار: ج٦٤، ص١٤٢.

(٣) إقبال الأعمال: ص٦٦١؛ وانظر البحار: ج٩٥، ص٢٢٦؛ مفاتيح الجنان: ص٤٢٥.

(٤) سورة الحديد: الآية ٣.

الثاني: ظهور دينه، كما في قوله تعالى: ﴿**ظَهَرَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَارِهُونَ**﴾[(١)] وهو الإسلام؛ إذ كره الكفار ظهوره وغلبته[(٢)] وانتشار مبادئه وأحكامه.

الثالث: الأمر التكويني الصادر بمقتضيات القضاء والقدر. قال تعالى: ﴿**لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ**﴾[(٣)] بناء على أن الخلق يتعلق بالجسمانيات والأمر بالمجردات، ووجه التسمية ما ورد في اللغة من إطلاق الأمر على الإبداع[(٤)]، وأما بناء على كون الخلق للتكوين والأمر للتشريع فيحمل على الأمر تكويناً وتشريعاً.

ولعل قوله: ﴿**ظهر أمرك**﴾ في قبال قوله: ﴿**خفي مكرك**﴾ إذ المكر مستور، ولكن نتائج المكر الذي هو الاستدراج والمجازاة ظاهرة، وهو المراد من الأمر فتأمل.

---

(١) سورة التوبة: الآية ٤٨.

(٢) انظر مجمع البيان: ج٥، ص٦٥، تفسير الآية المذكورة؛ والتفسير الصافي: ج٢، ص٣٤٧، تفسير الآية.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٥٤.

(٤) انظر مفردات الراغب: ص٢٤، (أمر).

﴿وَغَلَبَ قَهْرُكَ، وَجَرَتْ قُدْرَتُكَ﴾

قهر الله وقدرته

القهر والمغلوبية من لوازم الفقر والاحتياج وجريان القدرة والسلطنة من لوازم الوجوب، وبظهور أمره يغلب قهره، وتجري قدرته وحكومته على الأشياء، لا يختلف ذلك في حال أو آن أو جهة؛ لاستحالة انفكاك المقدور عن إرادة القادر.

والفرق بين القهر والقدرة في العموم المطلق، فإن القهر الغلبة والتذليل معاً[1]، والقدرة أعم، بل هي علة القهر ومنشؤه، وقدرته سبحانه عامة تتعلق بجميع المقدورات، وتجري إرادتها عليها؛ لوجود المقتضي وانعدام المانع وفرّق بعض أهل اللغة بينهما بالقول بأن القدرة تكون على صغير المقدور وكبيره، بينما القهر يقع على كبر المقدور، ولهذا يقال ملك قاهر إذا أريد المبالغة في مدحه بالقدرة[2]، وهو ما يقضي به العقل؛ لأن القهر لا يصدق إلّا في الغلبة على القادر، وأما من لا قدرة له فلا معنى لقهره، فقهره سبحانه لما له قدرة وقهر كما في قوله: ﴿**وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ**﴾[3]؛ لأن البشر قاهرون في قدرتهم، وهو سبحانه قاهر لهم أما ما ليس له قدرة فقدرته نافذة فيه، ويمكن القول أيضاً أن القهر يتعلق بغلبة القدرة الاختيارية كقدرة الإنس والجن؛ لوجود التضاد بين القدرتين، وأما القدرة غير الاختيارية

---

(١) انظر مفردات الراغب: ص٤١٤، (قهر).

(٢) معجم الفروق اللغوية: ص٤٢١، (١٦٩٦).

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٨، الآية ٦١.

كالحوادث الكونية فتجري فيها القدرة والتقدير الإلهي وليس القهر، وكيف كان فإن قدرته نافذة في جميع الأشياء وقاهرة لها، فما عن الحكماء: من أنّ الواحد لا يصدر عنه إلّا الواحد، وعن الثنوية: أنه لا يقدر على الشر، وعن غيرهم: أنه لا يقدر على الظلم والكذب، وعن النظّام: أنه لا يقدر على القبيح[(١)] باطل، أما قول الحكماء فلبديهة العقل وصريح النقل، وأما غيرهم فلأن قدرته عامة ولا ينافيها عدم الوقوع بسبب المانع الذي تقتضيه الحكمة، فإن عدم تعلق الإرادة بالشيء بسبب منافاته للحكمة لا يستلزم عدم القدرة عليه.

ويتحصل: أن الأشياء حدوثاً وبقاء وفناء مختارها ومجبورها، وصغيرها وكبيرها، وقويها وضعيفها مقدورة له، مقهورة لأمره، خاضعة لإرادته وحكمه.

(١) المواقف: ج٣، ص٧٦-٧٨.

﴿وَلا يُمْكِنُ الْفِرارُ مِنْ حُكُومَتِكَ﴾

الحكومة الإلهية

والمراد من نفي الإمكان إظهار العجز والإقرار به، والحكومة من الحكم وهو القضاء[1]، والإطلاق يشمل ما كان في التكوين والتشريع والحساب، والمعنى على الأول هو الإقرار بالعجز أمام المقدرات الإلهية؛ بداهة أن العبد محكوم مقهور مغلوب لإرادة مولاه.

وأما على الثاني فإن الفرار وإن أمكن قدرة؛ لإيكال الطاعة والعصيان إلى إرادة العبد، إلّا أن اظهار العجز لأجل وجود المانع وهو المؤاخذة والعقاب، وأما على الثالث فالإقرار بحقية اليوم الآخر ووقوع الحساب فيه وخضوع العباد لحكمه وجزائه.

ويمكن أن يكون الوجه في اختتام الفقرات المتقدمة بهذه الفقرة كونها نتيجة لها، فإن المولى الذي عظم سلطانه وعلا مكانه وخفي مكره وظهر أمره وغلب قهره وجرت قدرته لا يمكن الفرار من حكومته طرفة عين في الدنيا والآخرة، سواء كانت من تدبيراته وتقديراته في عباده أو من مجازاته لهم؛ لقيام جميع الأسباب والعلل به، وانتهاء جميع الطرق والوسائل إليه، وإحاطته بكل صغير وكبير من الممكنات في جميع العوالم، ولعل من هذا الباب ما ورد في دعاء الجوشن الكبير: «يا من لا مفرّ إلّا إليه، يا من لا مفزع إلّا إليه، يا من لا مقصد إلّا إليه، يا من لا منجى منه إلّا إليه، يا من لا

---

(١) القاموس المحيط: ج٤، ص٩٨، (الحكم)؛ وانظر لسان العرب: ج١٢، ص١٤٠، (حكم).

يرغب إلّا إليه﴾[١] وفي دعاء أبي حمزة الثمالي: ﴿هربت منك إليك﴾[٢].

وقد نقل أن افلاطون قال: العالم كرة والأرض نقطة والأفلاك قسي؟ والحوادث سهام والإنسان هدف والله هو الرامي فأين المفر[٣]؟

وذكر هذا الكلام عند مولانا أمير المؤمنينعليه السلام فقال: ﴿ففرّوا إلى الله من الله﴾[٤] قال تعالى: ﴿**يَقُولُ الإنسان يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ* كَلَّا لَا وَزَرَ* إلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ* يُنَبَّأُ الإنسان يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ**﴾[٥] فهو عزّ وجل صاحب السلطان والقهر والغلبة، وحكومته نافذة في الأشياء وعليها بعكس غيره من الحكومات؛ إذ هي حكومة حقيقية ذاتية دائمة شاملة وليست اعتبارية عرضية زائلة محدودة.

ولأنه لا يمكن الفرار من حكومته لابد للخاطئ من ضمان السلامة والنجاة، وأقرب الوسائل إليها هو الإقرار والاعتذار والاستغفار وطلب العفو من الغني الكريم، وهو طريق الأولياء الذين لا يجدون مفرّاً منه إلّا إليه.

---

(١) المصباح: ص٢٥٢.

(٢) مصباح المتهجد: ص٥٩١؛ المصباح: ص٢٨٥.

(٣) انظر شرح الأسماء الحسنى: ج٢، ص٦٥.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) سورة القيامة: الآيات ١٠-١٣؛ وانظر مجمع البيان: ج١٠، ص٣٩٥، تفسير الآيات المزبورة.

﴿أللّهُمَّ لا أجِدُ لِذُنُوبي غافِراً، وَلا
لِقَبائِحي ساتِراً، وَلا لِشَيءٍ مِنْ عَمَلِي
الْقَبيحِ بِالْحَسَنِ مُبَدِّلاً غَيْرَكَ﴾

في تبديل السيئات إلى حسنات

عرفت في الفقرة السابقة أن الإقرار طريق العفو، ولذا أخذ عليه السلام بتفصيل ذلك، وفي قوله: «أجد» دلالة واسعة على العلم الوجداني والإذعان النفسي بالخطأ وفقدان الحلول إلّا باللجوء إليه سبحانه.

ومن الواضح أن الغفران لا يتم بحقيقته إلّا ممن يملك حق العقاب والمؤاخذة، وليس إلّا الله سبحانه: ﴿**غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ**﴾[1] وفي الجملة الشريفة تسلسل تصاعدي عميق يبتدئ من غفران الذنوب، ثم ستر القبائح، ثم تبديل القبيح إلى حسن، وهذا ترقٍّ في الدعاء والمسألة، وتصاعد من موقع الرجاء والأمل بالرحيم الودود إلى الإتصال الكامل، وقد جمعت الفقرة الشريفة مراحل القربة منه سبحانه في التخلية والتحلية والتزكية، والعبد المذنب الذي يريد رضا مولاه لابد له.

أولاً: أن يطلب محو سيئاته، وهي عامة تشمل كل سيئة بما فيها المحرمات الشرعية.

وثانياً: ستر القبائح في الأقوال والأعمال والآداب المنافية لمقام العبودية.

وثالثاً: أن يعطى صورة حسنة عند الناس وعند ربه، وتتجلى هذه الصورة بستر قبائحه على الناس إما بتغطيتها أو بتبديلها إلى حسنات.

---

(١) سورة غافر: الآية ٣.

وقد تعلق الطلب بتبديل القبائح إلى حسنات؛ لأن التبديل غير التغيير، والنسبة بينهما العموم المطلق، فالتبديل هو: جعل شيء مكان آخر(١). قال تعالى: ﴿**يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ**﴾(٢).

وفي الحديث عن السجاد عليه السلام قال: «يعني بأرض لم يكتسب عليها الذنوب بارزة ليس عليها جبال ولا نبات كما دحاها أول مرة»(٣) ومنه نشأ اصطلاح الأبدال، وهم قوم من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم إذا مات واحد أبدل الله مكانه آخر، وفي المفردات: هم الذين بدلوا أحوالهم الذميمة بأحوالهم الحميدة(٤).

والتغيير: تبديل في الكيف، ويقع على وجهين:

أحدهما: تغيير صورة الشيء دون ذاته. يقال تغيّر اللون أو الشكل، ومنه ورد الاصطلاح الفقهي أن التغيير سبب لنجاسة الماء(٥).

والثاني: تبديله بغيره. يقال غيّرت ملابسي أو مكاني ونحو ذلك(٦).

قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾(٧) والمعنى أنهم إذا غيّروا أحوالهم الحسنة إلى السيئة أو بالعكس غيّر الله سبحانه ما بهم من

---

(١) مفردات الراغب: ص٣٩، (بدل).
(٢) سورة إبراهيم: الآية ٤٨.
(٣) مجمع البحرين: ج٥، ص٣١٨، (بدل).
(٤) مفردات الراغب: ص٣٩، (بدل)؛ وانظر تاج العروس: ج٧، ص٢٢٣، (بدل).
(٥) كتغيير ماء الكر بلون النجاسة أو طعمها أو ريحها.
(٦) انظر مفردات الراغب: ص٣٦٨، (غير)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٤٣٢، (غير).
(٧) سورة الرعد: الآية ١١.

الرخاء إلى الشدة وبالعكس، والسؤال: كيف يتم تبديل الحسن إلى قبيح؟ ألا يلزم منه الانقلاب المحال؟ لأن الشيء لا ينقلب عما وقع عليه؟

وفي الجواب: نقول: لا يصح تبديل القبيح إلى حسن بالصورة مع انحفاظ ذات القبح؛ لأن هذا خلط على الناس وهو قبيح ينافي الحكمة الإلهية، وثانياً كل شيء تلازمه صورته وأعراضه، فإذا كانت الحقيقة قبيحة كانت صورتها كذلك، خاصة وأن إفاضة الصور من قبل الجاعل يتم حسب الاستعدادات في ذويها. إذاً لابد من إرادة معان أخرى للتبديل وهي وجوه:

الأول: أن الله سبحانه يمحي السيئات من قائمة أعمال العبد ويكتب بدلها الحسنات تفضّلاً ومنّة.

فقد روى أبو ذر في تفسير قوله تعالى: ﴿**إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ**﴾[1] قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال: أعرضوا عليه صغار ذنوبه ونحوّا عنه كبارها، فيقال: عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا، وهو مقر لا ينكر، وهو مشفق من الكبار، فيقال: أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة، فيقول: إن لي ذنوباً ما أراها ههنا! قال: ولقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله ضحك حتى بدت نواجذه»[2] وينبغي أن يتقيد إطلاق الحديث بالولاية وعدم البغض لآل محمد عليهم السلام فإن الموالين يغفر ذنوبهم تفضلاً ببركة ولايتهم لآل محمد عليهم السلام، وغير الموالين إذا

(١) سورة الفرقان: الآية ٧٠.

(٢) عوالي اللآلئ: ج١، ص١٢٤، ح٥٦؛ تأويل الآيات: ج١، ص٣٨٢، ح١٩؛ البحار: ج٧، ص٢٨٦.

لم يكونوا مبغضين لهم وكانوا قاصرين تنالهم الشفاعة. ولعل ضحكه صلوات الله عليه يعود لأمرين:

أحدهما: شدة فرحه وسروره بحسن العاقبة التي ينالها المسيئون فما بالك بالمحسنين.

ثانيهما: لما يراه من أثر الولاية والمحبة لأمير المؤمنين عليه السلام في الآخرة.

الثاني: أو أن العبد يمحيها بتوفيق الله له للقيام بأعمال الخير كثيراً حتى تغلب حسناته سيئاته.

وقد ورد في معاني الأخبار بإسناده إلى هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «كان علي بن الحسين عليه السلام يقول: ويل لمن غلبت آحاده أعشاره» فقلت: كيف هذا؟ فقال: أما سمعت الله عز وجل يقول: **﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا﴾**[1] فالحسنة الواحدة إذا عملها كتبت له عشراً، والسيئة الواحدة إذا عملها كتبت له واحدة، فنعوذ بالله ممن يرتكب في يوم واحد عشر سيئات ولا تكون له حسنة واحدة فتغلب حسناته سيئاته»[2].

الثالث: أن العبد يمحي المساوئ عن لوحة نفسه ويبدلها محاسن، فالمستفاد من الأدلة أن في باطن الإنسان تكتمن أربع قوى ملكية وشيطانية وسبعية وبهيمية، وأخلاقه وسجاياه انعكاس لذلك، فإذا غلب عليه العلم

(١) سورة الأنعام: الآية ١٦٠.

(٢) معاني الأخبار: ص٣٤٨، ح١؛ البحار: ح٦٨، ص٢٤٣، ح٧.

والتقوى صار ملكياً، وإذا غلب عليه المكر والحيلة صار شيطاناً، وإذا غلب عليه الغضب والعدوان صار سبعياً، وإذا غلب عليه الهوى والشهوة صار بهيمياً، وبالعقل والإرادة والتهذيب المتواصل يقدر أن يبدّل صفاته النفسية من القبيحة إلى الحسنة، ومن الدانية إلى العالية، والمستفاد من الأدلة أيضاً أن للإنسان صورتين صورة ملكية تمثل شكله الظاهر، وأخرى ملكوتية تمثل باطنه، وجوهر الإنسان وحقيقته في الصورة الباطنة، فإذا كانت ملكات الإنسان وسجاياه إنسانية راقية كانت صورته الملكوتية كذلك ولو كانت شيطانية كان واقعه الملكوتي كذلك، وكذا لو كان سبعياً أو بهيمياً، كما أن لأعمال الإنسان صورة ملكية وملكوتية تنحفظ في عالم الغيب، وكل عمل وإن كان بحسب ظاهره الدنيوي عرضاً يزول عن الحواس إلّا أنه محفوظ في عالم الغيب بصورته الملكوتية، فالكذب في الظاهر كلام مخالف للواقع لكنه في الواقع بصورة عقرب أو أفعى، وهكذا سائر الأقوال والأفعال حسب ما قرر في علم الكلام من تجسم الأعمال وتسانخها، وعلى هذا فإذا بدّل الإنسان صفاته وأعماله من السيئات إلى المحاسن يكون قد بدّل صورها الملكوتية القبيحة إلى محاسن، وتفصيل الكلام فيه موكول إلى محله.

الرابع: أن الله سبحانه يبدّل سيئات المؤمنين بحسنات المبغضين وبالعكس، وهو أحد المعاني المستفادة من مثل قوله صلى الله عليه وآله: «يا علي حبّك حسنة لا تضر معها سيئة»(١).

---

(١) الصراط المستقيم: ج١، ص١٩٦؛ وانظر بشارة المصطفى: ص١٥٣، ح١١١؛ كشف الغمة: ج١، ص١٠٣، ص١٣٥؛ وانظر تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص٣٠٥، ح١٤٨.

الخامس: أن يبدّل نيّاته الشريرة بهدايته وإصلاحه إلى نيات حسنة في أعماله، وحيث إن العمل رهين النية في الخير والشر يكتسب العمل السيء حسناً من جهة نيّته وبالعكس، وهذا أحد معاني ما ورد عنهم عليهم السلام: «نيّة المؤمن خير من عمله، ونيّة الكافر شر من عمله»[(١)].

السادس: أن يعمل العبد أعمالاً صالحة تبطل ما قدمه من الإساءة، أو يتصف بمحاسن تمحي ما عنده من مساوئ، وهو شائع معروف في الصفات الإنسانية والأخلاق الاجتماعية من هذه الجهة.

وأما من الجهة المخالفة فقد دلت عليه النصوص المتضافرة في الأبواب المتفرقة، واصطلح عليه علماء الكلام بالإحباط، وأرادوا به محو بعض المعاصي ثواب الحسنات. قال تعالى: ﴿**وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا**﴾[(٢)].

وفي الأخبار الشريفة: «أن الغيبة تأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»[(٣)].

والظاهر أنها جميعاً ممكنة، بل واقعة كما يستفاد من مجمل النصوص المستفيضة، وهو ما يحتمله إطلاق قوله تعالى في مجازاة التائبين العاملين: ﴿**فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ**﴾[(٤)].

---

(١) الهداية: ص٦٢؛ الكافي: ج٢، ص٨٤، ح٢.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٢٣.

(٣) الرسائل العشر: ص٣٢٥؛ مستدرك الوسائل: ج٩، الباب ١٣٢ من أبواب أحكام العشرة، ص١١٨، ح١٠٤٠٧.

(٤) سورة الفرقان: الآية ٧٠.

والمعنى كما في مفردات الراغب: هو أن يعملوا أعمالاً صالحة تبطل ما قدّموه من الإساءة[١].

وفي مجمع البيان عن جماعة منهم سعيد بن المسيّب: أن يمحو السيئة عن العبد، ويثبت له بدلها الحسنة، وهو مروي[٢]، وقد اختاره بعض أعلامناقدس سرهم[٣]، بل لعله موضع وفاقهم، واستفاضت به الأخبار وخصوصاً لشيعة آل محمدعليهم السلام وأوليائهم[٤].

وفي كامل الزيارات في الخبر المعتبر عن صفوان بن مهران عن أبي عبد اللهعليه السلام قال: «أهون ما يكسب زائر الحسينعليه السلام في كل حسنة ألف ألف حسنة والسيئة واحدة، وأين الواحدة من ألف ألف حسنة؟» ثم قال: «يا صفوان أبشر إنّ لله ملائكة معها قضبان من نور، فإذا أراد الحفظة أن تكتب على زائر الحسينعليه السلام سيئة قالت الملائكة للحفظة كفّي فتكف، فإذا عمل حسنة قالت لها: اكتبي ﴿**فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾»[٥].

وفي أمالي الطوسي بإسناده عن الرضاعليه السلام قال: «قال رسول اللهصلى الله عليه وآله: حبنا أهل البيت يكفّر الذنوب، ويضاعف الحسنات، وإن الله تعالى ليتحمل

---

(١) مفردات الراغب: ص٣٩، (بدل).

(٢) انظر مجمع البيان: ج٧، ص٣١٣، تفسير الآية ٧٠ من سورة الفرقان.

(٣) انظر تأويل الآيات الظاهرة: ج١، ص٣٨٢، ح٢٠؛ ومهذب الأحكام: ج١٥، ص٢٧٩؛ تبيين القرآن، ص٣٧٨ تفسير الآية المزبورة.

(٤) انظر أمالي الطوسي: ص٧٢، ح١٠٥؛ والكافي: ج١، ص٤٤٣، ح١٥.

(٥) كامل الزيارات: ص٥٤٥.

عن محبينا أهل البيت ما عليهم من مظالم العباد إلّا ما كان منهم على إضرار وظلم للمؤمنين فيقول للسيئات: كوني حسنات﴾[١] هذا وهناك معان أخرى للإحباط ذكر بعضها بعض أصحابنا وبعضها الآخر العامة لا تناسب ما نحن فيه[٢].

في إمكان تبديل الصفات الإنسانية

هذا والكلام في تبديل الرذائل إلى فضائل والقبائح إلى محاسن يقع في مقامين:

الأول: في إمكانه.

والثاني: في كيفيته.

أما المقام الأول فقد اختلف فيه علماء الأخلاق والفلاسفة، وذهب إلى كل فريق، ولعل الحق في المسألة هو التفصيل بين ما كان من الصفات النفسية العارضة التي لم تصر طبعاً فيمكن تبديلها، وبين ما كان سجية ثابتة وملكة طبعت عليها النفس فيمتنع، والوجدان يكفي شاهداً على الأول؛ بداهة أنا نرى تبديل الجبن إلى شجاعة والبخل بالجود وبالعكس إذا ريّض الإنسان نفسه عليها، وهو موقع التنازع بين مهمّات الأنبياء والصالحين والكتب السماوية ومكائد الشيطان وحزبه، ولولا ذلك لم يكن وجه لأعمال

---

(١) أمالي الطوسي: ص١٦٤-١٦٥، ح٢٧٤، وفيه (إصرار بدّل إضرار)؛ وانظر تأويل الآيات الظاهرة: ص٣٨٤، ح٢٣؛ البحار: ج٦٥، ص١٠٠، ح٥.

(٢) انظر الشهادات (للكلبايكاني): ج١، ص٦٨؛ أسرار العارفين: ص١٩٩.

التربية والتهذيب، ولا لجهاد الأولياء والأوصياء والأصفياء والعلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد استقرأ بعض الأعاظم أسباب تغيّر الأخلاق فحصرها في سبعة:

أولها: السلطة بأنواعها ومراتبها، فإنها تحدث في الأخلاق تغيراً من لؤم طبع أو من ضيق صدر، ولذا ورد في الحديث العلوي الشريف: «الولايات مضامير الرجال»[١].

ثانيها: العزل عن الولايات ومواضع القدرة.

ثالثها: الغنى، فقد تتغير به أخلاق اللئيم بطراً، وتسوء طرايقه أشراً

قال الشاعر:

لقد كشف الاثراء عنك خلائقاً   من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقر[٢]

رابعها: الفقر، فقد يتغيّر الخلق به إما أنفة من ذل الاستكانة أو أسفاً من فائت الغنى، ولذلك قال صاحب الشرع (صلوات الله عليه): «كاد الفقر أن يكون كفراً»[٣].

وخامسها: الهموم التي تذهل اللب وتشغل القلب فلا يتسع لاحتمال، ولا يقوى على صبر[٤].

---

(١) نهج البلاغة: ج٤، ص١٠٢، قصار الحكم ٤٤١.

(٢) اخلاق أهل البيت عليهم السلام: ص٢١؛ تاريخ مدينة دمشق: ج٥٦، ص٢٦٤، وفيه: (منك خلائقاً).

(٣) الكافي: ج٢، ص٣٠٧، ح٤؛ أمالي الصدوق: ص٣٧١، ح٤٦٥.

(٤) معجم الفروق اللغوية: ص٥٦٠، الرقم ٢٢٦٢.

وسادسها: الأمراض التي يتغيّر بها الطبع كما يتغيّر بها الجسم، فلا تبقى الأخلاق على اعتدال، ولا يقدر معها على احتمال.

وسابعها: علو السن وحدوث الهرم فكما يضعف بها الجسد عن احتمال ما كان يطيقه من الأثقال كذلك تعجز النفس عن احتمال ما كانت تصبر عليه من مخالفة الوفاق ومضض الشقاق(١).

بل ومما يسبب تغيّر الأخلاق الصديق والفكر والتربية والقدوة، بل هي من أقوى الأسباب وأبلغها.

ويشهد للثاني الوجدان والعقل والنقل؛ بداهة أن الأخلاق إذا مسّت روحانية الإنسان وبلغت المرتبة السامية في الارتقاء أو الخسيسة في الانحدار لا يمكن تغييرها؛ لأنها تصبح طبيعة ذاتية، والذاتي لا يختلف ولا يتخلّف، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿**بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾(٢) فالرين صدأ يعلو الشيء الجليل(٣)، ولعل المراد في الآية الشريفة أنه صدأ صار على قلوب الفجار فعمي عليهم معرفة الخير من الشر.

وفي المجمع: الرين: الحجاب الكثيف(٤)، وعليه يكون المعنى أن المعاصي حجبتهم عن المعرفة أو التوبة، أو صيّرت قلوبهم في غلاف تمنع أبصارهم من الهدى وبصائرهم من درك الحقائق.

---

(١) انظر كشكول البهائي: ج٢، ص٣٠١، (بتصرف).

(٢) سورة المطففين: الآية ١٤.

(٣) مفردات الراغب: ص٢٠٨، (رين).

(٤) مجمع البحرين: ج٦، ص٢٥٩، (رين).

وفي مجمع البيان: الرين أصله الغلبة. ران على قلبه أي غلب عليه[(١)]، ومعناه ظاهر؛ بداهة أن اعتيادهم الكفر وإلفتهم له وغفلتهم صار غطاء على قلوبهم فلا يعقلون ما ينفعهم؛ لأن ترك النظر في العواقب وكثرة المعاصي والانهماك في الفسق يقوي الدواعي في الإعراض عن التوبة والإيلاع بالذنوب، فصار ذلك كالغالب على القلوب الرائن عليها[(٢)]، ومن هنا استظهر بعضهم أن في الآية دلالة على صحة ما يقوله أهل العدل في تفسير الطبع على القلوب والختم عليها والإضلال؛ لأنه تعالى أخبر أن أعمالهم السيئة وما كانوا يكسبونه من القبيح ران على قلوبهم[(٣)].

والظاهر رجوع المعاني الثلاثة إلى مفاد واحد وإن اختلفت في جهة الإشارة أو اللحاظ، فالثالث منها ناظر إلى السبب، والأول ناظر إلى المسبب، والثاني ناظر إلى النتيجة؛ بداهة أن الصدأ ينشأ من الغلبة حتى يشكل حجاباً كثيفاً على القلب، وبذلك يظهر الترتب الطولي بين المعاني.

كما يظهر أيضاً وجه التفصيل الذي اخترناه، وبه نحل النزاع ونرفع الإشكال؛ إذ لعل القائل بعدم إمكان التبديل ناظر إلى صيرورتها طبيعة ثانية في الإنسان، ومن قال بالإمكان ناظر إلى العدم، ويشهد لذلك ما ورد عن الصادق عليه السلام: «إذا أذنب الرجل خرج في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب

---

(١) مجمع البيان: ج١٠، ص٢٩٠، تفسير الآية المزبورة.

(٢) مجمع البيان: ج١٠، ص٢٩٣.

(٣) المصدر نفسه.

انمحت، وإن زاد زادت حتى تغلب على قلبه فلا يفلح بعدها أبداً»[(١)].

وفي صحيح زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: «ما من عبد مؤمن إلّا وفي قلبه نكتة بيضاء، فإذا أذنب ذنباً خرج في تلك النكتة نكتة سوداء، فإذا تاب ذهب ذلك السواد، وإن تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتى يغطي البياض، فإذا غطّى البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً، وهو قول الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم﴾»[(٢)].

ولعل النكتة البيضاء كناية عن الفطرة أو البصيرة أو السجية الأولية في الإنسان، ومن ذلك يعرف وجه المسخ الذي وقع على الأمم السابقة، فإنهم باختيارهم وبتماديهم بالمعاصي أوقعوا أنفسهم في مظاهر الحيوانات التي مسخوا إليها؛ لتشابه الخصوصيات على ما نصت عليه الأخبار[(٣)]، وفصّلته بعض كتب الأخلاق[(٤)].

---

(١) الكافي: ج٢، ص٢٧١، ح١٣؛ الوسائل: ج١٥، الباب ٤٠ من أبوب جهاد النفس وما يناسبه، ص٣٠٢، ح٢٠٥٧٦.

(٢) الكافي: ج٢، ص٢٧٣، ح٢٠؛ مجمع البيان: ج١٠، ص٢٩٣، تفسير الآية المزبورة؛ الوسائل: ج١٥، باب ٤٠ من أبواب جهاد النفس وما يناسبه، ص٣٠٣، ح٢٠٥٨٠.

(٣) انظر الوسائل: ج٢٤، الباب ٢ من أبواب الأطعمة المحرمة، ص١٠٤-١١١، ح٣٠٠٩٥، ح٣٠١٠٢، ح٣٠١٠٣.

(٤) انظر المستطرف: ج١، ص١٤٥.

الطريق إلى تغيير الأخلاق

وأما المقام الثاني فقد يطول فيه الكلام، ولكن نلخّص منه بعض الطرق التي ينبغي أن يسلكها العبد لتنقية نفسه من الشرور، وقلبه من الظلمات، وتطهير أخلاقه من المساوئ، وتبتدئ بخطوات:

الأولى: التفكير؛ إذ لا ريب أن النفس القوية الواعية يمكن أن تسيطر على رذائلها وتتنزه من قبائحها بواسطة التفكر والنباهة، والذي يتتبع ما ورد في الأخبار الشريفة من فضل للتفكر يجد فيها ما يبهر العقول، ويحرك النفوس، ومنه يعرف الوجه في قولهم عليهم السلام: «تفكّر ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة»[(١)] بداهة أن عبادة سبعين سنة توازي في الغالب عمر الإنسان الكامل، وإذا لاحظ العبد أن آثار العبادات ونتائجها في الإصلاح والتسامي والوصول إلى الكمالات الإنسانية الرفيعة قد تتلخص بساعة من التفكير السليم يعرف سر ذلك الاهتمام، والظاهر أن المراد من الساعة ما كان في المصطلح الشرعي لا العرفي أي القطعة من الزمان لا ما اشتمل على ستين دقيقة فقط فتدبر.

وكيف كان، فإن من تفكّر في حقيقة الدنيا وغاياتها وعواقبها في جميع أطوارها تفتر نفسه عن لذاتها وشهواتها، وتسمو نظرته وعبرته لترى المعنويات من الدنيا لا الماديات، وهذا مسلك عام في هدم رذائل النفوس وكبح جماحها، ومما يوجب ذلك أمور:

---

(١) عوالي اللآلئ: ج٢، ص٥٧، الهامش؛ نور البرهان: ج١، ص٧٩، الشرح.

الأول: التفكر في عظمة الخالق وقدرته وشدة نكاله ونقمته وسعة عفوه ورحمته.

الثاني: التفكر في ضعف النفس من كل حيثية وجهة، وعجزها عن درك غاياتها دون تعلق بالواسع المطلق والقادر الحكيم.

الثالث: التفكر في آثار العصيان والمساوئ في طرد النفس من ساحة الرحمة الإلهية وإبعادها عن مواضع اللطف والبركة، بل لو لم يكن في إتباع الهوى إلّا النزول من مراتب الشرف الإنساني والسمو الوجداني إلى حضيض البهيمية الحيوانية أو الخساسة الشيطانية لكفى بذلك عيباً وعاراً عند الكمّلين وأهل المعرفة، كيف وفيها أيضاً الغضب والنقمة من جبّار السماوات والأرض؟

قال الشيخ البهائيقُدِّسَ سِرُّهُ: والعجب منك -أيّها الإنسان- أنك تنكر على عبّاد الأصنام عبادتهم لها، ولو كشف الغطاء عنك وكوشفت بحقيقة حالك، ومثل لك ما يمثل للمكاشفين إما في النوم أو اليقظة لرأيت نفسك قائماً بين يدي خنزير، مشمراً ذيلك في خدمته، ساجداً له مرة وراكعاً أخرى، منتظراً لإشارته وأمره، فمهما طلب الخنزير شيئاً من شهواته توجهت على الفور إلى تحصيل مطلوبه، وإحضار مشتهياته، ولأبصرت نفسك جاثياً بين يدي كلب عقور عابداً له، مطيعاً لما يلتمسه، مدققاً للفكر في الحيل الموصلة إلى طاعته، وأنت بذلك ساع فيما يرضي الشيطان ويسرّه، فإنه هو الذي يهيّج الخنزير والكلب ويبعثهما على استخدامك، فأنت من

هذا الوجه عابد للشيطان وجنوده ومندرج في المخاطبين المعاتبين يوم القيامة بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾(١)(٢).

الرابع: التفكر في قبح التجرّي ودناءة المتجرّي بجحوده لنعم مولاه وإنكار حقوقه، لاسيّما إذا التفت إلى أن كل ما لديه حتى إرادته وقدرته على تجرئه ومخالفته هو منه سبحانه.

الخامس: التفكير في أن العبد لا ينفك لحظة عن محضر الباري عز وجل المحيط بكل شيء علماً وقدرة والذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

الثانية: أن يلاحظ العبد الغايات الشريفة والصفات المحمودة ويروّض النفس عليها، فبالأفعال الحسنة تزول القبيحة أو تتحجم، وبتكرارها والاستمرار عليها تصبح عادة لا تنفك عن سلوك الإنسان وتصرفاته، فإن المداومة على الشجاعة في مواطنها تطبع النفس بطابع الثبات والاستقرار، وتمنعها من التلون أو الخوف، والتعفف المتواصل يوجب العزة والعظمة في أعين الناس، ويزيل الشح والبخل عنها، وهكذا العلم والعدالة والحلم وغيرها من الكمالات والمحاسن إذا واظب عليها الإنسان تصبح طبيعته الثانية التي تزيل النقص والرذيلة عنها.

---

(١) سورة يس: الآية ٦٠.

(٢) الأربعين حديثاً: ص٨٨؛ وانظر شرح الأسماء الحسنى: ج١، ص٩١-٩٢.

الثالثة: المواظبة على معاشرة الصالحين واجتناب أهل المعاصي، فإن القدوة الحسنة لها الأثر البالغ في نقل صفاتها إلى المقتدين، والصفات الأخلاقية قابلة للاقتداء.

وفي نهج البلاغة: «فتأس متأس بنبيه، واقتص أثره، وولج مولجه، وإلّا فلا يأمن الهلكة»[(١)] وقال تعالى: ﴿**يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ**﴾[(٢)]؛ لأن صفات الأمم تنشأ من أئمتها، وقد ورد إذا فسد العالِم فسد العالَم[(٣)]، وفي الحديث: «صنفان من أمتي إذا صلحا صلحت أمتي، وإذا فسدا فسدت أمتي العلماء والامراء»[(٤)]؛ لأنهم الأسوة والقدوة.

ولا يخفى أنَّ كل ما قيل من خطوات هي عبارة عن إيجاد المقتضي في العبد للتحّلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل، ويبقى تأثير المقتضي متوقفاً على انعدام المانع، وهو بيد الله عزّ وجل[(٥)]، ومن هنا التجأ إليه عزّ وجل

---

(١) نهج البلاغة: ص٢٢٩، الخطبة ١٦٠.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٧١.

(٣) الهدى إلى دين المصطفى: ج١، ص٧٩.

(٤) الخصال: ص٣٦، ح١٢.

(٥) ولمعرفة المزيد عن لسان الأئمة الطاهرين عليهم السلام يمكنك مراجعة الرسالة التي وجهها الإمام الصادق عليه السلام إلى أصحابه وشيعته، وأمرهم بمدارستها والنظر فيها والعمل بها، وقد وضعوها في بيوتهم، وقد دأبوا على النظر إليها بعد الفراغ من صلواتهم.

انظر الكافي: ج٨، ص٢-١٤، ح١؛ تحف العقول: ص٣١٣-٣١٥؛ الوافي: ج٢٦، ص٩٧-١١١.

بالدعاء في تبديل الذنب إلى مغفرة، والأعمال القبيحة إلى حسنة؛ إذ لا تكفي إرادة الإنسان في تحقيق الغرض ما لم تقرن بالتوفيق والتسديد الإلهيين.

ولعل من هنا أيضاً أتبع هذا الكلام بالإقرار بالتوحيد والتنزيه والتحميد، فقال: ﴿لا إله إلّا أنت سبحانك وبحمدك﴾.

﴿لا إلـهَ إلّا أنْتَ سُبْحانَكَ وَبِحَمْدِكَ﴾

في كلمة التوحيد وآثارها القدسية

أي لا معبود إلّا أنت؛ إذ لكل موجود نصيب من العبودية من حيث الاحتياج إليه في نظام العالم تكويناً، كما له نصيب من العبودية تشريعاً حسب آداب العبودية ورسومها.

وكلمة التوحيد فيها اسم الجلالة (الله) وهي من مختصات النبي الخاتمﷺ؛ إذ لم ترد على لسان نبي قبله، كما أنها من أرقى ما قاله في بيان التوحيد؛ لاختصارها أعمق المعاني في أوجز تعبير فقد روى الصدوق بإسناده عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللهﷺ: «ما قلت وما قال القائلون مثل لا إله إلّا الله»[1] ولعل الوجه في ذلك أنها تلحظ التوحيد الذاتي والعبادي وتحصره بالحق تبارك وتعالى بإثباته ونفي كل ما سواه بما فيه العبودية للنفس والشيطان، وقد امتازت بمزايا في اللفظ والمعنى لا توجد في غيرها:

منها: أنها سهلة التلفظ؛ لأنها في طرف اللسان، ويمكن الإتيان بها بالشفة واللسان، وباللسان وحده دون تحريك الشفة، فلذا تصح من الذاكر بالجهر والخفاء والصمت.

ومنها: لأنها تضمنت التخلية أولاً قبل التحلية، والتبري قبل التولي؛ إذ تقضي النواقص والأغيار أولاً، ثم تثبت الوحدانية، وهو أصرح في الإخلاص،

---

(١) التوحيد: ص١٨، ح١؛ ثواب الأعمال: ص٤؛ مكارم الأخلاق: ص٣١٠.

فإن الموحّد ما لم ينف كل ما سواه ويقر بعجزه وقصوره لا يتمحض في العبودية، ولا يصل إلى مقام الأنس والانقطاع إليه، ولذا ورد أن اتخاذها ورداً يديم ذكره العبد يوجب ثبات العقيدة ورسوخ التوحيد في النفس. هذا فضلاً عن الخيرات والبركات الكثيرة التي تلازمها.

فقد حكي عن الشيخ القمي في شرحه لتوحيد الصدوق أن لهذا التركيب بحسب الوضع الإلهي فوائد عظيمة بحسب التأثير، وترتب الآثار الغريبة من تصفية الباطن، وتنوير القلب، وتكميل النفوس الإنسانية، وحصول التقرب إلى الملكوت الأعلى والملائكة المقدسة، ومشاهدة الأنوار، واللحوق بالأبرار، والتخلص من الصفات الذميمة، والنقاوة عن الأخلاق الرديئة[١].

وقد اختصت فقرة الدعاء الشريف بضمير المخاطب (أنت) بدلاً من لفظ الجلالة، وفي ذلك دلالة على أمور:

أحدها: بيان أن المقصود هو الذات الإلهية المنزهة عن كل ما لا يليق.

وثانيها: بيان مزيد الانقطاع إليه سبحانه بما يرفع الحجب والموانع حتى يصح من العبد أن يزيل العناوين الأخرى ويخاطبه بالذات الخاصة، فإن الخطاب بـ (أنت) إلفات من الغيبة إلى الحضور الحسي القريب.

ثالثها: أن ضمير الذات يثبت وحدانية العبادة ووحدانية الوجود والفعل بخلاف غيره من الأسماء.

---

(١) شرح توحيد الصدوق: ج١، ص٢٣؛ أسرار العارفين: ص٢٠١-٢٠٢.

واستقرت كلمة التوحيد على (الإله) دون (الرب) من الأسماء؛ لجامعيتها لأوصاف الذات والأفعال والعبادة بخلاف الرب.

فالإله في اللغة: المعبود[١]، والله اسم علم للذات المقدسة الجامعة لجميع الصفات العليا والأسماء الحسنى، وهو مشتق منها، وفي الحديث: «يا هشام، الله مشتق من إله، والإله يقتضي مألوها، كان إلها إذ لا مألوه»[٢] وكان في الحديث تامة، وإذا أريد من المألوه المخلوق دل على الاستحقاق، وإذا أريد منه العباد كان المعنى: لم تحصل العبادة بعد ولم يخرج وصف المعبودية من القوة إلى الفعل، فإنه سبحانه سمّى نفسه بالإله قبل أن يعبده أحد من العباد، ومن الواضح أن من كان أهلاً للعبادة هو الله سبحانه؛ لكمال ذاته ووصفه وفعله دل على التوحيد في كل مراتبه.

والرب: في الأصل التربية، وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام[٣]، وأكثر ما يدل على صفات الفعل، ولا يقال مطلقاً إلّا لله تعالى المتكفل بمصالح جميع الموجودات، والمنشئ لها في جميع مراحلها التكوينية.

ويصح إطلاقه على غيره سبحانه بالإضافة، كما قال سيّد قريش عليه السلام: «أنا رب الإبل ولهذا البيت ربٌ يمنعه»[٤] وقال تعالى: ﴿**اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ**

---

(١) مفردات الراغب: ص٢١، (أله)؛ مجمع البحرين، ج٦، ص٣٣٩، (أله).

(٢) مجمع البحرين: ج٦، ص٣٣٩، (أله)؛ وانظر الكافي: ج١، ص٨٧، ح٢.

(٣) مفردات الراغب: ص١٨٤، (رب).

(٤) الكافي: ج١، ص٤٤٧، ح٢٥.

﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾[١] والمراد المالك، فرب كل شيء مالكه ومستحقه، وكل من ملك شيئاً فهو ربه، وهو شائع في الاستعمالات العامة والخاصة، كما يقولون: رب الدار ورب العمل[٢]، والنسبة بين الإطلاقين العموم من وجه، ويفترق الأول في المرشد والمعلم والمربي الروحي، ويفترق الثاني في المالك، ويجتمعان معاً في الخالق تعالى؛ لأنه المالك الحقيقي والرب في أكمل معانيه.

وحيث إنه في مقام الإقرار بظلمه وجنايته استدعى تنزيه المسؤول والمدعو منهما بقوله: ﴿سبحانك وبحمدك﴾ في مقام تجلي كمالاته تعالى والإقرار بغناه؛ بداهة أن الظالم لا يرفع الظلم، والفقير لا يغني المفتقر؛ إذ فاقد الشيء لا يعطيه.

والسبحان في: ﴿سبحانك﴾ مفعول مطلق[٣]، بتقدير فعل مثل (سبّحت أو أسبّح) كما أن كلمة الحمد إذا وقعت منصوبة كذلك، وذلك بتقدير (حمدت أو أحمد) تنزيهاً له من السوء وثناء عليه لما هو أهل للمدح والثناء.

والباء في قوله: ﴿وبحمدك﴾ إما زائدة بناء على أن الواو عاطفة أو للمصاحبة والتقدير سبحتك معلناً بحمدك وثنائك، أو سببية أي بسبب ما أنت أهل له من أوصاف الكمال سبّحتك ونزّهتك من النقص[٤] وهو الحق.

وربما وردت كلمة التوحيد هنا لأسباب:

---

(١) سورة يوسف: الآية ٤٢.

(٢) انظر لسان العرب: ج١، ص٣٩٩، (رب).

(٣) انظر كتاب النحو الوافي: ج٢، ص ٢٠٤؛ قطر الندى: ص٢٢٤.

(٤) انظر مغني اللبيب: ج١، ص١٠٢، ضمن حرف الباء.

منها: لأن الطالب بعد ذكره لذنوبه وقبائحه وتبديلها بالحسنات يتوجه إلى ربه الذي لا يجد غيره غافراً ساتراً ومبدلاً، فينقطع إلى عالم الربوبية العظيم، ويغرق في عالم التوحيد؛ إذ يدرك أن لا إله إلّا هو فيهلل بالكلمة الطيبة؛ لتبدّل قبائحه إلى طيبات.

ومنها: لأن كلمة (لا إله إلّا الله) حصن من العذاب الروحي والجسدي، والسالك الغارق بذنوبه وقبائحه يسعى للنجاة من عواقبها الأخروية وآثارها الوضعية في الدنيا، وأفضل وسيلة في ذلك هو التحصين، وهذه الكلمة الطيبة خير حصن أمين، وفي حديث سلسلة الذهب عن الرضاعليه السلام: **«لا إله إلّا الله حصني، فمن دخل حصني أمن من عذابي»**[(١)].

ومنها: لأن التهليل من أفضل العبادات ففي عدّة الداعي عن النبيصلى الله عليه وآله: **«خير العبادة قول لا إله إلّا الله»**[(٢)].

---

(١) عيون أخبار الرضاعليه السلام: ج١، ص١٤٤، ح٤.

قال لما وافى أبو الحسن الرضاعليه السلام نيسابور وأراد أن يخرج منها إلى المأمون اجتمع عليه أصحاب الحديث فقالوا له: يا ابن رسول الله، ترحل عنّا ولا تحدّثنا بحديث فنستفيده منك؟ وكان قد قعد في العمارية، فأطلع رأسه وقال: «سمعت أبي موسى بن جعفرعليه السلام يقول: سمعت أبي جعفر بن محمدعليه السلام يقول: سمعت أبي محمد بن عليعليه السلام يقول سمعت: أبي علي بن الحسينعليه السلام يقول: سمعت أبي الحسين بن عليعليه السلام يقول: سمعت أبي أمير المؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام يقول سمعت النبيصلى الله عليه وآله يقول: سمعت الله عزّ وجل يقول: لا إله إلّا الله حصني، فمن دخل حصني أمن من عذابي» قال: فلما مرّت الراحلة نادانا: «بشروطها وأنا من شروطها».

(٢) الكافي: ج٢، ص٥٠٦، ح٥؛ عدة الداعي: ص٢٤٦؛ راجع التوحيد: ص١٨، ح٢؛ البحار: ج٩٠، ص١٩٥، ح١٣.

والذي يطلب غفران ذنوبه وستر عيوبه وتبديل قبائحه إلى حسنات لابد أن يقوم بالشكر في قبال هذه النعم الجسيمة، وليس أفضل من العبادة لأداء الشكر، وأفضل العبادات قول لا إله إلّا الله.

وفي الاحتجاج: عن ابن نباتة قال: سأل ابن الكوا أمير المؤمنين عليه السلام فقال: كم بين موضع قدمك إلى عرش ربك؟ قال: «ثكلتك أُمك يا ابن الكوا سل متعلّماً ولا تسأل متعنّتاً، من موضع قدمي إلى عرش ربي أن يقول قائل مخلصاً: لا إله إلّا الله». قال: يا أمير المؤمنين فما ثواب من قال: (لا إله إلّا الله)؟ قال: «من قال: لا إله إلّا الله مخلصاً طمست ذنوبه، كما يطمس الحرف الأسود من الرق الأبيض، فإذا قال ثانية: لا إله إلّا الله مخلصاً خرقت أبواب السماء وصفوف الملائكة حتى تقول الملائكة بعضها لبعض: اخشعوا لعظمة الله، فإذا قال ثالثة: لا إله إلّا الله مخلصاً لم تنته دون العرش، فيقول الجليل: اسكني فوعزّتي وجلالي لأغفرنّ لقائلك بما كان فيه، ثم تلا هذه الآية: ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**﴾(١) يعني إذا كان عمله خالصاً ارتفع قوله وكلامه»(٢).

وفي البحار: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما من مؤمن يقول: لا إله إلّا الله إلّا محت ما في صحيفته من سيئات حتى تنتهي إلى مثلها من حسنات»(٣).

---

(١) سورة فاطر: الآية ١٠.

(٢) الاحتجاج: ج١، ص٣٨٦-٣٨٧.

(٣) البحار: ج٩٠، ص٢٠١-٢٠٢، ح٣٧.

وعن الصادق عليه السلام قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: التسبيح نصف الميزان، والتحميد يملأ الميزان، ولا إله إلّا الله والله أكبر والله أكبر يملأ ما بين السماوات والأرض» ومنه: «أشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له إلها واحداً أحداً فرداً صمداً لم يتخذ صاحبة ولا ولداً. من قالها خمساً وأربعين مرة كتب الله له خمساً وأربعين ألف ألف حسنة، ومحا عنه خمساً وأربعين ألف ألف سيئة، ورفع له خمساً وأربعين ألف ألف درجة، وكان كمن قرأ القرآن في يومه اثني عشر ألف مرة، وبنى الله له بيتاً في الجنة»[١].

وفي الجواهر حكى الشيخ جعفر كاشف الغطاء قدس سره عن كشف الغمة: أن بعض الأمراء السامانية كتب الحديث الذي رواه الرضا عليه السلام لأهل نيشابور بسنده عن آبائه عليهم السلام إلى الرب تعالى بالذهب، وأمر بأن يدفن معه، فلما مات رُئيَ في المنام فقال: غفر الله لي بتلفظي بـ(لا إله إلّا الله) وتصديقي بمحمد صلى الله عليه وآله، وإنّي كتبت هذا الحديث تعظيماً واحتراماً[٢].

قال صاحب الجواهر قدس سره: ولعله لذا سمي بسلسلة الذهب، وإني كثيراً ما أكتبه في كأس وأمحوه بماء، وأضع عليه شيئاً من تربة الحسين عليه السلام فأرى تأثيره سريعاً، والحمد لله، ولي فيه رؤيا عن أمير المؤمنين عليه السلام تصدّق ذلك ونسأل الله التوفيق[٣].

---

(١) عدة الداعي: ص٢٤٧.

(٢) جواهر الكلام: ج٤، ص٢٢٦.

(٣) جواهر الكلام: ج٤، ص٢٢٦؛ وانظر الخزائن: ص١٦٠.

هذا ولأهل القلوب طرق للذكر الخفي في كلمة التوحيد المباركة تتجلى فيها الآثار أسموه الذكر القلبي أورد بعضها العلامة النراقي قدس سره في خزائنه[١].

آثار التسبيح المعنوية

مما تقدم يعرف أن للتسبيح آثاراً عظيمة تظهر على العبد:

منها: النجاة من العذاب، وقد أشار القرآن إلى ذلك في قصة يونس عليه السلام: ﴿**فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ* لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾[٢] دلت على أن التسبيح علة للنجاة، وفيه إرشاد إلى المؤمنين إذا ابتلوا بالمصائب ليسبّحوا الله ويهلّلوه؛ لأنّهما طريق النجاة. قال تعالى: ﴿**فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ* فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ**﴾[٣] والظلمات فيها ثلاث: ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت، ويحتمل أيضاً ظلمة الغم على قومه بسبب كفرهم، وظلمة تعجيل العذاب عليهم واستعجال خروجه عنهم دون أن يؤذن له، وظلمة الحبس تلك ستة كاملة ثلاثة مادية وثلاثة معنوية، ولا مانع من إرادتها جميعاً، وإطلاق الكلام يتحمله.

---

(١) الخزائن: ص٣٢١ – ٣٢٢.

(٢) سورة الصافات: الآيتان ١٤٣-١٤٤.

(٣) سورة الأنبياء: الآيتان ٨٧-٨٨؛ وانظر مجمع البيان: ج٨، ص٣٣٣، تفسير الآية ١٤٣-١٤٤ من سورة الصافات.

والظاهر أن المراد بتسبيحه هو قوله: ﴿**لا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ وقد قدّم التهليل ليكون كالعلّة المبيّنة لتسبيحه، كأن يقول: لا معبود بالحق يتوجّه إليه غيرك، فأنت منزّه مما كان يشعر به فعلي أني آبق منك، معرض عن عبوديتك، متوجه إلى سواك. إني كنت ظالماً لنفسي في فعلي فها أنا متوجه إليك، متبرئ مما كان يشعر به فعلي من التوجه عنك إلى غيرك.

فهذا معنى تسبيحه، ولولا ذلك منه لم ينجُ أبداً؛ إذ كان سبب نجاته منحصراً في التسبيح والتنزيه بالمعنى الذي ذكر.

وورد عن النبي الأعظمصَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلّا استجيب له»[1].

هذا وفي الضميرين المنفصل المخاطب (أنت) والمتصل (الكاف) بعد نفي الألوهية عن غيره من الدلالة على الحضور والانقطاع والقربة منه ما لا يخفى على أهل المعرفة.

ومنها: التنزيه من العيوب؛ لأنّه تنزيه للرّب من النواقص والعيوب، فالمداومة عليه يقتضي تنزيه العبد من النواقص والعيوب أيضاً؛ لاقتضائه التخلّق بأخلاقه تعالى، والتنزيه طريق للغفران والقبول جزاء للعمل الحسن بالجزاء الحسن والأحسن، وهو من شأن الرب الرحيم، ويمكن أن يقال إن التهليل والتسبيح ذكر، والله يذكر مَنْ ذكره بمزيد التوفيق والتسديد في الكمالات.

---

(١) زبدة البيان: ص٣٥٣؛ تخريج الأحاديث: ج٢، ص٣٦٨.

روى يونس بن يعقوب قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: من قال (سبحان الله) مئة مرة كان ممن ذكر الله كثيراً؟ قال: ﴿نعم﴾[(١)].

وعن الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام أنه قال: ﴿من قال: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ثلاثين مرة استقبل الغنى، واستدبر الفقر، وقرع باب الجنة﴾[(٢)].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿من قال سبحان الله وبحمده كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة، ورفع له ألف ألف درجة، ومن زاد زاده الله، ومن استغفر غفر الله له﴾[(٣)].

وعن الصادق عليه السلام قال: ((من سبّح الله كل يوم ثلاثين مرة دفع الله تبارك وتعالى عنه سبعين نوعاً من البلاء أدناها الفقر))[(٤)].

ومنها: تمحيض التوحيد في قبال من يتوهم أن العباد مجبورون على أفعالهم كما يعتقد بذلك الأشاعرة القائلون بالجبر[(٥)]، إذ قد يتوهم أن

---

(١) عدة الداعي: ص٢٤٦؛ وثواب الأعمال: ص١٢؛ انظر البحار: ج٩٠، ص١٨١-١٨٢، ح١٥.

(٢) أمالي الصدوق: ص٣٥٥، ح٤٣٦؛ وراجع البحار: ج٩٠، ص١٧٧-١٧٨، ح٥.

(٣) معاني الأخبار: ص٤١١، ح٩٨؛ الوسائل: ج٧، الباب ٣٠ من أبواب الذكر: ص١٨٣، ح٩٠٦٥.

(٤) أمالي الصدوق: ص١٠٩، ح٨٤؛ وراجع البحار: ج٩٠، ص١٧٨، ح٨، وح٩ عن أمير المؤمنين عليه السلام.

(٥) الجبرية: الجبر هو نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى، والجبرية أصناف: فالجبرية الخالصة هي التي لا تثبت للعبد فعلاً ولا قدرة على الفعل أصلاً، والجبرية المتوسطة هي التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة أصلاً.
انظر الملل والنحل: ج١، ص٨٥.

المعاصي تنسب إلى الله كذلك فلابد من تنزيه الموحدين لساحته المقدسة من هذه النواقص والعيوب؛ إذ السيئات نتائج اكتساب العباد وأعمالهم. قال تعالى: ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ**﴾[١] فذكر التسبيح تنزيهاً له سبحانه، وتؤيده الفقرة التي تليها؛ إذ يقول عليه السلام: ﴿ظلمت نفسي وتجرأت بجهلي﴾.

(١) سورة الروم: الآية ٤١.

﴿ظَلَمْتُ نَفْسي، وَتَجَرَّأْتُ بِجَهْلي،

وَسَكَنْتُ إلى قَديمِ ذِكْرِكَ لي

وَمَنِّكَ عَلَيَّ﴾

الإقرار بالذنوب وعلو المراتب

هذه الجمل مكملة لما قبلها على ما يقتضيه تسلسل المعنى وضوابط التعبير ومقتضى الحال، وقيل إنها مستأنفة. أما (باء) بجهلي فهي سببية، ووجهه ظاهر؛ بداهة أن الظلم والعصيان يقعان بسبب الجهل التقصيري أو القصوري أو المركب، وفي الجملتين الأخيرتين إشارة إلى أن عصيانه لم يكن من جهة التكبّر والجحود وإنكار الوعد والوعيد، وإنما من جهة الركون إلى رحمته وعفوه وغفرانه.

إذ الخالق الذي ابتدأ بالنعم قبل استحقاقها والذي وهب الإنسان كل لذة ونعمة بلا استحقاق يحفز العبد للركون إلى رحمته اللامتناهية، فإن الرب العطوف الودود غفار لمن تاب، وفي دعاء أبي حمزة: ﴿وقد توثقنا منك بالصفح القديم والفضل العظيم والرحمة الواسعة﴾[1] وبهذا المضمون جاءت بعض أدعية الصحيفة السجادية[2].

---

(١) انظر المصباح: ص٥٩٢.

(٢) الصحيفة السجادية: ص٩٩، من دعاء للإمام السجادعليه السلام في الاستقالة والتضرع في طلب العفو.

﴿أنت الذي وسعت كل شيء رحمة وعلماً، وأنت الذي جعلت لكل مخلوق في نعمك سهماً، وأنت الذي عفوه أعلى من عقابه، وأنت الذي تسعى رحمته أمام غضبه، وأنت الذي عطاؤه أكثرُ من منعه، وأنت الذي اتسّع الخلائق كلهم في وسعه، وأنت الذي لا يرغب في جزاء من أعطاه، وأنت الذي لا يفرط في عقاب من عصاه، وأنا يا إلهي عبدك الذي أمرته بالدعاء فقال لبيك وسعديك، ها أنا ذا يا رب مطروح بين يديك، أنا الذي أوقرت الخطايا ظهره، وأنا الذي أفنت الذنوب عمره وأنا الذي بجهله عصاك ولم تكن أهلاً منه لذاك...﴾.

هذا والجرأة المسارعة في الشيء من غير ترو أو توقف، وفي الدعاء الشريف: «لا تبتليني بالجرأة على معاصيك»[١].

وفي تاج العروس في النهاية والخلاصة: الجرأة: الإقدام على الشيء والهجوم عليه[٢]، والدلالة فيما نحن فيه ظاهرة؛ بداهة أن الجهل بالمفاسد أو سوء العواقب منشأ الإقدام على طالح الأعمال، وهذه حقيقة نفسية أشار إليها الدعاء، ووردت في الأخبار[٣]، والظلم مجاوزة الحق[٤]، وله مراتب:

الأولى: ظلم العبد لربه، وأعظمه الشرك. قال تعالى: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾[٥] ومن مراتبه الكفر والنفاق؛ لأنهما يؤولان إليه.

الثانية: الظلم بين الناس. قال تعالى: ﴿**وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**﴾[٦] وقال سبحانه: ﴿**إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ**﴾[٧].

الثالثة: ظلم العبد نفسه، وإيّاه قصد بقوله: ﴿**فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ**﴾[٨] وقوله: ﴿**ظَلَمْتُ نَفْسِي**﴾[٩] ولا يخفى أن هذه الثلاثة في الحقيقة ظلم للنفس؛

---

(١) الفقيه: ج١، ص٣٣٧، ح٩٨٢، وفيه ((فلا تبتليني فيهما بجرأة على معاصيك))؛ وانظر مجمع البحرين: ج١، ص٨٤، (جرأ).

(٢) تاج العروس: ج١، ص١٢٤، (جرأ).

(٣) انظر مجمع البيان: ج١٠، ص٢٨٦، تفسير الآية ٦ من سورة الانفطار.

(٤) مفردات الراغب: ص٣١٥، (ظلم)؛ مجمع البحرين: ج٦، ص١٠٩-١١٠، (ظلم).

(٥) سورة لقمان: الآية ١٣.

(٦) سورة آل عمران: الآية ٥٧؛ والآية ١٤٠.

(٧) سورة الشورى: الآية ٤٢.

(٨) سورة فاطر: الآية ٣٢.

(٩) سورة النمل: الآية ٤٤، سورة القصص: الآية ١٦.

لأنها منشؤه، وإليها تعود عواقبه، ومن هنا قال سبحانه: ﴿**وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾[١] وحيث إن التغاير اعتباري لا يرد السؤال كيف يكون الظالم مظلوماً.

وفي الحديث الشريف: «ألا وإن الظلم ثلاثة: فظلم لا يغفر، وظلم لا يترك، وظلم مغفور لا يطلب، فأما الظلم الذي لا يغفر فالشرك بالله تعالى... وأما الظلم الذي يغفر فظلم العبد نفسه عند بعض الهنات - يعني صغائر الذنوب- وأما الظلم الذي لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضاً»[٢] والمراد به المعنى اللغوي أي مجاوزة الحد ووضع الشيء في غير موضعه، وهو ملازم للحياة البشرية، ولا تنفك عنه. إما للجهل أو للضرورات الموجبة للاستباق إلى المصالح ودفع المضار، فقوله لا يترك أي قهراً أو اختياراً، وهذا غير الظلم الاصطلاحي الذي يتعمد فيه الإنسان العدوان على غيره وانتقاص حقه أو غصبه إيّاه. فإنه ذنب عظيم، يؤاخذ عليه فاعله.

ومنه يعرف أن كبائر الذنوب والإصرار على صغائرها لا يغفر ما لم يتب العبد ويرجع إلى رشده وربه، وأول درجات التوبة هو الإقرار بالذنب والاعتراف بالمعصية، ولهذا قال: «ظلمت نفسي وتجرأت بجهلي».

والجهل الذي يسبب الجرأة والعصيان لا يخلو إما أن يكون قصورياً كما لو كان العبد جاهلاً بالحكم أو الموضوع، وهو مضمون العفو والمغفرة؛ لأن

---

(١) سورة النحل: الآية ٣٣.

(٢) نهج البلاغة: ص٢٥١، الخطبة ١٧٦؛ مجمع البحرين: ج٦، ص١١٠، (ظلم).

الباري عزّ وجل وعد العصاة القاصرين بالمغفرة بشرط المبادرة إلى التوبة إذا علموا؛ إذ قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾[١] وإما أن يكون تقصيرياً بسبب غلبة الشهوة فيكون الذنب متعمداً، وأو بسبب الجهل الاختياري بالتقصير في مقدمات العلم، وقوله عليه السلام: «وتجرأت بجهلي» ناظر إليه، ولا يغفر إلّا بالتوبة والاقرار والركون إلى حسن الظن به سبحانه فالفقرة الشريفة تشير إلى أمرين هما من أهم وسائل التقرب واستنزال الرحمة وضمان المغفرة:

الأول: الاعتراف بالذنب والخطأ، فإن الاعتراف بالذنب فضيلة، ومن اعترف بالذنب كان كمن لا ذنب له لأنه حقق غاية التوبة؛ وقد ورد في الأخبار: «والله ما ينجو من الذنب إلّا من أقرّ به»[٢] وكذلك: «لا والله ما أراد الله عزّ وجل من الناس إلّا خصلتين: أن يقرّوا بالنعم فيزيدهم، وبالذنوب فيغفرها لهم»[٣].

وفي كتاب تذكرة الأولياء: عن الصادق عليه السلام: «أنّ كل معصية أوّلها خوف وآخرها عذر تقرّب العبد إلى ربّه، وأي طاعة أولها أنانية وآخرها عجب تبعد العبد عن ربه فإن المطيع مع العجب عاص، والعاصي مع العذر مطيع»[٤]. وهو جملة خبرية في مقام الإنشاء يتضمن البعث نحو

---

(١) سورة النساء: الآية ١٧.

(٢) الكافي: ج٢، ص٤٢٦، ح١؛ مرآة العقول: ج١١، ص٢٨٢، ح١.

(٣) الكافي: ج٢، ص٤٢٦، ح٢؛ مرآة العقول: ج١١، ص٢٨٣، ح٢.

(٤) تذكرة الأولياء: ص٣٧.

التوبة من الذنوب؛ لأن التوبة مقربة من الرب تبارك وتعالى، وبعكسها الطاعة مع العجب.

ومن هنا نعلم بعض السر في كثرة إقرار الأنبياء والأولياء واعترافهم بالذنوب وإن كانوا معصومين، ووردت عنهم توجيهات متضافرة في هذا الشأن.

فعن أبي الحسن موسى عليه السلام قال لبعض ولده: «يا بنيَّ عليك بالجد لا تخرجنّ نفسك من حدّ التقصير في عبادة الله عزّ وجل وطاعته، فإن الله تعالى لا يعبد حقّ عبادته»(١).

والمعنى عدّ نفسك مقصرّاً في طاعة الله وإن بذلت الجهد فيها، فإن الله لا يمكن أن يعبد حق عبادته مهما عمل العبد.

وعن جابر قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام: «يا جابر، لا أخرجك الله من النقص ولا التقصير»(٢) وهو دعاء له بداعي الإنشاء، والمعنى وفّقك الله لأن تعدّ عبادتك ناقصة ونفسك مقصّرة أبداً؛ لأن المقصر يسعى لمكافأة التقصير بالعمل والتقرّب إلى ذي الحق فيكون طريقاً لعلو درجاته ومحو سيئاته.

وعن الحسن بن الجهم قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: «إنّ رجلاً في بني إسرائيل عبد الله أربعين سنة، ثمّ قرّب قرباناً فلم يقبل منه، فقال

---

(١) أمالي الطوسي: ص٢١١، ح٣٦٧؛ الكافي: ج٢، ص٧٢، ح١؛ مرآة العقول: ج٨، ص٤٥، ح١.

(٢) الكافي: ج٢، ص٧٢، ح٢؛ مرآة العقول: ج٨، ص٤٦، ح٢.

لنفسه: ما أتيت إلّا منك، وما الذنب إلّا لك، قال: فأوحى الله تبارك وتعالى إليه ذمّك لنفسك أفضل من عبادتك أربعين سنة»[(١)].

وعن أبي الحسن عليه السلام قال: «أكثر من أن تقول: اللهّم لا تجعلني من المعارين، ولا تخرجني من التقصير» قال: قلت فما معنى لا تخرجني من التقصير؟ فقال: «كل عمل تريد به الله عزّ وجل فكن فيه مقصّراً عند نفسك، فإن الناس كلّهم في أعمالهم فيما بينهم وبين الله مقصّرون إلّا من عصمه الله عزّ وجل»[(٢)] والمستثنى هم الأنبياء والأوصياء عليهم السلام، فإنهم لا يقصّرون في شرائط الطاعة بحسب الإمكان وإن كانوا هم أيضاً يعدّون أنفسهم مقصّرين إظهاراً للعجز والنقصان تأدباً أو حقيقة، لما يرون من قصور أعمالهم في جنب ما أنعم الله عليهم من الفضل والإحسان.

وفي وصايا لقمان لابنه: «يا بني اجعل خطاياك بين عينيك إلى أن تموت، وأما حسناتك فاله عنها، فإنه قد أحصاها من لا ينساها»[(٣)].

وكان أحدهم من العبّاد فأطال يوماً صلاته ثم التفت فرأى رجلاً ينظر إليه بعين الرضا والغبطة، فقال له: لا يعجبك ما رأيته منّي، فإنّ إبليس قد عبد الله تعالى مع الملائكة مدة طويلة، ثم صار إلى ما صار، وسئل بعضهم متى يكون المؤمن مسيئاً؟ فقال: إذا ظن أنه محسن[(٤)].

---

(١) الكافي: ج٢، ص٧٣، ح٣؛ مرآة العقول: ج٨، ص٤٦، ح٣.

(٢) الكافي: ج٢، ص٧٣، ح٤؛ مرآة العقول: ج٨، ص٤٧، ح٤.

(٣) كشكول البهائي: ج٢، ص٢٦٢.

(٤) كشكول البهائي: ج٢، ص٢٧٨، (بتصرف).

الثاني: السكون إلى إحسان المولى وإنعامه وإكرامه، والوثوق برحمته وفضله. قال عليه السلام: «سكنت إلى قديم ذكرك لي ومنّك عليّ» وقد دلّت الأخبار على محبوبية هذه المنزلة عند الله سبحانه، وورد الندب إليها في قوله سبحانه: «برحمتي فليثقوا»[١] وفي قوله تعالى: ﴿**يا أَيُّهَا الإنسان مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ**﴾[٢] وصف نفسه بالكرم مع أن العقاب يناسب القهّاريّة والقدرة؛ للدلالة على سعة العفو والرحمة.

والمعنى أي شيء غرّك بخالقك وخدعك وسوّل لك الباطل حتى عصيته وخالفته؟

وفي المجمع قيل لبعضهم: لو أقامك الله يوم القيامة بين يديه، فقال: ما غرّك بربك الكريم؟ ماذا كنت تقول له؟ قال: أقول: غرّني ستورك المرخاة.

وقال آخر: لو أقامني الله بين يديه فقال: ما غرّك بي؟ قلت: غرّني بك برّك بي سالفاً وآنفاً.

وعن بعضهم قال: غرني حلمك.

وعن رابع: غرّني كرم الكريم، وإنّما قال سبحانه الكريم دون سائر أسمائه وصفاته؛ لأنه كأنه لقّنه الإجابة حتى يقول: غرّني كرم الكريم[٣].

---

(١) الكافي: ج٢، ص٧١، ح١.

(٢) سورة الانفطار: الآية ٦.

(٣) مجمع البيان: ج١٠، ص٢٨٦، تفسير الآية ٦ من سورة الانفطار.

والكل وجيه، ولعل جامعها حسن الظن بالله تبارك وتعالى، وهو ما نطقت به الأخبار المستفيضة، فعن الرضاعليه السلام: «أحسن الظن بالله فإنّ الله عزّ وجل يقول: أنا عند ظن عبدي المؤمن بي إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً»[١].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «والذي لا إله إلّا هو لا يحسن ظن عبد مؤمن بالله إلّا كان الله عند ظن عبده المؤمن؛ لأن الله كريم بيده الخيرات. يستحي أن يكون عبده المؤمن قد أحسن به الظن ثم يخلف ظنه ورجاءه، فأحسنوا بالله الظن، وارغبوا إليه»[٢].

وفي دعاء أبي حمزة إشارات إلى هذا المعنى، فقد ورد فيه: «وقد قصدت إليك بطلبتي، وتوجّهت إليك بحاجتي، وجعلت بك استغاثتي، وبدعائك توسّلي من غير استحقاق لاستماعك منّي، ولا استيجاب لعفوك عنّي، بل لثقتي بكرمك، وسكوني إلى صدق وعدك، ولجائي إلى الإيمان بتوحيدك، ويقيني بمعرفتك منّي أن لا ربّ لي غيرك، ولا إله إلّا أنت وحدك لا شريك لك، اللهمّ أنت القائل وقولك حق ووعدك صدق ﴿**وَاسْأَلُواْ اللهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا**﴾[٣] وليس من صفاتك يا سيدي أن تأمر بالسؤال وتمنع العطيّة وأنت المنان بالعطيّات على أهل مملكتك، والعائد عليهم بتحنن رأفتك. إلهي ربّيتني في نعمك وإحسانك صغيراً، ونوّهت

(١) الكافي: ج٢، ص٧٢، ح٣.

(٢) الكافي: ج٢، ص٧١-٧٢، ح٢.

(٣) سورة النساء: الآية ٣٢.

باسمي كبيراً، فيا من ربّاني في الدنيا بإحسانه وتفضّله ونعمه، وأشار لي في الآخرة إلى عفوه وكرمه»[١].

والظاهر أن قوله: «قديم ذكرك» كناية عن ابتداء الخلق، وذكر الله سبحانه لعبده يتم بإيجاده من العدم. قال تعالى: ﴿**هَلْ أَتَى عَلَى الإنسان حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا**﴾[٢] أو بالإنعام إليه وتيسيره لمصالحه وغاياته. قال تعالى: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾[٣].

والقدم: إما كناية عن الإحاطة العلمية به فإن عدم وجود الشيء بذاته لا يمنع من إحاطة علم الخالق به، أو كناية عن إحاطة القدرة به، وكلاهما مروي، ففي المجمع عن أبي جعفرعليه السلام وأبي عبد اللهعليه السلام في تفسير آية الدهر: «كان مذكوراً في العلم ولم يكن مذكوراً في الخلق»[٤] وعن حمران بن أعين عنهعليه السلام: «كان شيئاً مقدوراً ولم يكن مكوناً»[٥] أي مقدوراً من حيث الإمكان الذاتي ولمّا تتعلق بإيجاده الإرادة.

أو إشارة إلى عالم الذر الذي خلقت فيه الأرواح قبل حلولها في الأبدان، أو كناية عن خلقه وإيجاده في عالم الأصلاب ثم الأرحام ثم أطوار النشأة المختلفة في الدنيا، وإطلاق الجملة يتحملها بعد عدم المانع.

---

(١) المصباح: ص٥٨٩-٥٩٠؛ وانظر إقبال الأعمال: ج١، ص١٥٨.

(٢) سورة الإنسان: الآية ١.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٥٢.

(٤) مجمع البيان: ج١٠، ص٢١٣، تفسير الآية ١ من سورة الإنسان.

(٥) المصدر نفسه.

﴿وَمَنِّكَ عَلَيَّ﴾

المنن الإلهية

المن في اللغة: الإنعام والعطاء، وقيل: الإحسان إلى من لا يستثيبه ولا يطلب الجزاء عليه. يقال: مَنّ عليه أي أنعم عليه، والاسم المنّة[١]، وتقع على وجهين:

أحدهما: عملي، وهو الإنعام على الغير بالفعل والعمل، ومنه قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ**﴾[٢] وقوله سبحانه: ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً**﴾[٣] حيث أطلق المنّة على الإرسال في الأولى، وجعل الأئمة الوارثين في الثانية، وكلاهما إنعام وتفضّل على الخلق، والمروي في التأويل يدل عليه[٤].

ثانيهما: قولي، وهو إظهار الإنعام على الغير بالقول وتعظيمه وتذكيره به، وهذا الوجه ليس بقسيم للأول، بل من مراتبه.

فإن صدر في مورده ومن أهله كان حسناً ممدوحاً، ويختص ذلك بالله سبحانه مطلقاً وبغيره في مورد كفران النعمة تقريعاً أو تذكيراً وحجة، وهو أحد المعنيين في قول مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «لقد مننت على أهل البصرة

---

(١) انظر لسان العرب: ج١٣، ص٤١٧، (منن)؛ مجمع البحرين: ج٦، ص٣١٨، (منن)؛ تاج العروس: ج١٨، ص٥٤٦، (منن).

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٦٤.

(٣) سورة القصص: الآية ٥.

(٤) انظر تأويل الآيات الطاهرة: ص٤١٣-٤١٤، تفسير الآية ٥ من سورة القصص.

كما منّ رسول الله على أهل مكة»[١] لكونهم لم يشكروا نعمتي النبوة والإمامة بالطاعة، ومن هنا اشتهر بينهم: إذا كفرت النعمة حسنت المنّة[٢]، والمنّان من أسماء الله الحسنى؛ لأنه المعطي ابتداءً وفي حديث أمير المؤمنينعليه السلام سئل عن الحنّان والمنّان قال: «الحنّان هو الذي يقبل على من أعرض عنه، والمنّان هو الذي يبدأ بالنوال قبل السؤال»[٣] وفي دعاء أبي حمزة: «أنت المنان بالعطيات على أهل مملكتك»[٤].

وأما ما يصدر من الناس في غير ذلك فهو قبيح مذموم؛ لكونه تعالياً وانتقاصاً، ومن هنا بطلت الصدقة. قال تعالى: **﴿لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى﴾**[٥] وإنما يبطلانها؛ لأنهما يكشفان عن كونها لم تقع خالصة لوجه الله تعالى.

وفي المجمع عن الصادقعليه السلام: «قال رسول اللهصلى الله عليه وآله: من أسدى إلى مؤمن معروفاً ثم آذاه بالكلام أو منّ عليه فقد أبطل الله صدقته»[٦] ولذا

---

(١) الاحتجاج: ج١، ص٢٧٨.

(٢) انظر تاج العروس: ج١٨، ص٥٤٦، (منن).

(٣) انظر مجمع البحرين: ج٦، ص٢٣٩-٢٤٠، (منن).

(٤) شرح الأسماء الحسنى: ج١، ص٤٩.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٦٤.

(٦) مجمع البيان: ج٢، ص١٨٥، تفسير الآية ٢٦٤ من سورة البقرة.

وجاء في تفسير القمي: ج١، ص٩١-٩٢ في تفسير الآية ٢٦٤ من سورة البقرة.

قال الصادقعليه السلام: «قال رسول اللهصلى الله عليه وآله: من أسدى إلى مؤمن معروفاً ثم آذاه بالكلام أو منَّ عليه أبطل الله صدقته، ثم ضرب الله فيه مثلاً فقال: ﴿كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء

←

→

النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ وقال من أكثر منّه وأذاه لمن يتصدق عليه بطلت صدقته كما يبطل التراب الذي يكون على صفوان، والصفوان الصخرة الكبيرة التي تكون على مفازة فيجيء المطر فيغسل التراب عنها ويذهب به، فضرب الله هذا المثل لمن اصطنع معروفاً ثم أتبعه بالمنّ والأذى﴾.

وقال الصادق عليه السلام: ﴿ما من شيء أحبّ إليّ من رجل سلفَ مني إليه يد أتبعته أختها وأحسنت بها له؛ لأني رأيت منع الأواخر فقطع لسان شكر الأوائل، ثم ضرب مثل المؤمنين: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ قال: مثلهم كمثل جنة، أي بستان في موضع مرتفع ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ أي مطر ﴿فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ أي يتضاعف ثمرها كما يتضاعف أجر من أنفق ماله ﴿ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللهِ﴾ والطلّ ما يقع بالليل على الشجر والنبات.

وقال أبو عبد الله عليه السلام: ﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾ لمن أنفق ماله ابتغاء مرضاة الله، قال: فمن أنفق ماله ابتغاء مرضاة الله ثم امتنّ على من تصدّق عليه كان كما قال الله: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاء فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ قال: الإعصار الرياح، فمن امتنّ على من تصدّق عليه كمن كان له جنة كثيرة الثمار وهو شيخ ضعيف له أولاد صغار ضعفاء فتجيء ريح أو نار فتحرق ماله كله...﴾.

انظر تفسير البرهان: ج١، ص٥٤٢، ح١، في تفسير الآية؛ جاء في تفسير العياشي: ج١، ص١٤٧، ح٤٨٢؛ عن جعفر بن محمد وأبي جعفر عليهما السلام في قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى ...﴾ قال: ﴿نزلت في عثمان، وجرت في معاوية وأتباعهما﴾.

راجع بحار الأنوار: ج٨، ص٢١٧؛ تفسير البرهان: ج١، ص٥٤٣، ح٢؛ التفسير الصافي: ج١، ص٢٩٦، ح٢٦٤.

قالوا: المنة تهدم الصنيعة، وقوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾[1] ورد في الوجهين، فالمنّة منهم بالقول، ومنته سبحانه عليهم بالفعل وهي هدايتهم[2].

والظاهر أنّ بقوله: «ومنّك عليّ» يظهر مقام الرجاء والأمل، حيث أقرّ بأنّ الله سبحانه الذي ابتدأ بالنِعَم قبل استحقاقها وابتدأ بذكر العبد منذ القدم فأعطاه الوجود، ومنحه الحياة، وجعله مذكوراً في هذه الدنيا إبداعاً وابتداءً، وبادره بالمنّ والإحسان بلا سؤال أو دعاء أو مناجاة، فكيف لا يمنحه حياة الآخرة وسعادة الدنيا وقد أقبل عليه يدعوه ويذكره ويناجيه[3]، كما ولأنّه مؤمن بأنّ مولاه مبتدئ بالنعم قبل استحقاقها دفعه

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٧.

(٢) مفردات الراغب: ص٤٧٤(منن)؛ وانظر تاج العروس: ج١٨، ص٥٤٦، (منن)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٨٨٩، (منن)

(٣) الصحيفة السجادية: ص٥٦٧. من دعائهعليه السلام في يوم الجمعة: «يا من أظهر الجميل وستر القبيح، يا من لم يؤاخذ بالجريرة ولم يهتك الستر، يا عظيم العفو، يا حسن التجاوز ... يا عظيم الرجاء، يا مبتدئاً بالنعم قبل استحقاقها، يا ربنا وسيدنا ومولانا...».

وجاء في ص٥٤٢ من دعائه في يوم الأحد: «... أنت الذي جُدْت بالنعم قبل استحقاقها، وأَهَّلْتها بتطوّلك غير مؤهلها، فلم يعزك منع، ولا تكادك إعطاءٌ، ولا نفذ منعك سؤال مُلّحٍ، بل أدررت أرزاق عبادك منك تطوّلاً وتفضّلا...».

وجاء في ص٣٠٩، من دعائهعليه السلام في يوم الفطر: «إلهي وسيدي أنت فطرتني وأبتدأت خلقي لا لحاجة منك إليّ، بل تفضّلاً منك عليّ، وقدّرت لي أجلاً ورزقاً لا أتعدّاهما، ولا ينقصني أحدٌ منهما شيئاً، وكنفتني منك بأنواع النعم والكفاية طفلاً وناشئاً من غير عمل عملته فعلمته مني فجازيتني عليه، بل كان ذلك منك تطوّلاً عليَّ وامتناناً...».

هذا الاعتقاد بربّه لأن يتجرّأ على معصيته؛ لأنه مطمئن بأن المنعم المحسن المبتدئ في إنعامه وإحسانه عفو كريم؛ سيختم عليه بالإنعام والإحسان أيضاً؛ ولولا ذلك لم يبتدئ قبل الاستحقاق، ومن هنا أخذ بتعديد ما ستره الرب الغفور على عبده من القبائح وقابلها بالإحسان والمنن.

﴿اللّهُمَّ مَوْلايَ كَمْ مِنْ قَبيح سَتَرْتَهُ، وَكَمْ مِنْ
فادِح مِنَ الْبَلاءِ أَقَلْتَهُ (أَمَلْتَهُ) وَكَمْ مِنْ عِثار
وَقَيْتَهُ، وَكَمْ مِنْ مَكْرُوه دَفَعْتَهُ، وَكَمْ مِنْ ثَناءٍ
جَميلٍ لَسْتُ أَهْلاً لَهُ نَشَرْتَهُ﴾

أصناف المنن الإلهية

في هذه العبارات تفصيل للمنن الإلهية على العبد لذا ابتدأ بقوله: ﴿**اللهمّ مولاي**﴾ التي تدل على دعاء المحتاج الخاضع والملتجئ، وقال: (مولاي) ولم يقل: (يا الله) أو (غيره) من الأسماء؛ لأن المقام مقام الولاية والتصرف في شؤون العبد، وحيث إنه يريد تبديل الحال إلى الأحسن بستر القبائح ونشر المحاسن وهذه من شؤون الولي دعاه من هذه الجهة والحيثية، وأخذ بتعديد المنن عليه.

ومن لطائف ما ورد فيها أنها اشتملت على جهتي التخلية والتحلية معاً، فدلت على كمال الطلب، فمن نعم التخلية: ستر القبائح ورفع البلايا النازلة بسبب المعاصي وإقالة العثرات والزلات التي تسبب تعاسة الدنيا وشقاء الآخرة وتدفع المكاره.

ومن نعم التحلية -بل لعلها من أهمها في البعدين الإنساني والاجتماعي- حسن السمعة بين الناس؛ بداهة أن حسن السمعة تبارك في عمر الإنسان وفي أعماله وآثاره، وهو يكشف عن حسنها عند الله أيضاً. إما من جهة أن من أحبه الناس دعوا له، وظنوا به خيراً، والله سبحان يجيب دعوة المؤمنين في حق إخوانهم، ويكون عند حسن ظنهم كما في متضافر الأخبار الشريفة، أو من جهة كاشفية ذلك عن حسن نواياه وطيب خلائقه وكمالاته، وهي تكشف عن حب الله سبحانه له، أو من جهة أن حب الناس للعبد دليل على توفيق الله سبحانه له؛ بداهة أن مدح الإنسان والثناء عليه وحسن سمعته من التوفيقات الإلهية التي تسدد العبد وتؤيده في أفعاله وأقواله

فيكون كاملاً في صفاته، جميلاً في أفعاله وآثاره، وكيف كان فقد تضمنت الفقرات المزبورة أموراً:

الأول: قوله: (مولاي) فيه دلالتان على سر من الأسرار الإلهية في الدعاء.

الأولى: بلاغية، وهي حسن تعيين جهة الخطاب مع الله سبحانه؛ لتعدد أسمائه وصفاته، وهي عين ذاته، فلا يحسن أن يدعوه لطلب العلم من جهة الكرم، ولا لطلب المال من جهة الحلم، ولا لشفاء المرض من جهتيهما.

الثانية: عرفانية، من جهة أن خزائن الله سبحانه لها مفاتيح، ومفاتيحه الدعاء بأسمائه وصفاته المناسبة، ولكي يحقق الداعي غايته ويضمن إجابة دعوته عليه أن يطرق أبواب السماء من جهاتها الخاصة، فخزائن العلم مفتاحها (يا عالم) وما يشابهه في المعنى والأثر، وخزائن الثروة والمال مفتاحها (يا كريم) وما أشبه، وإلّا لرد دعاؤه ولم تفتح له أبوابه، وهذا أحد أسرار بطء استجابة بعض الأدعية أو تأخرها أو ردها، وهو ما تقتضيه حكمة الدعاء وأدبه، فكما أن الإنسان في شؤونه الخاصة لا يطلب العلم من البقال بل من المعلم ولا الشفاء من المعلم بل من الطبيب فكذلك الدعاء وإظهار الفقر والحاجة إلى المولى الغني الذي هو عين جميع الكمالات والفضائل، فالذي يطلب الشفاء يجب أن يسأله من جهة كونه الشافي المعافي لا من جهة كونه العزيز المنتقم، وإليه يشير قول الباري عز وجل: ﴿**وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا**﴾[1] والمعنى أن كل غاية ومقصود له طريق وباب يوصل

(١) سورة البقرة: الآية ١٨٩.

إليه، فلو ورد الداخل من غير ذلك الوجه تعذر عليه الوصول، وهو ما قرره الباقرعليه السلام لدى بيان معنى الآية. قالعليه السلام: ﴿يعني أن يأتي الأمر من وجهه أي الأمور كان﴾[١] فلو جاء من غير ذلك لم يبلغ المقصود، ويعززه ما ورد متضافراً عن النبيصلى الله عليه وآله: ﴿أنا مدينة العلم وعلي بابها، وهل تدخل المدينة إلّا من بابها﴾[٢] ومعناه لو أتى من غيره لم يصل، وبه وردت روايات كثيرة[٣]، وما يقال في العلم يقال في الدعاء؛ لوحدة الضابطة والملاك.

ومن ذلك يظهر بعض السر في قوله (مولاي) دون غيره؛ بداهة أن ما تبعه من مسائل ترجع إلى خزائن القدرة والتدبير من جهة القرب والدنو الخاص أي الولاية لا من كل جهة، فلذا توسّل بها، سواء كان الولي بمعنى: القريب من الولي بتسكين اللام[٤]، أو الناصر، أو الذي يدبر الأمر[٥]، أو غير ذلك من معان تناسب الحال[٦]؛ لاشتراكها في الجامع وهو الأولى بالتصرف والتدبير، والولي من أسمائه سبحانه، وهو المتولي لأمور الخلائق القائم بها، وأما القرب فهو العلة لذلك؛ للزوم إحاطة المدبر بشؤون المدبر وقربه منه كما هو الشأن في كل علة ومعلول.

---

(١) المحاسن: ج١، ص٢٢٤، ح١٤٣.

(٢) أمالي الصدوق: ص٤٢٥، ح٥٦٠.

(٣) أمالي الصدوق: ص٤٣٤، ح٥٧٤، وفيه: ﴿أنا دار الحكمة وعلي مفتاحها﴾؛ وانظر العمدة: ص٢٨٥، وفيه: ﴿أنا دار الحكمة وعلي بابها﴾.

(٤) مجمع البحرين: ج١، ص٥٤، (ولا)؛ مفردات الراغب: ص٥٣٣، (ولي).

(٥) المصدر نفسه: ص٤٥٥.

(٦) انظر مجمع البيان: ج٣، ص٣٥٩، تفسير الآية ٥٥ من سورة المائدة.

وستر القبائح وإنقاذ العبد من أخطائه وتعويضه بنشر محاسنه ترجع إلى ولايته عليه وقدرته على التصرف في شؤونه، وذلك يتوقف على قرب العبد من ربه وانقطاعه إليه، وفي الحديث القدسي أن موسى عليه السلام قال: ﴿إنّ لي في كشكول الفقر ما ليس في خزانة سلطنتك، فسأله وما هو يا موسى؟ قال: أنت لي موجود، ومثلك لك مفقود﴾(١).

وفي ترديد هذه الكلمة (مولاي) دلالة كبيرة على العبودية وكمال الانقطاع، وفيها لذة عظيمة يحصلها الداعي والمناجي إذا كررها واستشعر دلالاتها، ومن هنا ترددت في المناجاة كثيراً(٢).

---

(١) شرح الأسماء الحسنى: ج١، ص١٢٣.

(٢) جاء في الصحيفة السجادية: ص٣٨٦، من دعائه عليه السلام في التذلل:

﴿مولاي مولاي أنت المولى وأنا العبد، وهل يرحم العبد إلّا المولى؟

مولاي مولاي أنت العزيز وأنا الذليل، وهل يرحم الذليل إلّا العزيز؟

مولاي مولاي أنت الخالق وأنا المخلوق، وهل يرحم المخلوق إلّا الخالق؟

مولاي مولاي أنت المعطي وأنا السائل، وهل يرحم السائل إلّا المعطي؟

مولاي مولاي أنت المغيث وأنا المستغيث، وهل يرحم المستغيث إلّا المغيث؟

مولاي مولاي أنت الباقي وأنا الفاني، وهل يرحم الفاني إلّا الباقي؟

مولاي مولاي أنت الدائم وأنا الزائل، وهل يرحم الزائل إلّا الدائم؟

مولاي مولاي أنت الحي وأنا الميت، وهل يرحم الميت إلّا الحي؟

مولاي مولاي أنت القوي وأنا الضعيف، وهل يرحم الضعيف إلّا القوي؟

مولاي مولاي أنت الغني وأنا الفقير، وهل يرحم الفقير إلّا الغني؟

مولاي مولاي أنت الكبير وأنا الصغير، وهل يرحم الصغير إلّا الكبير؟

مولاي مولاي أنت المالك وأنا المملوك، وهل يرحم المملوك إلّا المالك؟﴾.

وفي عدة الداعي عن النبي الأعظمﷺ: «أن جبرائيل نزل عليه بهذا الدعاء من السماء، ونزل عليه ضاحكاً مستبشراً، فقال: السلام عليك يا محمدﷺ. قال: وعليك السلام يا جبرئيل، فقال: إنّ الله عزّ وجل بعث إليك بهدية، فقال: وما تلك الهدية يا جبرئيل؟ فقال: كلمات مع كنوز العرش أكرمك الله بها. قال: وما هنّ يا جبرئيل؟ قال: قل: يا من أظهر الجميل وستر القبيح، يا من لم يؤاخذ بالجريرة، ولم يهتك الستر، يا عظيم العفو يا حسن التجاوز، يا واسع المغفرة، يا باسط اليدين بالرحمة، يا صاحب كل نجوى، ويا منتهى كل شكوى، يا كريم الصفح، يا عظيم المن، يا مبتدئاً بالنعم قبل استحقاقها، يا سيدنا يا ربنا يا مولانا يا غاية رغبتنا أسألك يا ألله أن لا تشوّه خلقي بالنار.

فقال رسول اللهﷺ لجبرئيل: ما ثواب هذه الكلمات؟ قال: هيهات هيهات انقطع العمل، لو اجتمع ملائكة سبع سماوات وسبع أرضين على أن يصفوا ثواب ذلك إلى يوم القيامة ما وصفوا من كل جزءٍ جزءاً واحداً، فإذا قال العبد: (يا من أظهر الجميل وستر القبيح) ستره الله ورحمه في الدنيا، وجمّله في الآخرة، وستر الله عليه ألف ستر في الدنيا والآخرة.

وإذا قال: (يا من لم يؤاخذ بالجريرة ولم يهتك الستر) لم يحاسبه الله يوم القيامة، ولم يهتك ستره يوم تهتك الستور، وإذا قال: (يا عظيم العفو) غفر الله له ذنوبه ولو كانت خطيئته مثل زبد البحر، وإذا قال: (يا حسن التجاوز) تجاوز الله عنه حتى السرقة وشرب الخمر وأهاويل الدنيا وغير ذلك من الكبائر، وإذا قال: (يا واسع المغفرة) فتح الله عزّ وجل له سبعين

باباً من الرحمة، فهو يخوض في رحمة الله عزّ وجل حتى يخرج من الدنيا، وإذا قال: (يا باسط اليدين بالرحمة) بسط الله يده عليه بالرحمة، وإذا قال: (يا صاحب كلِّ نجوى ويا منتهى كلِّ شكوى) أعطاه الله من الأجر ثواب كل مصاب وكل سالم وكل مريض وكل ضرير وكل مسكين وكل فقير وكل صاحب مصيبة إلى يوم القيامة، وإذا قال: (يا عظيم المن) أعطاه يوم القيامة منيته ومنية الخلائق.

وإذا قال: (يا كريم الصفح) أكرمه الله تعالى كرامة الأنبياء، وإذا قال: (يا مبتدئاً بالنعم قبل استحقاقها) أعطاه الله من الأجر بعدد من شكر نعماه، وإذا قال: (يا ربنا ويا سيدنا) قال الله تبارك وتعالى: شهدوا ملائكتي أني قد غفرت له وأعطيته من الأجر بعدد من خلقته في الجنة والنار والسماوات السبع والأرضين السبع والشمس والقمر والنجوم وقطر الأمطار وأنواع الخلق والجبال والحصى والثرى وغير ذلك والعرش والكرسي، وإذا قال: (يا مولانا) ملأ الله قلبه من الإيمان، وإذا قال: (يا غاية رغبتاه) أعطاه الله يوم القيامة رغبته ومثل رغبة الخلائق، وإذا قال: (أسألك يا ألله أن لا تشوه خلقي بالنار) قال الجبار جلّ جلاله: استعتقني عبدي من النار اشهدوا ملائكتي أنّي قد أعتقته من النار، وأعتقت أبويه وإخوانه وأهله وولده وجيرانه، وشفَّعته في ألف رجل ممن وجبت لهم النار، وأجرته من النار، فعلّمهن يا محمد المتقين، ولا تعلمهن المنافقين، فإنها دعوة مستجابة لقائلهن إن شاء الله تعالى»[1].

(١) عدة الداعي: ص٣١٥-٣١٦.

الثاني: القبائح التي سترها تعود إلى صفات النفس كما يستفاد من المعنى اللغوي وقرينة السياق، فإن المعنى المناسب للقبح هنا ما تنبو عنه النفس من الأعمال والأحوال[١]،و (كم) خبرية كناية عن الكثير، و(من قبيح) بيانية للجنس ومن أجلى مصاديقه الشرور والنواقص التي تظهر آثارها في الأفعال والأحوال، وهي من ملازمات النفس الإنسانية؛ لكونها مجبولة على الخير والشر معاً، وتظهر مقامات الناس وتتمايز في الفضل والدرجات بانعكاسها على الأفكار والأعمال والأقوال، ولذا تحتاج القبائح منها إلى ستر وتغطية، وذلك يتحقق بتبديل المساوئ إلى محاسن بتغيير صفات النفس، وهي تكسب الإنسان كمالاً، فإن كان التبديل من العبد نفسه كان الغفران والإقالة بالاستحقاق؛ لرجوعه إلى اقتضاء المقتضي، وإن كان من الله سبحانه عفواً وغفراناً كان بالفضل والمنة، وإن تحقق بستر أثر القبيح من الخارج دون أن ينعكس على صفاته وملكاته كان بالامتنان دائماً.

ومن لطفه وامتنانه بعبده ما ورد عن الصادق عليه السلام أنه سبحانه جعل على كل عبد من عباده أربعين جُنّة تستره، وتغطي مساوئه، فإذا فعل كبيرة هتك منها جُنّة، وكل كبيرة يفعلها يهتك جُنة منها حتى يزيلها جميعاً، فيبقى مهتوك الستر، فينفضح في السماء على ألسنة الملائكة، وفي الأرض على ألسنة الناس[٢].

---

(١) مفردات الراغب: ص٣٩٠، (قبح)؛ وانظر مجمع البحرين: ج٢، ص٤٠٢، (قبح).
(٢) الاختصاص: ص٢٢٠؛ البحار: ح٧٠، ص٣٦١، ح٨٧، (بتصرف).

وورد أنه إذا وقع في بغض آل محمد عليهم السلام يبقى بلا ستر ولا حجاب، ويقول تعالى للملائكة لو كان فيه خير لما تركته من يدي[١].

الثالث: أنّ إقالة البلاء من مظاهر ستر القبائح، والبلاء الفادح في اللغة الاختبار الثقيل[٢]، ويحتمل هنا المعنى الحقيقي كما يحتمل المجازي. أما الأول فواضح، وأما الثاني فالمراد منه المعصية من باب تسمية المسبب باسم السبب، والإقالة الموافقة عن نقض البيع والمساحة[٣]، والبلاء المقال على المعنى الأول منهما[٤] من مظاهر ستر القبائح ومسبباتها، ورفع المسبب يتم برفع السبب.

والمراد رفع اختبار العبد وامتحانه؛ لأن به تظهر عيوب نفسه وقبائحها، فإنه عند الامتحان يكرم المرء أو يهان، وإنما طلب الرفع بالإقالة؛ لأنه سبحانه كتب على نفسه ابتلاء العباد وتمحيصهم في مثل قوله سبحانه: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ**﴾[٥] وقال عزّ وجل: ﴿**وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً**﴾[٦] وكان عزّ وجل عهد على نفسه ذلك، وجاء السؤال لنقض ذلك العهد ورفعه؛ ليكون العبد مفروغاً من الاختبار فيقبله ربه معفواً عنه.

---

(١) أسرار العارفين: ص٢٠٥.

(٢) انظر مفردات الراغب: ص٦١، (بلي).

(٣) مجمع البحرين: ج٥، ص٤٥٩، (قيل)؛ مفردات الراغب: ص٦٩٠، (قيل).

(٤) أي في الابتلاء والإقالة.

(٥) سور محمد: الآية ٣١.

(٦) سور الأنبياء: الآية ٣٥.

وعلى المعنى الثاني هو طلب العفو والسماح عن المعصية، وقد وصف في لسان الروايات والأدعية بإقالة العثرة، أي العفو عن الخطيئة ورفع الذنب، وكأنه لم يقع، والتعبير بالإقالة هنا لا يخفى من لطف؛ لأنها تشير إلى رفع آثار المعصية وتنزيلها منزلة عدم الوقوع وليس رفع العقاب فقط.

وتظهر الثمرة في الآثار الوضعية للذنب وانعكاسها على نورانية القلب وصفاء النفس.

وربما يراد التفكيك بين العثرة وجزائها؛ بداهة أن الواقع معقود على ملازمة الجزاء للعثرة، فكل عثرة لها جزاء يماثلها أو يناسبها على الخلاف في حقيقة تجسم الأعمال، وبالإقالة يطلب نقض هذا الواقع المقصود؛ لتكون العثرة خالية من الجزاء في الماضي والمستقبل، وبذلك تكون قبائح العبد بالمعنيين مستورة، والقول بإرادة الكل غير بعيد؛ لوجود المقتضي وانعدام المانع فتأمل.

الرابع: وقاية العثار يقابل ما تقدم؛ لكونه من صفات الفعل، والعثار -بالكسر- السقوط، ومنه العثرة، وهي الزلة والخطيئة[١].

والوقاية: حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره[٢]، والمعنى ظاهر، وتتحقق الوقاية بالدفع تارة وبالرفع أخرى، والمعنى على الأول جعل العبد في درع حصين يبعده عن السقوط في العثرات، وعلى الثاني حفظه من آثارها

---

(١) انظر مفردات الراغب: ص٣٢٢، (عثر)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٣٩٦، (عثر).

(٢) مفردات الراغب: ص٥٣٠، (وقى)؛ مجمع البحرين: ج١، ص٤٥٢-٤٥٣، (وقا).

الوضعية والتكليفية بعد ثبوتها؛ لملازمتها للخطايا والذنوب، وعنوان ستر القبائح ينطبق على كليهما بلا مانع شرعي أو عقلي والوقاية تارة تكون لطيفة ربانية ليس للعبد دخل فيها، وهي كثيرة لا تحصى، وربما يجهلها العبد وإنما يتنعم بآثارها، وتارة تكون سببية اختيارية؛ لأنها تكون نتيجة لأفعاله، وأما الفصيحة فلا تكون إلّا سببية؛ لامتناع الأولى في حقه سبحانه، وهو ما دل عليه قول الصادق عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا معشر من أسلم بلسانه ولم يخلص الإيمان إلى قبله، لا تذموا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضح ولو في بيته»[1].

والعورة كل قبيح يتأبى عنه صاحبه استنكافاً أو حياء[2]، وتتبع الله سبحانه لعورة العبد يتحقق إما بإحصائها عليه وعدم سترها و غفرها له فينفضح في السماء والأرض ولو بالغ في سترها في بيته، وإما بتركه وشأنه فيتبع الناس عورته ويفضحونه ولم يدفع عنه ربه جل جلاله؛ لاستحقاقه.

ولعل من هنا عطف عليه قوله: «وكم من مكروه دفعته» بنحو عطف العام على الخاص.

الخامس: المكروه يقال على ثلاثة وجوه:

---

(١) الكافي: ج٢، ص٣٥٤، ح٢.

(٢) معجم مقاييس اللغة: ص٦٩٤، (عور)؛ مفردات الراغب: ص٥٩٥، (عور)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٦٣٦، (عور).

أحدها: المشقة التي تحمل على الإنسان من خارج، وربما يعبَّر عنها بالقهر. ولعل منه قوله سبحانه: ﴿**إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ**﴾[١] وقوله: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ**﴾[٢] فالمكروه ما رفعت آثاره أدلة الرفع كقوله صلى الله عليه وآله: «رفع عن أمتي تسع وعدّ منها ما أكرهوا عليه»[٣].

ثانيها: ما يعافه الإنسان من حيث الطبع.

ثالثها: ما يعافه من حيث العقل أو الشرع، وبين الثاني والثالث عموم من وجه، وكلاهما مع الأول كذلك، والثلاثة تشترك في تضمن معنى القبح، وفي المجمع: كريه مثل قبيح وزناً ومعنىً[٤].

وعليه فالمكروه المدفوع هنا هو القبيح نفساً وعقلاً وشرعاً، ولعل المقصود من دفعه ما يشمل التكويني والتشريعي. أما التكويني فبخلق الطبع البشري بحيث يأبى المكروه ويحب التنزه عن القبيح وإنارة شعلة العقل بحيث يحكم بلزوم اجتنابه، وأما التشريعي فبالحكم بوجوب اجتناب القبيح في بعض مراتبه أو رجحان ذلك، وكذا بجعل التكاليف ميسورة مسهلة على العباد؛ لدفع مزيد الكلفة والمشقة عنهم، وهو جلي في مثل أدلة الرفع الشاملة لأكثر الأحكام الشرعية. قال تعالى: ﴿**يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ**

---

(١) سورة النحل: الآية ١٠٦.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢١٦.

(٣) البحار: ج٧٤، ص١٥٣، ح١٢٣.

(٤) مجمع البحرين: ج ٦، ص٣٥٩، (كره)؛ وانظر تاج العروس: ج١٩، ص٨٧، (كره).

الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[١]، وقال تعالى: **﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾**[٢]، وربما يراد من المكروه النوازل والشدائد، ومنه قولهم: (مكاره الدهر) وقولهم للسيف: (ذو الكريهة) وللحرب: (الكريهة)[٣].

والمعنى فيه ظاهر، كما أن اختصاصه بالتكوين جلي، ولا يجري في التشريع إلّا بضرب من التقدير وجعل الوسائط، وكونه من النعم الإلهية أوضح من أن يخفى، وبه اختتم السؤال في التخلية ولا يخفى أن دفع المكروه كالوقاية تارة يكون لطفياً وتارة اختيارياً، وقد عرفت الأول، وأما الثاني فيقع بالأفعال التي يقوم بها العبد الموجبة لدفع المكروه عنه، وقد دلت الآيات والروايات على بعضها:

منها: الأذكار والأوراد والأدعية والأحراز، فأن لكل منها خواص وآثاراً بعضها إفاضية توجب نزول النعم، وبعضها احترازية توجب دفع البلاء والنقم.

ومنها: قراءة القرآن وحمله وحفظه، فإن لسوره وآياته آثاراً هامة في ذلك كما ورد في الأخبار.

ومنها: زيارة النبي والأئمة والصديقة الطاهرة عليهم السلام ومن بعدهم الأولياء والعلماء الصالحين، فإن لها آثاراً كثيرة في دفع البلاء والهموم،

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٨٥.

(٢) سورة الحج: الآية ٧٨.

(٣) انظر تاج العروس: ج١٩، ص٨٦-٨٧، (كره).

لاسيما زيارة سيد الشهداءعليه السلام، بل تضافر في الأخبار أن لكل ما يتعلق بهعليه السلام من شؤون آثاراً وبركات عظيمة في كل حوائج الدنيا والآخرة، كإقامة العزاء عليه، والحضور في مجالسه، والاستشفاء بتربته والتبرك بها وحملها والاستعانة بها عند الخوف والمرض والاخطار المختلفة، وقد تواترت القضايا والاخطار العظيمة التي دفع الناس مكروهها بزيارته ومآتمه وتربتهعليه السلام.

ومنها: الصدقة، فقد تضافر في الأخبار أنها تدفع ميتة السوء، وتشفي من الأمراض، وتقي من سبعين نوعاً من البلاء، وتنفي الفقر، وتحصن العبد من عموم المكاره كما لا يخفى على أهل البحث والنظر.

الثناء الجميل

وأما ما يتعلق بالتحلية أي الثناء الجميل فهو إظهار فضل الإنسان وكرامته في الناس بترويج ذكره وتحسين سمعته وشياع صيته، وقولهعليه السلام: ﴿**لستُ أهلاً له**﴾ يرجع إلى وجوه:

أحدها: انعدام المقتضي لذلك؛ لجهة أن ما يكسبه الإنسان من جاه وسمعة بين الناس لا يرجع إلى كفاءاته أو طاقاته فقط، وإنّما يرجع في حقيقته وأسبابه إلى الله سبحانه؛ لأن ما يصيب الإنسان من ذلك يرجع إلى ما أعطاه الله سبحانه من مواهب وقدرات في أصل الخلق، وما أولاه من توفيق وتسديد في استثمار تلك المواهب.

ومن الواضح أن المدح والثناء في ذلك ينبغي أن يعود إلى السبب لا المسبب أو ما وقع منه الأثر، وعلى فرض الاشتراك فإن من يستحق المدح الأكثر والثناء الأكبر هو صاحب التأثير الأقوى وليس إلّا الله سبحانه.

ثانيها: سلّمنا، إلّا أنّ أهليّة المدح والثناء تستدعي صدق النية وإخلاص العمل، وهما من أشق ما يبتلى به العباد في أعمالهم وأقوالهم وخصوصاً ما يتعلق بعباداتهم، والذي يجدي في قبول العمل واستحقاق المدح والثواب عليه ما كان خالصاً لوجهه الكريم سواء قَلّ العمل أو كثر، بل قليل مع الإخلاص خير من كثيره من دونه قال تعالى: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾[١] وعليه فسلب الأهلية نشأ من انعدام الإخلاص أو قلته.

ثالثها: أن الكثير من الأعمال التي يقوم بها العبد يتقاضى في مقابلها الأجر سواء كان في البعد المالي أو الاجتماعي والوجاهي، وهذا الأجر يعطى لما أسداه من عمل وخدمة، وهو ما يستحقه، وأما المدح والثناء الجميل فليس من جزاء العمل ولا من استحقاقه، بل هو فضل يكسبه الإنسان بالمنّة والتوفيق الإلهي.

ولعل من المناسب هنا أن نضرب مثالاً يتضح فيه المعنى. انظر مثلاً أديسون ونيوتن وأرخميدس وأنشتاين وغيرهم من علماء عباقرة أسدوا للبشرية خدمات عظيمة نالوا في قبال ما قدموه احتراماً ووجاهة ومدحاً

---

(١) سورة البينة: الآية ٥.

وربما مالاً كثيراً. فإنه قد يقال فيه إنه جزاء طبيعي لأعمالهم، ولكن الملحوظ أن أجيالاً من البشرية تمدحهم، وتروّج أسماءهم، وتتحدث عنهم وتقتدي بهم حتى في غير ما أسدوه من خدمة، وهذا الشكل من المدح لم يأت من الاستحقاق، بل من المنّة والفضل؛ لعدم موازاة الجزاء للعمل.

ومن هنا ذهب البعض إلى أنّ غير المسلم الملتزم من هؤلاء لا ينال حظاً وافراً في الآخرة؛ لكونه حصل على جزائه في الدنيا، أو كانت نيته ذلك فنال جزاءه على قدر نيّته. هذا في قبال ما قدم من خدمات كبيرة للحياة، فما بالك بمدح أولئك الذين لم يصلوا إلى معشار ما قدمه هؤلاء من أعمال وقاموا به من إنجازات؟

وكيف كان فإن بعض ما يحصله الإنسان من الثناء الجميل من استحقاقه وأكثر ما يحصله ليس من استحقاقه، بل من فضل الله عليه وتوفيقه له، ولذا ساقه في مصاف المنن الإلهية التي تستحق الذكر والشكر.

﴿اللّهُمَّ عَظُمَ بَلائي وَأَفْرَطَ بِي سُوءُ حالي،
وَقَصُرَتْ (قَصَّرَتْ) بِي أَعْمالي، وَقَعَدَتْ بِي
أَغْلالي، وَحَبَسَني عَنْ نَفْعي بُعْدُ أَمَلي (آمالي)،
وَخَدَعَتْنِي الدُّنْيا بِغُرُورِها، وَنَفْسي بِجِنايَتِها
(بِخِيانَتِها) وَمِطالي﴾

معالجة القصور الذاتي للبشر

وفي هذه الفقرات اعتراف وإقرار بالعجز والقصور الذاتي عن شُكر النعم، كما تشهد له مسبوقيتها بالأفعال الماضية الدالة على الوقوع والتحقق[1]، لا المضارعة الظاهرة في النسبة المستمرة إلى الفاعل، والظاهرة في التقصير[2]، والقصور ينشأ من أسباب تعود إلى عدم المقتضي ووجود المانع. أما الأول فلجهة عظم البلاء وسوء الحال وقصور العمل عن بلوغ الشكر، وأما الثاني فلجهة ثقل النفس وتقيّدها بأغلالها، فلذا لا يملك من هذا حاله إلّا الإقرار بالعجز متكلاً على رحمة ربه ولطفه به ليتقبل منه، ويرأف بعجزه.

والظاهر أن ما ورد في هذه الفقرات بمنزلة العلل لما تقدم؛ لأن القصور الذاتي الذي يوقع الإنسان في العصيان والمساوئ يجعله مشمولاً باللطف والرحمة الإلهية، فيقال بلاؤه، وتستر قبائحه وعثراته، وتدفع مكروهاته؛ لأن دأب الرحيم الكريم أن لا يؤاخذ عاجزاً أو يحاسب قاصراً. كيف: ﴿وهو الذي لا يؤاخذ بالجريرة، ولا يهتك الستر﴾[3] و: ﴿لا يؤاخذ أهل الأرض بألوان العذاب﴾[4].

---

(١) حيث قال: (عظم) و: (أفرط) و: (قصرت) و: (قعدت).

(٢) فإن مثل: (يعظم) و: (يفرط) و: (يقصر) ونحوها ظاهرة في أن الفاعل قصّر فيها فوقعت ناقصة فتأمل.

(٣) المزار (لابن المشهدي): ص١٧٢.

(٤) مصباح المتهجد: ص٤٤٨.

وعليه يكون سبب إقالة البلاء الفادح هو عظمه وقصور البشر عن تجاوزه بمفرده، وسبب ستر القبائح هو قصور نفسه عن تجاوزها، ووقاية العثار لقصور العمل عن النجاح في كل الأحوال، وسبب دفع المكروه هو ثقل العبد وتقيده بالأغلال التي تمنعه من تجاوزها وتبديلها إلى محاسن، ومن كان هذا حاله في العجز والضعف لا يملك إلّا الدعاء والاستناد إلى القوي القادر ليخلصه من هذا العناء والفشل.

وعلى هذا المعنى تكون العبارة قد أشارت إلى حقيقة علمية هامة في أخطاء البشر ومساوئهم؛ بداهة أن سوء الحال يظهر على أعمال الإنسان وأقواله فتقصر عن بلوغ الغاية في التوفيق والنجاح، ومنشأ ذلك هو أغلال النفس وقيودها، ومن ذلك يعرف أن أول خطوة ينبغي أن يخطوها الإنسان في طريق سعادته ونجاحه في مختلف شؤون حياته هي نفسه التي بين جنبيه، فإن صلاحها ينعكس على حاله وأحواله، وهي الأخرى تتجلى على أعماله وأقواله، كما يعرف أيضاً الفيصل بين الناجحين والفاشلين في الحياة، وكذا الحد المائز بين المجتمع المتقدم من غيره، وهو أحد المعاني التي أشار إليها قوله تعالى: **﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾**(١) وقوله تعالى: **﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾**(٢) وقوله تعالى: **﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾**(٣) بداهة أن تغيير الأحوال إلى الأحسن وتحصيل النتائج الحسنة

---

(١) سورة الرعد: الآية ١١.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٧.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٨٦.

لا يتم بالمعاجز واليد الغيبية عادة؛ لأن الدنيا والآخرة يقومان على قانون الأسباب والمسببات، وهذه سنة من السنن الإلهية في الوجود.

وعليه فالقصور العلمي والأخلاقي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي في كل أمة يرجع إلى نفسها أولاً، كما أن التغيير والتطوير يبدأ من نفسها أيضاً. وهكذا في مجال الطاعة والعصيان.

ويحتمل أنها تأكيد لما مرّ من الخضوع والتذلل؛ لضمان الإقالة والغفران، والنتيجة واحدة. هذا وقد عرفت معنى البلاء وعظمه فيما تقدم، وأما قوله: ﴿أفرط بي سوء حالي﴾ فالإفراط: مجاوزة الحد. يقال أفرط يفرط إذا أسرف وجاوز الحد[(١)]، وبالتشديد التقصير عن الحد والتأخير فيه[(٢)]، وهما من خصوصيات الجاهلين، وفي حديث مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿لا ترى الجاهل إلّا مفرطاً أو مفرّطا﴾[(٣)].

والحال: أصله الحَوْل، وهو تغيّر الشيء وانفصاله عن غيره، ويختص بالمخلوقات وخاصة الإنسان، ويشمل أموره المتغيرّة في نفسه وجسمه وقنيته[(٤)]، وفي الدعاء: ﴿يا محول الحول والأحوال حوّل حالنا إلى أحسن الحال﴾[(٥)] وفي حديث صفاته تعالى: ﴿لم يسبق له حال حالاً فيكون أولاً

---

(١) مجمع البحرين: ج٤، ص٢٦٤، (فرط)؛ وانظر مفردات الراغب: ص٣٧٧، (فرط).

(٢) المصدران نفسهما.

(٣) نهج البلاغة: ص٤٧٩، قصار الحكم ٧٠.

(٤) انظر مفردات الراغب: ص١٣٧، (حول).

(٥) شرح الأسماء الحسنى: ج١، ص٧٠.

قبل أن يكون آخراً، ويكون ظاهراً قبل أن يكون باطناً﴾[١] دلالة على عدم طرو ذلك عليه سبحانه؛ لأن التغيير والانتقال من خصوصيات الممكن. قال بعض الشارحين: وقد تحقق أن ما يلحق ذاته المقدسة من الصفات اعتبارات ذهنية تحدثها العقول عند مقايسته إلى المخلوقات، ولا سبق لشيء منها على الآخر بالنظر إلى ذاته القدسية، وإلّا لكانت كمالات قابلة للزيادة والنقصان، وبعضها علة للبعض وأشرف، وبعضها معلول للبعض وأنقص بالنظر إلى ذاته تعالى، وذلك من لواحق الإمكان[٢].

وكيف كان، فالمراد (بسوء الحال) سوء النفس لما بها من صفات النقص.

و(قصور الأعمال) هو حبسها وعجزها وعدم بلوغها الهدف على اختلاف الأصل الذي أخذ منه[٣]، ومنه قوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾[٤] أي محبوسات في الحجال، مستورات في القباب، والمعنى أنهن مصونات مخدرات لا يتبذلن، وقد قصرن على أزواجهن فلا يردن بدلاً منهم[٥].

وكيف كان، فالمراد بالقصور هنا الكناية عن سوء حال العبد وقصور أعماله عن أداء حقوق ربه المتعال، فلا تصل إلى غاية في الطاعة، ولا تبيّض

(١) نهج البلاغة: ج١، ص١١٢، الخطبة ٦٥؛ البحار: ج٤، ص٣٠٨، ح٣٧؛ وفيه: (لم تسبق)؛ مجمع البحرين: ج١، ص٦٠١، (حول).

(٢) مجمع البحرين: ج١، ص٦٠١، (حول).

(٣) انظر مفردات الراغب: ص٤٢٠، (قصر)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٤٥٩، (قصر)؛ تاج العروس: ج٣، ص٤٩٤، (قصر)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٧٣٨-٧٣٩، (قصر).

(٤) سورة الرحمن: الآية ٧٢.

(٥) مجمع البيان: ج٩، ص٣٥٢، تفسير الآية المزبورة.

وجهه أو تجعله مقبولاً مرضياً عند ربه، فلا يبقى عنده إلّا رحمته ولطفه.

والأغلال في قوله: ﴿وقعدت بي أغلالي﴾ جمع غل، وهو القيد؛ لكونه يقيّد به فيجعل الأعضاء وسطه[١]، ويطلق على الحديدة التي تجمع يد الأسير إلى عنقه[٢]، والأيدي المغلولة: أي ممنوعة مجعول فيها غل، وفي حديث شهر رمضان: (تغل فيه الشياطين) أي تقيّد وتمنع مما تريد[٣]، ويقال الغل على القيد المادي والمعنوي، وما نحن فيه من قبيل الثاني، وهي المعاصي والقبائح، ومن مراتبه النوايا السيئة وهيمنة الوساوس الشيطانية على بني آدم وعجز الإمكان وقصور الممكن عن الوصول إلى كمالاته من دون إعانة من ربه.

والقصور كناية عن التكاسل في الشيء وعدم التوفيق في أفعال الطاعات، ووجهه أن الأغلال تقيد صاحبها وتجعله قاعداً لا يقدر على النهوض.

وحب الدنيا من أقوى القيود المانعة من عروج الروح إلى معارجها السامية، كما أن من أقوى الموانع هو الانشغال بالفضول وترك الأصول؛ بداهة أن من ينشغل بالفضول يضيع الأصول، وقد اتفق أهل المعرفة على أن فضولات الحياة كبلت البشرية في الماضي والحاضر، وستكبلها في المستقبل، وتمنعها من الترقي المعنوي الكبير مما أفقد الحياة سعادتها وسلامتها، ولعل إليه يشير الحديث: ﴿من حسن إسلام المرء ترك ما لا يعنيه﴾[٤].

هذا والبلاء في الفقرة المزبورة يحتمل معاني:

---

(١) مفردات الراغب: ص٣٦٣، (غلل).

(٢) مجمع البحرين: ج ٣، ص٣٢٥، (غلل).

(٣) مجمع البحرين: ج٣، ص٣٢٦، (غلل)؛ مسند الشاميين: ج٤، ص٤٤، الرقم ٢٦٨٧.

(٤) انظر تحف العقول: ص ٣٩٥؛ مجمع البحرين: ج١، ص٣٠٩، (عنا).

الأول: الابتلاء، أي الامتحان في مثل قوله تعالى: ﴿**إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاء الْمُبِينُ**﴾[١] أي الاختبار والامتحان[٢]، وفي تفسير قوله تعالى: ﴿**وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ**﴾[٣] الابتلاء والبلاء بمعنى واحد. تقول: ابتليته وبلوته بكذا أي امتحنته واختبرته إذا قدمت إليه أمراً، أو أوقعته في حدث فاختبرته بذلك، واستظهرت ما عنده من الصفات النفسانية الكامنة عنده كالإطاعة والشجاعة والسخاء والعفّة والعلم والوفاء أو مقابلاتها، ولذلك لا يكون الابتلاء إلّا بعمل، فإن الفعل هو الذي يظهر الصفات الكامنة من الإنسان[٤].

وكيف كان، فحيث إن امتحانه صعب يستغيث بما هو قوي قادر على نجاته فيسأله المخلص، فتكون العبارة الأولى: ﴿عظم بلائي﴾ شكوى إلى المولى من شدّة الامتحان وصعوبته، وفي نفس الوقت استغاثة للخلاص مع قلّة الزاد وضعف القدرة، فتكون الفقرات التي بعدها شرحاً لحالته من سوء الحال وقصور العمل وزيادة الموانع.

الثاني: الجزاء، وهو نتيجة البلاء من باب تسمية الشيء باسم مسببه للملازمة بينهما؛ وترتب الجزاء على الامتحان، وفيه قوله تعالى: ﴿**هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ**﴾[٥] أي ترى جزاء عملها[٦]، وعليه فهو يشتكي

---

(١) سورة الصافات: الآية ١٠٦.

(٢) مجمع البحرين: ج١، ص٦٠، (بلا).

(٣) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

(٤) انظر تفسير الميزان: ج١، ص٢٦٨، تفسير الآية ١٢٤ من سورة البقرة.

(٥) سورة يونس: الآية ٣٠.

(٦) انظر مجمع البيان: ج٥، ص١٨٢، تفسير الآية المزبورة.

من شدّته بسبب معاصيه وقبائحه التي اعترف بها سابقاً، والعقاب في قبال العمل، وفي نفس الوقت يقرّ بأنه لا شيء عنده يعينه على تخفيف هذا العقاب أو محوه إلّا قبول العذر والمغفرة كما سيأتي التصريح به في الفقرات القادمة؛ إذ حاله سيّء، وأعماله قاصرة عن القبول، وأغلاله وشهواته كثيرة فكيف النجاة؟

الثالث: العقاب وأشده البعد من الله، وهو من ملازمات القصور الذاتي والتقصير الأفعالي؛ لعدم قرب الناقص ذاتاً أو فعلاً من الكامل، وقد بكى آدم عليه السلام من هذا البلاء حتى صار من البكائين[(١)].

---

(١) ورد في كتاب الخصال: ص٢٧٢، ح١٥.

البكاؤون خمسة: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «البكاؤون خمسة: آدم، ويعقوب، ويوسف، وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله، وعلي بن الحسين عليهما السلام، فأما آدم عليه السلام فبكى على الجنة حتى صار في خديه أمثال الأودية، وأما يعقوب فبكى على يوسف حتى ذهب بصره، وحتى قيل له: ﴿تَالله تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ وأما يوسف فبكى على يعقوب حتى تأذى به أهل السجن فقالوا له: إما أن تبكي الليل وتسكت بالنهار وإما أن تبكي النهار وتسكت بالليل، فصالحهم على واحد منهما. أما فاطمة عليها السلام فبكت على رسول الله صلى الله عليه وآله حتى تأذى بها أهل المدينة فقالوا لها: لقد آذيتينا بكثرة بكائك، فكانت تخرج إلى المقابر – مقابر الشهداء– فتبكي حتى تقضي حاجتها ثم تنصرف، وأمّا علي بن الحسين عليه السلام فبكى على الحسين عليه السلام عشرين سنة أو أربعين سنة ما وضع بين يديه طعام إلّا بكى حتى قال له مولى له: جعلت فداك يا ابن رسول الله إني أخاف عليك أن تكون من الهالكين. قال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلى الله وَأَعْلَمُ مِنَ الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ إني ما أذكر مصرع بني فاطمة إلّا خنقتني لذلك عبرة».

الرابع: الذنب من باب تسمية الشيء باسم مسببه، وربما أريد ذلك من الأغلال أيضاً من باب التشبيه والاستعارة؛ لأن الذنب يغل الإنسان ويقيّده بالعقوبة ومن دخول الجنة، أو تشبيهاً بالغل؛ لأن الغل يعذب الإنسان ويمنعه من الحركة فكذلك الذنوب، أو يكون كلاهما بمعنى الذنب ولكن الأغلال الذنوب التي تمنع الإنسان وتقيّده بالعقاب دون الأولى، أو تكون الأولى بمعنى الذنب والأغلال بمعنى الشهوات والانشغالات وموانع التوبة والعمل الصالح التي تغل العبد وتقعده في الأرض.

الخامس: الجهل وعدم المعرفة[1] تعقيباً على قوله: «وتجرّأت بجهلي» ولعل هذ هو المراد من الداء في البيت المنسوب إليه عليه السلام:

دواؤك فيك وما تشعر ... وداؤك منك وما تبصر[2]

وعليه فالداء هو الجهل والدواء هو العلم، ولأن هذا في الأمراض العامة على قول أصبح طلب العلم والمعرفة من الفرائض الواجبة على الجميع، ولهذا استفاض عنه صلى الله عليه وآله: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ألا

---

(١) انظر مفردات الراغب: ص٦١، (بلي).

(٢) دواؤك فيك وما تشعر ... وداؤك منك وما تبصر

وتزعم أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر

وأنت الكتاب المبين الذي ... بأحرفه يظهر المضمر

انظر الوافي: ج٢، ص٣١٩؛ وراجع شرح الأسماء الحسنى: ج٢، ص٨٠.

وإنّ الله يحب بغاة العلم﴾[1] كما أن المراد من العلم ما يتعلق بالمعارف الإلهية المسمى بعلم العقيدة والكلام ونحوه، ولهذا يعدّونه أشرف العلوم؛ لأنه يتكفل بالمبدأ والمعاد[2]، ومن بعده علم الشريعة بأحكامها وآدابها الشاملة للأخلاق والفضائل.

هذا وللعلم الإلهي مرتبتان من الحكم:

الأولى: الوجوب العيني، وهو الباعث على تحصيل العقائد الحقة والإيمان الصحيح، ولهذا قالوا بوجوب الاعتقاد بأصول الدين عن اجتهاد لا تقليد[3].

الثانية: الوجوب الكفائي، وهو الفن الباعث على رد شبهات المبطلين.

أما علم الشريعة فهو أيضاً له مرتبتان في الحكم:

الأولى: العلم بالأحكام الفرعية الأولية عن اجتهاد أو تقليد وهو

---

(١) المحاسن: ج١، ص٢٢٥، ح١٤٦؛ الكافي: ج١، ص٣٠-٣١، ح٥.

(٢) كشف المراد: ص١١.

أما بعد فإن كمال الإنسان إنما هو بحصول المعارف الإلهية وإدراك الكمالات الربانية؛ إذ بصفة العلم يمتاز عن عجم الحيوانات، ويفضّل على الجمادات، ولا معلوم أكمل من واجب الوجود تعالى، والعلم به أكمل من كل مقصود، وإنما يتم بعلم الكلام، فإنه المتكفل بحصول هذا المرام، فوجب على كل مكلف من أشخاص الناس الاجتهاد في إزالة الالتباس بالنظر الصحيح في البراهين، وطلب الحق باليقين....

(٣) انظر شرح الباب الحادي عشر: ص١٩.

واجب عيني في المسائل التي يبتلى بها المكلف في حياته اليومية، مثل الطهارة والصلاة وبعض أحكام العقود والمعاملات ونحو ذلك.

الثانية: العلم بالأحكام الفرعية عن أدلّتها التفصيلية والذي يعبّر عنه بالاجتهاد وهو واجب كفائي[1]، خلافاً للمحكي عن علماء حلب الذين ذهبوا إلى العيني فيه[2]. نعم هو مستحب عيني على عموم المكلفين. نعم يكون الاجتهاد واجباً عينياً إذا لم ينهض به من به الكفاية، أو تستحدث ظروف تستدعي مزيد المجتهدين، ولعل به نجمع بين القولين.

معالجة الأمراض الروحية

ولا يبدو وجود مانع عقلي أو شرعي من حمل المعنى عليها جميعاً، وعلى أي حال فهو يشكو قصوره الذاتي ويعدد أمراضه وموانعه التي تصدّه عن الرجوع إلى المولى ونيل القربة لديه أملاً منه برحمته ولطفه، كالمريض الذي يعدّد علّاته وأسقامه للطبيب ليعالجها، ولكن الفرق أن المريض الروحاني يطلب العلاج بدواء الرحمة والفضل، ولهذا يعدد أمراضه طلباً للشفاء، ومن الواضح أن لكل مرض علاجاً يناسبه، والأمراض هي:

الأول: الذنوب، وهي من أكبر الأمراض الروحية. دل عليها قوله عليه السلام: ﴿عظم بلائي﴾ بناء على تفسير البلاء بالذنب كما روى مجمع

(١) انظر تحرير الأحكام: ج١، ص٣١؛ والعروة الوثقى: ج١، ص٧، مسألة(١).

(٢) انظر مهذب الأحكام: ج١، ص٨.

البيان في أول سورة الواقعة عن حادثة عثمان وعبد الله بن مسعود عندما سأله ما تشكو؟ قال: ذنوبي[١].

وأما إذا فسّر بالامتحان أو العقاب ونحوهما فهي أمراض روحية تثقل العبد، وتقعده عن الطاعة، وتقلقه من عاقبته وقد ورد عن رجل سأل أمير المؤمنين عليه السلام عن سبب عدم توفيقه لصلاة الليل فقال: «إنّك رجل قد قيّدتك ذنوبك»[٢].

وفي مرآة العقول: عن أبي عبد الله عليه السلام: «أن الرجل يذنب الذنب فيحرم صلاة الليل، وأنّ العمل السيء أسرع في صاحبه من السكّين في اللحم»[٣] وعليه فكما أن نفوذ السكّين في بدن الإنسان توجب هلاكه جسداً فإن كثرة الخطايا توجب هلاكه روحاً.

---

(١) مجمع البيان: ج٩، ص٣٥٤.
في فضل سورة الواقعة: فضلها: أبي بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من قرأ سورة الواقعة كتب ليس من الغافلين» وروي أن عثمان بن عفان دخل على عبد الله بن مسعود يعوده في مرضه الذي مات فيه فقال له: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي. قال: ما تشتهي؟ قال: رحمة ربي. قال: أفلا ندعو الطبيب؟ قال: الطبيب أمرضني. قال: أفلا نأمر بعطائك؟ قال: منعتنيه وأنا محتاج إليه وتعطينيه وأنا مستغن عنه؟ قال: يكون لبناتك. قال: لا حاجة لهنَّ فيه فقد أمرتهن أن يقرأن سورة الواقعة، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً».

(٢) الكافي: ج٣، ص٤٥٠، ح٣٤؛ علل الشرائع: ج٢، ص٣٦٢، ح١.

(٣) الكافي: ج٢، ص٢٧٢، ح١٦؛ مرآة العقول: ج٩، ص٤١٦، ح١٦؛ البحار: ج٧٠، ص٣٣٠، ح١٣.

وعن أبي عمرو المدائني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: «كان أبي عليه السلام يقول: إنّ الله قضى قضاء حتماً ألّا ينعم على العبد بنعمة فيسلبها إيّاه حتى يُحدث العبد ذنباً يستحق بذلك النقمة»(١).

وعن العباس بن هلال الشامي مولى لأبي الحسن موسى عليه السلام قال: سمعت الرضا عليه السلام يقول: «كلّما أحدث العباد من الذنوب ما لم يكونوا يعملون أحدث الله لهم من البلاء ما لم يكونوا يعرفون»(٢).

---

(١) الكافي: ج٢، ص٢٧٥، ح٢٨؛ شرح أصول الكافي: ج٩، ص٢٥٢، ح٢٢؛ موسوعة أحاديث أهل البيت عليهم السلام: ج٤، ص٤٠، ح٣٩٧٦؛ وورد في البحار: ج٧٠، ص٣٤٢، ح٢٥.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا وجع أوجع للقلوب من الذنوب، ولا خوف أشدّ من الموت، وكفى بما سلف تفكّراً، وكفى بالموت واعظاً».

وجاء في البحار: ج٧٠، ص٣٤٢، بيان

«لا وجع أوجع للقلوب من الذنوب» أي الذنوب تصير سبباً لهمّ القلب وحزنه أزيد عن غيرها من المخوّفات؛ لأن الذنوب تصير سبباً للخوف من عقاب الله الذي هو أعظم المفاسد وأشدها، فالمراد به من الهم الحاصل من الذنوب، أو المعنى أن الأوجاع والأمراض الصوريّة والمعنويّة والجسمانية والروحانية العارضة للإنسان ليس شيء منها أشدّ تأثيراً في القلب من الذنوب التي هي من الأمراض الروحانية والأوجاع المعنوية، أو المعنى أن للقلب أمراضاً وأوجاعاً مختلفة بعضها روحانية، وبعضها جسمانية، وليس شيء منها أشدّ وأوجع وأشر من الذنوب، فإنها بنفسها أمراض للقلب، كالحقد والحسد، وضعف التوكل وأمثالها، أو سبب لأمراضها، فإن الذنوب أسباب لضعف الإيمان واليقين كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً﴾ سورة البقرة: الآية١٠.

(٢) الكافي: ج٢، ص٢٧٥، ح٢٩؛ أمالي الطوسي: ص٢٢٨، ح٤٠٢، وفيه: (يعلمون).

والمعنى أن ابتداع الذنوب موجبة لابتداع البلاء للملازمة بين الفعل والجزاء، أو المراد من قولهعليه السلام: «ما لم يكونوا يعملون» أي من البدع التي أحدثوها أو الذنب الذي لم يصدر منهم قبل ذلك وإن صدر من غيرهم: «ما لم يكونوا يعرفون» أي لم يروا مثله، أو لم يبتلوا بمثله فتأمل.

الثاني: سوء الحال والأحوال، وهو سوء الأخلاق وملكات النفس التي عبّر عنها بقوله: «وأفرط بي سوء حالي» وقد شكا منه؛ لأنه من أعظم الحجب الظلمانية التي تمنع الإنسان من ربه ومن مجتمعه، بل ومن نفسه؛ بداهة أن من يفقد الآداب يخرج عن دائرة المحبة والعبودية، فيبتعد عن الله، وقد وردت الروايات في ذم ذلك.

فعن أبي عبد اللهعليه السلام قال: «إنّ سوء الخلق ليفسد العمل كما يفسد الخلّ العسل»(١).

ووجهه: أن سوء الخلق يوجب القسوة والجفاء مع الناس لأدنى سبب، وهو يوجب فقدان الكرامة وتجاوز الحقوق، فتضيع معه الأعمال.

ومن هذا طبعه مع الناس يكون هكذا مع الخالق أيضاً، فلا يتحمّل ما لا يوافق طبعه من النوائب والابتلاءات، فلا يصبر في البلاء، ولا يشكر في النعماء، ومفاسده وآفاته في الدنيا والدين كثيرة، منها: أنه يفسد العمل بحيث لا يترتب عليه ثمرته المطلوبة منه، وقوله: «كما يفسد الخل العسل» تشبيه للمعقول بالمحسوس.

---

(١) الكافي: ج٢، ص٣٢١، ح١؛ مرآة العقول: ج١٠، ص٢٦٠، ح١.

وإذا فسد العمل انعدمت آثار الطاعات، وترتبت آثار المعاصي، ووقع الإنسان في سوء المعيشة، وفي الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال النبي صلى الله عليه وآله: أبى الله عزّ وجل لصاحب الخلق السيء بالتوبة. قيل: وكيف ذاك يا رسول الله؟ قال: لأنه إذا تاب من ذنب وقع في ذنب أعظم منه»(١).

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من ساء خُلقه عذّب نفسه»(٢) أما عذاب الآخرة فواضح، وأما في الدنيا فلابتلاء مثله بالأمراض الجسدية والاجتماعية غالباً؛ لأن هيجان الغضب والانفعالات الروحانية والجسمانية مما يضر ببدنه وروحه، ويندم عمّا فعل بعد سكون غضبه، فيقع في ضغط عقاب نفسه ولومها، وغالباً لا يتحمّل الناس منه ذلك فإما يجابهونه بالمثل فيؤذونه، أو يهجرونه ولا يعينونه في شيء فيعيش العزلة القاسية، وإلى هذا قد يؤول قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ**﴾(٣).

بتقريب: أن صورة أعمالهم وملكاتهم النفسية هي صورة الجحيم إلّا أنها مستورة على الناس في الدنيا؛ لكونها من عالم ما وراء المادة، وقد فقدت أجسادهم المادية قابلية درك ذلك العالم، فإذا زال عنهم الغطاء أدركوها، أو لجهة ستر الله سبحانه عليهم ذلك إتماماً للحجة والامتحان، ولهذا المرض مظاهر:

---

(١) الكافي: ج٢، ص٣٢١، ح٢.

(٢) الكافي: ج٢، ص٣٢١، ح٤.

(٣) سورة التوبة: الآية ٤٩.

منها: عماء الباطن وانصمام آذان روحه عن سماع التوجيهات الإلهية والتجاوب مع ترغيبه وترهيبه، وبالتالي فقدان القابلية لنزول الفيوضات والبركات الرحيمية الإلهية.

ومنها: إدبار روحه عن الاستلذاذ بالعبادات والمناجاة.

ومنها: الفشل في حاضر أيامه ومستقبلها؛ بداهة أن الناجحين لا يحققون نجاحاتهم بمعزل عن غيرهم في العلم والمشاورة والتجربة، والمعزول اجتماعياً فاشل في تحقيق طموحاته.

الثالث: قصور الأعمال عن الوصول إلى ساحة القرب سواء كانت طاعات غير مقبولة أو غير صحيحة، أو كانت معاصي وقبائح، ولعل هذا أحد أسرار كثرة عبادة الأولياء والأنبياء عليهم السلام، ومع ذلك يشكو عليه السلام من (قلّة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق)(١) وقد كان صلى الله عليه وآله يصلي الليل كلّه، ويعلّق صدره بحبل حتى لا يغلبه النوم، فأمره الله سبحانه أن يخفف على نفسه(٢) بقوله تعالى: ﴿**مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى**﴾(٣) وعبدت فاطمة الصديقة عليها السلام ربها حتى تورّمت قدماها(٤)، وكيف لا يذعن العبد الناقص

---

(١) انظر نهج البلاغة: ج٤، ص١٧، قصار الحكم ٧٧، وفيه: ﴿فعيشك قصير، وخطرك يسير، وآملك حقير، آه من قلة الزاد، وطول الطريق، وبعد السفر، وعظيم المورد﴾.

(٢) انظر مجمع البيان: ج٧، ص٧، تفسير الآية ٢ من سورة طه.

(٣) سورة طه: الآية ٢.

(٤) جاء في المناقب: ج٣، ص١١٩، عن الحسن البصري: ما كان في هذه الأمة أعبد من فاطمة عليها السلام كانت تقوم حتى تتورم قدماها؛ راجع البحار: ج٤٣، ص٨٤، ح٧؛ المقتل (للخوارزمي): ج١، ص٨٠، ما كان في الدنيا أعبد.

بقصور العمل مع أن مثل مولانا السجادعليه السلام وهو الإمام المعصوم يناجي ربه قائلاً:

فزادي قليل ما أراه مبلّغي ... ألزاد أبكي أم لبعد مسافتي(١)

وفي دعاء أبي حمزة: «لست أتكل في النجاة من عقابك على أعمالنا، بل بفضلك علينا»(٢) ولعل الخطاب بصيغة ضمير الجمع للاعتراف بأنه لو

---

(١) ورد في الصحيفة السجادية: ص٥١٤.

من دعاء للإمام السجادعليه السلام في التضرع والمناجاة عند الكعبة. عن طاوس اليماني قال: رأيت في جوف الليل رجلاً متعلقاً بأستار الكعبة وهو يقول:

ألا أيها المأمول في كل حاجة ... شكوت إليك الضرَّ فاسمع شكايتى

ألا يا رجائى أنت كاشف كربتى ... فهب لى ذُنُوبِى كلها واقض حاجتى

فزادي قليل ما أراه مبلّغي ... ألزاد أبكي أم لبعد مسافتي

أتيت بأعمال قباح رديَّة ... فما في الورى خلق جنى كجنايتى

أتحرقنى في النار يا غاية المنى ... فأين رجائى منك أين مخافتى

قال: فتأملته فإذا هو علي بن الحسينعليهما السلام، فقلت: يا ابن رسول الله، ما هذا الجزع وأنت ابن رسول الله! ولك أربع خصال: رحمة الله، وشفاعة جدك رسول الله، وأنت ابنه، وأنت طفل صغير.

فقال له: «يا طاوس إنني نظرت في كتاب الله فلم أرَ لي من ذلك شيئاً، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ سورة الأنبياء: الآية ٢٨، وأما كوني ابن رسول الله فإن الله تعالى يقول: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ* فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ* وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ سورة المؤمنون: الآيتان ١٠١-١٠٣».

(٢) انظر المصباح: ص٥٩١، السطر السابع.

انضمت جميع أعمال البشر بل الثقلين إلى بعضها في مقام أداء حق الباري عزّ وجل لما كانت وافية بما يوجب النجاة، فما ظنّك بنا وبأعمالنا مع ما هو معلوم من الإخلال بشرائط الصحة أو شرائط القبول أو كليهما مع وجود الموانع الظاهرية والباطنية فيها صحة وقبولاً[(١)]؟

ولعل هذا أمرٌ بيّن؛ إذ إن الأعمال ينبغي أن توازي النعم في الطاعة أو ترك المعصية، وإذا حكّمنا المعادلة قلّ مَنْ لا يبقى خاسراً في الموازنة الأولى؛ لأن نعمهُ لا تحصى، وجميع طاعات العمر لا تساوي نعمة واحدة من نعمه تبارك وتعالى، وقد روى الطبرسيقدس سره في مجمع البيان في تفسير الآية ﴿**مَن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ**﴾[(٢)] عن النبيصلى الله عليه وآله قال: «والذي نفسي بيده ما من

---

(١) من دعاء للإمام السجادعليه السلام في الاستقالة في الصحيفة السجادية: ص١٠٢.

«اللهم وهذه رقبتي قد أَرّقتها الذنوب فصل على محمد وآله، وأعتقها بعفوك، وهذا ظهري قد أثقلته الخطايا فصل على محمد وآله، وخففّ عنه بمنّك. يا إلهي لو بكيت إليك حتى تسقط أشفار عيني، وانتحبت حتى ينقطع صوتي، وقمت لك حتى تنتشر قدماي، وركعت لك حتى ينخلع صُلبي، وسجدت لك حتى تتفقأ حدقتاي وأكلت تراب الأرض طول عمري، وشربت ماء الرماد آخِرَ دهري، وذكرتك في خلال ذلك حتى يكلّ لساني، ثم لم أرفع طرفي إلى آفاق السماء استحياءً منك ما استوجبت بذلك محو سيئة واحدة من سيئاتي، وإن كنت تغفر لي حين أستوجب مغفرتك، وتعفو عنّي حين أستحق عفوك فإنّ ذلك غير واجب لي باستحقاق، ولا أنا أهلٌ له باستيجاب. إذا كان جزائي منك في أول ما عصيتك النار، فإن تعذبني فأنت غير ظالم لي».

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٦.

الناس أحد يدخل الجنة بعمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلّا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»[(١)].

الرابع: طول الأمل، وهو المرض المهلك الرابع الذي يحجب الإنسان عن الترقي والسمو، ويحبسه عن منافعه الدنيوية والأخروية، وقد عبّر عنه بقوله عليه السلام: «وحبسني عن نفعي بعد أملي» والمراد من النفع كل ما كان في واقعه أو عاقبته نافعاً للإنسان، ومن أجلى مصاديقه الثواب والعمل الصالح، وهو ظاهر، والسؤال هو كيف يمنع طول الأمل من نفع العبد؟

والجواب: من وجوه:

منها: لأن طول الأمل من الصفات الذميمة والملكات الرذيلة التي تتسافل بروح العبد وصفاته، وتبعده عن ربه وهكذا روح تفقد الاستعداد لنزول الفيوضات الرحمانية، وتمنعها منها، لما ثبت من أن الفيوضات الإلهية وإن كانت عامة وشاملة ومستمرة ولكن قابلية المحل شرط في ظهور آثارها على العبد؛ إذ الأرض المالحة لا تنبت العشب الطيّب مهما هطل المطر ﴿**وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا**﴾[(٢)].

ولهذا فإن الملكات الرذيلة إما تزداد في النفس بحيث تفقد قابليتها لتقبّل الفيض، أو تمنعها من تقبل الفيض الكامل التام بانحرافها، كما يحرف الفساق كلمات الأنبياء ووصايا الدين إلى أهوائهم، فإنّ بنفوسهم

(١) انظر مجمع البيان: ج٤، ص٢٠، في تفسير الآية المتقدمة.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٥٨.

المنحرفة يفهمون كل شيء منحرفاً، والآية تنص على أنّ الذي خبث ينبت ولكن نباته يكون خبيثاً، وقد ورد في بعض الأخبار أن طويلي الآمال لا تحسن أعمالهم.

ففي الخصال عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «ألا إنّ أخوف ما أخاف عليكم خصلتان: إتّباع الهوى وطول الأمل. أما إتباع الهوى فيصدّ عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة»[1].

وقال عليه السلام: «من أطال أمله ساء عمله»[2].

ومنها: أن طول الأمل يحبس الإنسان عن استحضار الآخرة وثوابها وعقابها، ويجعله في غفلة؛ لأن الإنسان مادام متشاغلاً بالأوهام واللذات الوهمية والتخيّلات الباطنة في هوامش الحياة خاصة وهي كثيرة لا تحصى ولا تنتهي في يوم من الأيام كيف يفكر في الأعمال الصالحة والعواقب الحسنة فضلاً عن المقامات الروحانية وسمو الدرجات؟ فإنّ الله عزّ وجل لم يجعل لرجل من قلبين في جوفه.

ومن الواضح أن الإنسان ما لم يفكر في منافع العمل وعواقبه لا يتولد عنده الداعي إليه، والذي يغفل عن الآخرة ودرجاتها لانشغاله بتوافه

---

(١) الخصال: ص٥١، ح٦٣.

(٢) الخصال: ص١٥، ح٥٢؛ انظر البحار: ج٧٠، ص١٦٣، ح١٦، ح١٩، وأيضاً جاء في كنز الفوائد: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «من أيقن أنه يفارق الأحباب ويسكن التراب ويواجه الحساب ويستغني عمّا خلّف ويفتقر إلى ما قدّم كان حريّاً بقصر الأمل وطول العمل». كنز الفوائد: ص١٦٣؛ وانظر البحار: ج٧٠، ص١٦٧، ح٣١.

الدنيا ودركاتها لا يتولد فيه الداعي إلى الطاعة والعمل وارتقاء المراتب. إذاً من شغلته العاجلة خسر الآجلة، ومن هنا قال سبحانه: ﴿**كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ**﴾(١).

ومنها: أن هذه الرذيلة تسبب نسيان الموت، وما دام الإنسان ناسياً للموت يكون طاغياً متمرداً على ربّه ومجتمعه ونفسه، ولهذا وردت الأدلة باستحباب زيارة القبور وإقامة مجالس العزاء وتذكر الموت دائماً؛ لأنه ((يهدم اللّذات)) ويحث الإنسان إلى منافع الآخرة ومنافع الدنيا الصالحة؛ لأن العصاة يحبون منافعهم ويتصورون أنهم في لذّة؛ لكن من أعرض عن ذكر ربّه فإن له معيشة ضنكا(٢).

ومن أشدّ المهوّنات على مصائب الدهر ذكر الموت والأموات والنظر إلى ما حلّت به عواقبهم، فمن كان في ذكر الموت كان في راحة، وقد وردت توصيات كثيرة بهذا في القرآن والحديث كما في قوله سبحانه: ﴿**كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ**﴾(٣).

ومن ضمن وصية لأمير المؤمنين عليه السلام يوصي بها محمد بن أبي بكر بعد أن ولّاه مصر وكذا سائر الناس: «يا عباد الله، إنّ الموت ليس منه فوت، فاحذروه قبل وقوعه، وأعدّوا له عدّته، فإنكم طرد الموت إن أقمتم له

---

(١) سورة القيامة: الآيتان ٢٠-٢١.

(٢) قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ سورة طه: الآية ١٢٤.

(٣) سورة الدخان: الآيتان ٢٥-٢٦.

أخذكم، وإن فررتم منه أدرككم، وهو ألزم لكم من ظلكم، الموت معقود بنواصيكم، والدنيا تطوى خلفكم، فأكثروا ذكر الموت عندما تنازعكم إليه أنفسكم من الشهوات، وكفى بالموت واعظاً، وكان رسول الله ﷺ كثيراً ما يوصي أصحابه بذكر الموت فيقول: أكثروا ذكر الموت فإنه هادم اللّذات، حائل بينكم وبين الشهوات﴾[1].

الخامس: الانخداع بالدنيا والاغترار بها، وهو المرض الخامس المهلك. أشار إليه عليه السلام بقوله: ﴿**وخدعتني الدنيا بغرورها**﴾ أي أشكوك خيانة نفسي لنفسي، فكل شقاء نابع من النفس، ومن مصاديقه الخيانة، لأنّها تشغله بعيوب الناس دون عيوب نفسه، فيرى نواقص الآخرين ولا ينظر نواقصه؛ لذا يجب الاستعاذة من شرور النفس؛ لأن هذا شر عظيم أن يبصر الإنسان عيوب غيره ولا يبصر عيوب نفسه، وينشغل بإصلاح الناس ولا ينشغل بإصلاح نفسه.

ومن المصاديق قلب الحقائق، بأن تريك نفسك الغرور الذي هو ذميم يجب اجتنابه على أنه رجاء، وهو عين لا عيان، والمائز بينهما أن الهدف الذي يسعى الإنسان إليه إذا كان قد بذل جهده له، وهيأ له مقدماته وأسباب الوصول إليه كان أملاً ورجاءً، كالمزارع الذي يهدف الحصول على الحنطة، فإن كان لديه أمل حرث الأرض وبذر البذور وسقاها وهيء مقدمات العمل، وكذا من كان همه الربح والتجارة فإنه يجهد لأجل تحقيق الربح،

(١) أمالي الطوسي: ص٢٧، ح٣١؛ أمالي المفيد: ص٢٦٤، ح٣، وفيه: (فإنكم طراد الموت).

فيشتري البضاعة ويذهب بها هنا وهناك لأجل بيعها والاسترباح بها، وهذا دليل على الأمل والرجاء.

وأما الغرور فيها فهو الطمع في الاستفادة وجني المحصول بدون زراعة، وكسب المال وتحقيق الربح بدون تجارة، والأسوأ منه أن يذهب عكس الاتجاه الصحيح، كأن يذهب لهذا وذاك لأجل كسب الربح بلا جهد وعمل.

فالغرور أن يضع الإنسان نصب عينيه هدفاً وينتظر الحصول عليه دون أن يبذل جهداً مشروعاً في سبيله، وهذا سبيل للوقوع في الحرام، وكل الرشى والسرقات والخيانات ناشئة من هذا.

حتى أهل النار أرادوا تحصيل اللذة والسعادة بلا جهد الطاعة، فهو غرور، وأما أهل الجنة فهو أمل ورجاء؛ لأنهم طلبوا الهدف باتباع أسبابه.

وقد اتفقت رسالات الأنبياء عليهم السلام وجميع الشرائع والأديان على ذم الدنيا ودعوة الناس إلى التحذّر منها؛ لما فيها من المفاسد العظيمة والأضرار الجسيمة، ومن أخطر ما فيها أن تغر الإنسان وتخدعه، فتصور له الباطل حقاً، والزيف حقيقة، والشر خيراً قال تعالى: **﴿وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾**[(١)] وقال تعالى: **﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾**[(٢)] وبها جمع شهوات الدنيا ولذاتها ووصفها بأوصاف زائلة لا استقرار لها؛ بداهة أن اللهو واللعب لا دوام

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٨٥.

(٢) سورة الحديد: الآية ٢٠.

لهما، وكذا التزيّن والتفاخر والتكاثر، وصيغة (التفاعل) فيها تدل على التسابق للمظهر والخديعة دون إخلاص أو صدق، ولذا شبهه بالغيث الذي يعجب الزراع في مظهره وأمله ولكن مصيره الزوال والاضمحلال، ولم تبق منه إلّا عواقبه وآثاره السيئة، وثم وصف الدنيا كلّها بأنها متاع الغرور، حيث قال تعالى: **﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾**[١].

ومن هنا وصفهاﷺ بأنها رأس كل خطيئة[٢]، لكن البلاء المبرم والمصيبة العظمى أن البشر عموماً مغترون بها، وقد جلس لهم الشيطان في مسالكها؛ ليوقعهم في مهاويها.

وفي الحديث المروي عن رسول اللهﷺ أنّه قال لبعضهم: «ألا أريك الدنيا بما فيها؟ قال: بلى يا رسول الله، فأخذ بيده وأتى إلى واد من أودية المدينة فإذا مزبلة فيها رؤوس الناس وعذرات وخرق بالية وعظام البهائم، فقال يا فلان: هذه الرؤوس كانت تحرص حرصكم، وتأمل آمالكم، وهي اليوم صارت عظاماً بلا جلد ثم هي صائرة عظماً رميماً، وهذه العذرات ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبتموها في الدنيا، فأصبحت والناس يتحامونها، وهذه الخرق البالية رياشهم أصبحت والرياح تصفقها،

---

(١) سورة الحديد: الآية ٢٠.

(٢) انظر الكافي: ج٢، ص٣١٥، ح١؛ إرشاد القلوب: ج١، ص٢١.

وهذه العظام عظام دوابهم التي كانوا ينتجعون عليها أطراف البلاد، فمن كان باكياً على الدنيا فليبك»(١).

وعن ابن عباس أنه قال يؤتى بالدنيا يوم القيامة على صورة عجوز شمطاء زرقاء العينين أنيابها بادية مشوهة الخلق لا يراها أحد إلّا هرب منها، فتشرف على الخلائق أجمعين، فيقال لهم: أتعرفون هذه؟ فيقولون لا. نعوذ بالله من معرفة هذه، فيقال: هذه الدنيا التي تفاخرتم بها وتقاتلتم عليها(٢)، والمعنى على المجاز للحكاية عن شاهد الحال ظاهر، ويمكن توجيهه على الحقيقة من باب تجسّم الأعمال والأوصاف كما حقق في محله.

ومن هنا كان الأولياء وأهل المعرفة يتحذرون ويحذّرون من الدنيا، وقد مرّ وصف أمير المؤمنين عليه السلام بلسان ضرار بن جمرة الضبائي لما دخل على معاوية. وقال معاوية: صفه لي. قال: فاشهد لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وهو قائم في محرابه، قابض على لحيته، يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، ويقول: «يا دنيا يا دنيا إليك عنّي، أبي تعرَّضت أم إليَّ تشوقت؟ لا حان حينك! هيهات! غرّي غيري، لا حاجة لي فيك، قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها! فعيشك قصير، وخطرك يسير، وأملك حقير، آه من قلّة الزاد وطول الطريق وبعد السفر، وعظيم المورد»(٣).

---

(١) انظر المستطرف: ج٢، ص٨٦٨، ولعل رؤوس الناس في المزبلة هي بقايا رؤوس الكفار؛ إذ كانوا يلقون أمواتهم في المزابل، أو كناية عن آثارها كالشعر أو أغطية الرؤوس.

(٢) انظر المستطرف: ج٢، ص٨٦٩- ٨٧٠.

(٣) نهج البلاغة: ص٤٨٠، قصار الحكم ٧٧.

وقال بعضهم:

ما أنعم الله على عبده بنعمة أوفى من العافيه
وكل من عوفي في جسمه فإنه في عيشة راضيه
والمال حلو حسن جيّد على الفتى لكنه عاريه
ما أحسن الدنيا ولكنها مع حسنها غدارة فانيه[١]

وتوفي رجل من كندة فكتب على قبره هذه الأبيات عظة وعبرة:

يا واقفين ألم تكونوا تعلموا أن الحِمام بكم علينا قادم
لو تنزلون بشعبنا لعرفتمو أن المفرّط في التزود نادم
لا تستعزوا بالحياة فإنكم تبنون والموت المفرق هادم
ساوى الردى ما بيننا في حفرة حيث المخدّم واحد والخادم[٢]

وروي أن داودعليه السلام بينما يسيح في الجبال إذ مرّ على غار فيه رجل عظيم الخلقة من بني آدم ملقى على ظهره وعند رأسه حجر محفور مكتوب فيه:

أنا دوسيم الملك تملّكت ألف عام، وفتحت ألف مدينة، وهزمت ألف جيش، وافتضضت ألف بكر من بنات الملوك، ثم صرت إلى ما ترى، التراب فراشي، والحجر وسادي، فمن رآني فلا تغرّه الدنيا كما غرّتني[٣].

---

(١) المختصر المحتاج: ص٢٠٤، الرقم ٧٣٩.

(٢) المستطرف: ج٢، ص٨٦٩، ٨٧٠.

(٣) المستطرف: ج٢، ص٨٧٢، وفيه: (وافتضيت).

ومن العبر أن الدنيا تغر أهلها وتخدعهم، وفي ذلك ما روي أن عيسى عليه السلام كان معه صاحب في بعض سياحاته فأصابهما الجوع وقد انتهيا إلى قرية، فقال عيسى عليه السلام لصاحبه: انطلق فاطلب لنا طعاماً من هذه القرية، وأعطاه ما يشتري به، فذهب الرجل وقام عيسى عليه السلام يصلي، فجاء الرجل بثلاثة أرغفة، فقعد ينتظر انصراف عيسى عليه السلام من الصلاة فأبطأ عليه، فأكل رغيفاً، وكان عليه السلام رآه حين جاء، ورأى الأرغفة ثلاثة، فلما انصرف من صلاته لم يجد إلّا رغيفين، فقال له: أين الرغيف الثالث؟ فقال الرجل: ما كانا إلّا رغيفين، فأكلاهما، ثم مرّا على وجوههما حتى أتيا ظباء ترعى، فدعا عيسى عليه السلام واحداً منها فجاءه فذكاه وأكلا منه، فقال له عيسى عليه السلام: بالذي آراك هذه الآية من أكل الرغيف الثالث؟ فقال: ما كانا إلّا اثنين، ثم مرّا على وجوههما حتى جاءا قرية فدعا عيسى عليه السلام ربه أن ينطق له من يخبره عن حال هذه القرية، فأنطق الله له لبنة، فسألها عيسى عليه السلام فأخبرته بكل ما أراد وصاحبه يتعجب مما رأى، فقال له عيسى عليه السلام بحق من أراك هذه الآية من صاحب الرغيف الثالث؟ فقال: ما كانا إلّا اثنين، فمرّا على وجوههما حتى انتهيا إلى نهر عجّاج، فأخذ عيسى عليه السلام بيد الرجل ومشى به على الماء حتى جاوزا النهر، فقال الرجل: سبحان الله، فقال عيسى عليه السلام: بالذي أراك هذه الآية من صاحب الرغيف الثالث؟ فقال: ما كانا إلّا اثنين، فمرّا على وجوههما حتى أتيا قرية عظيمة خربة وإذا قريب منها ثلاث لبنات عظام، وقيل: ثلاثة أكوام من الرمل، فقال لها: كوني ذهباً بإذن الله فكانت، فلما رآها الرجل قال: هذا مال، فقال

عيسى عليه السلام: نعم واحدة لي وواحدة لك وواحدة لصاحب الرغيف الثالث، فقال الرجل: أنا صاحب الرغيف الثالث! فقال عيسى عليه السلام: هي لك كلّها، ثم فارقه عيسى عليه السلام وأقام الرجل ليس معه ما يحملها عليه، فمرّ به ثلاثة نفر فقتلوه، فقال اثنان منهما للثالث: انطلق إلى القرية فأتنا بطعام، فانطلق، فلما غاب قال أحدهما للآخر: إذا جاء قتلناه واقتسمنا المال بيننا، فقال الآخر: نعم، وأما الذي ذهب ليشتري الطعام فإنه أضمر لصاحبيه السوء وقال: أجعل لهما في الطعام سماً فإذا أكلاه ماتا وآخذ المال لنفسي، فوضع السم في الطعام وجاء، فقاما إليه فقتلاه، وأكلا الطعام فماتا، فمرّ بهم عيسى عليه السلام وهم مصروعون حولها، فقال: هكذا الدنيا تفعل بأهلها[1]، ولو قيل للدنيا صفي نفسك ما عدت ما وصفها به أبو نواس بقوله:

وما الناس إلّا هالك وابن هالك	وذو نسب في الهالكين عريق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت	له عن عدوّ في ثياب صديق[2]

السادس: التمادي في العصيان، وهو من خدع الشيطان. والنفس التي تسوّف وتماطل في التوبة. عبّر عنها بقوله: ﴿ونفسي بجنايتها ومطالي﴾ وللنفس تصنيفان:

أحدهما: فطري ذاتي صنّفها إلى نفس أمّارة ونفس لوّامة ونفس مطمئنة سميت الأولى أمّارة؛ لأنها تأمر صاحبها بالسوء وارتكاب المنكر. قال

---

(١) المستطرف: ج٢، ص٨٧٤.

(٢) المستطرف: ج٢، ص٨٧٧؛ أمالي المرتضى: ج١، ص١٢٠.

تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾[١] وسمّيت الثانية لوّامة؛ لأنّها كثيرة اللوم والتأنيب لصاحبها على القبائح حينما تفكر في العواقب بناء على عدم انحصار ذلك بالآخرة قال تعالى: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[٢] وسمّيت الثالثة مطمئنة؛ لأنّها تطمئن بالإيمان، وتثق بثوابه. قال تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾[٣] وما كانت كذلك كانت مطمئنة من الخوف والدهشة من العقاب وأهوال الآخرة لقوله تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٤] وكذلك مطمئنة بالعقائد الحقّة والدين القويم لقوله: ﴿إِلّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾[٥] وعن بعض أهل المعرفة في الأوصاف المتقدمة:

أنها أوصاف للنفس بحسب اختلاف أحوالها، فإذا غلبت قوتها العاقلة على الثلاث الأخر وصارت منقادة لها مقهورة منها وزال اضطرابها الحاصل من مدافعتها سمّيت (مطمئنة)؛ لسكونها حينئذ تحت الأوامر والنواهي وميلها إلى ملائماتها التي تقتضي جبلتها، وإذا لم تتم غلبتها وكان بينها تنازع وتدافع، وكلّما صارت مغلوبة عنها بارتكاب المعاصي حصلت للنفس ملامة وندامة سمّيت (لوامة) وإذا صارت مغلوبة منها مذعنة لها

---

(١) سورة يوسف: الآية ٥٣.

(٢) سورة القيامة: الآية ٢.

(٣) سورة الفجر: الآية ٢٧.

(٤) سورة يونس: الآية ٦٢.

(٥) سورة النحل: الآية ١٠٦.

من دون دفاع سميت (أمّارة بالسوء) فإنّه لما اضمحلت قوتها العاقلة وأذعنت للقوى الشيطانية من دون مدافعة فكأنما هي الآمرة بالسوء[1].

ثانيهما: فطري عرضي صنفّها إلى راضية ومرضية وملهَمة مستفاد من مثل قوله تعالى: ﴿**فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾[2] والظاهر أن هذه الأقسام داخلة في تلك الأقسام؛ لأن الراضية والمرضية نفس مطمئنة، ولكن الفرق الراضية بعطاء الله والمرضية بمزيد فضله ونحو ذلك، ويؤيده السياق بعد ذكر المطمئنة في الآية.

والنفس الملهمة إما مزكّاة أو لا، والمزكّاة داخلة أيضاً في المطمئنة، وإلّا فهي أمارة.

ومعلوم أن هذه التقسيمات سواء كانت واحدة أو مختلفة لا يستوجب تعدد النفس؛ لكونها حقيقة واحدة، ولكن مراتبها ومقاماتها تختلف، فلكل مرتبة أو مقام اسم.

نعم لا يعقل اجتماع كل الحالات في زمن واحد لنفس واحدة، بل لابد من تعدد الأزمنة والأحوال وإلّا كان تناقضاً.

وفي جامع السعادات: لما تبيّن أن للنفس أربع قوى متخالفة ولها قوى أُخر أيضاً كما تبيّن في العلم الطبيعي فبحسب غلبة بعض هذه القوى على بعض يحصل في النفس اختلاف عظيم، والاختلاف في النفوس إنّما هو

---

(١) جامع السعادات: ج١، ص٥٢-٥٣.

(٢) سورة الشمس: الآية ٨.

باختلاف صفاتها الحاصلة من غلبة بعض قواها المتخالفة؛ إذ هي في بدو فطرتها خالية عن جميع الأخلاق والملكات، وليس لها فعلية، بل هي محض القوة، ولذا ليس لها قوام بذاتها، وإنما تتقوّم بالبدن، ثم بتوسّط قواها تكتسب العلوم والأخلاق، وترتسم بالصور والأعمال إلى أن تتقوّم بها وتصل إلى ما خلقت لأجله[١].

هذا وإنّ كل موجود إذا لم يصل إلى حدّ كماله لا تترتب عليه خواصه وآثاره، بل قد تترتب عليه مضار وآفات. انظر إلى ثمار الأشجار ونحوها كذلك النفس الإنسانية إذا لم تصل إلى حدّ كمالها اللائق وهو الاطمئنان فإنه لا تظهر عليها خواصّها وآثارها، وكذا في النفس النباتية والحيوانية إذ ما لم تصل إلى حدّ كمالها لا تظهر آثارها الكمالية، بل تترتب مضارها.

ومن هنا نعلم أن نفوس الأنبياء والأولياء عليهم السلام نفوس قدسية مطمئنة، ليس لأنهم لا يحملون النفوس الأمارة أو اللوامة؛ لأن النفس واحدة، بل لغلبة الإيمان على الشهوات واليقين على الشك[٢]، ويؤيّده قول يوسف عليه السلام: ﴿**وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ**﴾[٣] فإن اللام إن كانت عهدية أو جنسية لا يفترق الحال في المعنى، وكلاهما يدل على المطلوب؛ إذ هو عليه السلام أحد مصاديق المعصومين عليهم السلام، ولكن لأن

---

(١) جامع السعادات: ج١، ص٥٤-٥٥.

(٢) انظر شرح مئة كلمة: ص٥٣.

(٣) سورة يوسف: الآية ٥٣.

نفسه وصلت إلى مرحلة كمالها ظهرت آثارها وهو الاطمئنان والعصمة من الذنوب[١].

ويؤيّد ذلك حديث كميل مع أمير المؤمنين عليه السلام الذي رواه البهائي في كشكوله: قال: سألت مولانا أمير المؤمنين عليه السلام فقلت: يا أمير المؤمنين، أريد أن تعرّفني نفسي. فقال: «يا كميل وأيّ الأنفس تريد أن أعرّفك؟» قلت: يا مولاي وهل هي إلّا نفس واحدة؟

قال عليه السلام: «يا كميل، إنّما هي أربعة: النامية النباتية، والحسيّة الحيوانية، والناطقية القدسية، والكلية الإلهية، ولكل واحدة من هذه خمس قوى وخاصيتان.

فالنامية النباتية: لها خمس قوى: جاذبة وماسكة وهاضمة ودافعة ومربية، ولها خاصيتان: الزيادة والنقصان، وانبعاثها من الكبد.

والحسية الحيوانية: لها خمس قوى: سمع وبصر وشم وذوق ولمس، ولها خاصيتان: الشهوة والغضب، وانبعاثها من القلب.

والناطقة القدسية: لها خمس قوى: فكر وذكر وعلم وحلم ونباهة، وليس لها انبعاث، وهي أشبه الأشياء بالنفوس الملكية، ولها خاصيتان: النزاهة والحكمة.

والكلية الإلهية: لها خمس قوى: بقاء في فناء، ونعيم في شقاء، وعزّ في ذل، وفقر في غناء، وصبر في بلاء، ولها خاصيتان الرضا والتسليم، وهذه

---

(١) انظر مجمع البيان: ج٥، ص٤١٤.

هي التي مبدؤها من الله وإليه تعود. قال الله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾[(١)] وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[(٢)] والعقل وسط الكل»[(٣)].

وتعبيره عليه السلام بالقوى كاشف عن المراتب والمقامات لا الأقسام.

حقيقة النفس وتجرّدها

بقي هنا أمران:

الأول: حقيقة النفس.

إن النفس الناطقة الإنسانية إلهية النشأة، وهي من أمر الله تعالى يعدها بعض أهل المعقول جوهراً مجرداً في ذاته، وباعتبار تجردها يسمها الحكماء (العقل)، ولأنها تتعلق بالبدن تعلق تدبير وفعل تسمى بالنفس، ولها وجهان. وجه يرتبط بالعالم العلوي أي بالملكوت الأعلى يستفيض العلوم النظرية من عالم الغيب، وآخر يرتبط بالعالم السفلي الناسوتي به تفيض و تدبر البدن وقواه وأفعاله ويعبر عن الأول بالعقل النظري، وعن الثاني بالعقل العملي، ولذا قسموا قوى النفس تقسيماً رباعياً هي: القوة العقلية الملكية، والغضبية السبعية، والشهوية البهيمية، والوهمية الشيطانية، وكلها

---

(١) سورة الحجر: الآية ٢٩.

(٢) سورة الفجر: الآيتان ٢٧-٢٨.

(٣) كتاب المشاعر: ص١١٩؛ وانظر التعليقة على الفوائد الرضوية: ص١٢١؛ كشكول البهائي: ج٢، ص١٦٧-١٦٨، (مع اختلاف يسير بين المصادر).

ضرورات تتقوم بها وتكتمل إذا أدت وظيفتها في مواردها، ولو طغت إحداها على الأخرى خرج الإنسان عن التوازن والاعتدال، فبالقوة العقلية يطلب العلوم والمعارف والسجايا الحسان، ويسعى لكماله واكتماله، وبالقوة الغضبية يجاهد ويذود المخاطر عن نفسه، وبالشهوية يقوّم بدنه بالطعام والشراب ويتوالد، وبالقوة الوهمية يتحذر من رذائل الأخلاق والأعمال ويراقب نفسه عن الانحدار فيها، فإنه لولا المراقبة والتحدي ومجاهدة الوهم والشيطان تبرد جذوة الإرادة والشوق وتفتر الهمة عن العمل ولا يرتقي الدرجات، فالقوة الوهمية كالغضبية والشهوية إذا وظفت في موردها الصحيح كانت عنصر قوة وارتقاء، وإلّا قادت صاحبها إلى الهلاك.

الثاني: عدم تجرد النفس.

قال بعض أهل المعقول: إن النفس جوهر مجرد ليس من عالم الماديات والجسمانيات، بل الأدلة على تجرّدها ومغايرتها للجسم كثيرة(١).

منها: أن الجسم وأعضاءه وقواه في حالة تبدّل وتغيّر مستمر في الحالات والصفات، بل وفي الذات أيضاً بناء على الحركة الجوهرية، وأما النفس الناطقة فباقية ثابتة لا تتغير من أول العمر إلى آخره.

ومنها: أن النفس لا تغفل عن نفسها في كل الأحوال؛ لأنها تعلم بذاتها حضورياً. نعم قد تغفل في حالة السكر أو النوم، ولكن سرعان ما تتذكر في اليقظة، وهذا لا يضر؛ لأن النوم يمنع من الالتفات، ولا يسلب النفس

---

(١) كشف المراد: ص١٩٤، المسألة الرابعة: في أن النفس ليست هي البدن.

علمها بنفسها بينما يمكن أن تغفل عن بدنها وأرواحها البخارية، وهذا المغفول عنه يغاير غير المغفول عنه.

وحاصل الكلام: أن تجرد النفس مقتضى الأدلة العقلية والنقلية، وتعلقها بالبدن تعلقاً تدبيرياً كملاح السفينة لها والسلطان بالسلطنة، وبما أنها من عالم المجردات وليست من عالم الماديات فمعرفتها معرفة حقيقية محال، وبهذا يفهم معنى الحديث: ﴿من عرف نفسه فقد عرف ربه﴾[1] لأن كليهما من سنخ واحد وهو المجردات وبما أن الإنسان لا يعرف نفسه إذاً لا يعرف ربه، ولو كان يعرف نفسه فقد أمكن أن يعرف ربه. هذا بناء على بعض التفاسير.

وربما يفسّر بأن من عرف نفسه بالفقر والحاجة وعرف تركيبه الجسماني والحكم المترتبة على خلق كل عضو من أعضائه يكون قد عرف ربه؛ لأن الممكن بحاجة إلى واجب غني عالم وحكيم، ومراتب الناس في هذه المعارف تختلف وترتقي حتى تزال الحجب عند بعضهم، ولعل هذا معنى ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً﴾[2] وطبعاً هذا لا يتنافى مع قولهم عليهم السلام: ﴿ما عرفناك حق معرفتك﴾[3] لأن الأول ناظر إلى درك الباطن القلبي والثاني ناظر إلى عدم إمكان معرفة الكنه والحقيقة.

---

(١) شرح الأسماء الحسنى: ج١، ص١٥١.

(٢) المناقب: ج١، ص٣١٧؛ شرح نهج البلاغة (لابن ميثم البحراني): ج١، ص٧٩.

(٣) عوالي اللآلئ: ج٤، ص١٣٣، ح٢٢٧؛ البحار: ج٦٦، ص٢٩٢، ح٢٣.

ولكن ثبت في علم الكلام مادية النفس وعدم تجردها[١]، ولو أرادوا من تجردها شفافيتها بالقياس إلى البدن الغليظ ارتفع الخلاف، وهذا الحديث المنقول عن كميل في تفسير النفس لا يثبت التجرّد إلّا ما يمكن أن يفهم من القسم الرابع، وهو الكلية الإلهية، ولكن الظاهر ليس المراد منها التجرد الحقيقي كالذات الإلهية، كلا وإنما المراد منها النفس المرتبطة بالله التي تتصف ببعض الكمالات التي تعطيها قدرة على التصرف والولاية في الكون؛ لتشبهها بصفات الخالق تعالى: ﴿عبدي أطعني تكن مثلي أو مَثَلي﴾[٢] وذلك لأن الصفات التي ذكرهاعليه السلام بعدها تحتمل معاني، فقوله: ﴿بقاء في فناء﴾[٣] أي بقاء لا يزول بعد الفناء في الله، أو هو بقاء بالعلة وفناء بالذات ﴿ونعيم في شقاء﴾[٤] أي نعيم معنوي في شقاء بدني ﴿وعزّ في ذل﴾[٥]أي عزّ التقرب إلى الله في ذل العبودية إلى الله، أو تذليل النفس بالزهد ونحوه.. ﴿وفقر في غناء﴾[٦] أي فقر بالذات وغناء بالواجب.

---

(١) راجع كشف المراد: ص١٩٥ المسألة الخامسة: في تجرد النفس وقد أقام الخاجة نصير الدين الطوسي عدة أدلة على تجرد النفس، وللعلامة الحلي نظر في بعضها.
وراجع القول السديد: ص١٧٣-١٧٦.

(٢) مشارق أنوار اليقين: ص١٠٠؛ الجواهر السنية: ص٣٦١.

(٣) التعليق على الفوائد الرضوية: ص١٢١؛ كتاب المشاعر: ص١١٩.

(٤) التعليق على الفوائد الرضوية: ص١٢١؛ كتاب المشاعر: ص١١٩.

(٥) المصادر نفسها.

(٦) المصادر نفسها.

فالحديث وصف نفوس أصحاب الولاية التي تحظى بالقرب وتقوم ببعض التصرفات الإلهية، ويزيده أن لها خاصيتين هما التسليم والرضا، وهذا لا يتم إلّا لأصحاب الولايات الكلية، وسمّاها إلهية مع أنها ليست إلهية بالمعنى المصطلح؛ لأن الإضافة تكفي فيها أدنى نسبة، والارتباط بالله هنا نسبة مناسبة لإطلاق هذا الاسم على النفس الممكنة المادية.

وكيف كان، فإن الفقرة المتقدمة ظاهرة في ملازمة النقص والشر للنفس البشرية، ولذا توقع صاحبها بالعصيان، وقصوره الذاتي يمنعه من تجاوزه لولا شمول الرحمة له، وعليه فإن المطيع لا يكون مطيعاً مالم يوفقه الله ويلطف بحاله، وإلّا وقع في المطال، وهو صيغة فعال من مصادر باب المفاعلة، مثل: قتال، ويصح أن يضاف إلى الفاعل والمفعول، والمطل في اللغة: التسويف والمدافعة بالعِدة والدين[١].

وفي المجمع: اللي والتسويف والتعلل في أداء الحق وتأخيره من وقت إلى وقت[٢]، والمعنى فيما نحن فيه ظاهر، وهو من أخطر الأمراض التي تعيق الإنسان عن النجاح والاستقامة.

وبعد تشخيص الأمراض والإقرار بها يسأل العلاج، وأول مفاتيح العلاج بل دواؤه البالغ هو الدعاء، ولذا يقول: ﴿فأسألك بعزتك أن لا يحجب عنك دعائي سوء عملي وفعالي﴾.

---

(١) لسان العرب: ج١١، ص٦٢٤، (مطل).

(٢) مجمع البحرين: ج٥، ص٤٧٣، (مطل).

﴿يا سَيِّدي فَأَسْأَلُكَ بِعِزَّتِكَ أنْ
لا يَحْجُبَ عَنْكَ دُعائي سُوءُ
عَمَلي وَفِعالي﴾

أسباب موانع الدعاء

الياء للنداء، والغاية منه الاستغاثة بمن يملك تدبير الأمور وإليه يلتجأ، ولذا وصف المنادى (بسيدي) ولم يصفه بالمالك أو الرب؛ لأن السيد هو المالك لمن يجب عليه طاعته، وبيده تدبير أمره؛ لذا يقال سيّد القوم ولا يقال مالكهم؛ كما لا يقال سيّد الدابة أو الدار بل مالكها، ولهذا الاعتبار قال تعالى: ﴿**وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ**﴾[1] لأنه زوجها والمتولي لتدبير أمرها، فلا يقال السيد إلّا لمن يعقل على من يعقل، والمالك أعم[2]، والسيد مشتق من السواد وهو خلاف البياض[3]، ويطلق على الجمع الكثير من الناس سواد؛ لظهورهم وغلبتهم في النظر، وهو في الماديات ظاهر، وأما في المعنويات فيطلق على كل عظيم المجد شريف؛ لعلوه وتميزه عن سائر الناس، كتميز السواد عن البياض سواء تميز بالعلم أو القدرة أو الوجاهة أو التدبير على سبيل الانفراد أو الانضمام، وبهذا الاعتبار يطلق على كل رفيع متميز سيّد، كما يقال القرآن سيد الكلام، والنبي صلى الله عليه وآله سيد ولد آدم، أو لأن الناس يلتجئون إلى سواده أي شرفه ووجاهته، وقد وصف الحسنان عليهما السلام بسيدي شباب أهل الجنة باعتبار علو مكانتهما على أهل الجنة طراً؛ لأن أهلها كلهم

---

(١) سورة يوسف: الآية ٢٥.

(٢) معجم الفروق اللغوية: ص٢٩٠، (١١٦٠).

(٣) معجم مقاييس اللغة: ص٤٧٥، (سود)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٤٦٠-٤٦١، (ساد).

شباب، أو باعتبار توليهما لتدبير أمورهم فيها، ومثله يقال في معنى الحديث: (العلماء سادة)[١].

كما أن الربّ أعم منه؛ لأن الربّ هو الذي يربي وينمي ويصلح الشيء بالنعم، وهو يشمل العاقل وغير العاقل؛ لذا لا يقال بنحو المطلق إلّا على الله سبحانه، ويقال لغيره بالإضافة، كقولهم ربّ الأُسرة وربّ العمل ونحو ذلك[٢]، فالربوبية للعاقل هي سيادة وتولٍ لأمره، وأما لغير العاقل فلا يقال لها سيادة إلّا بضرب من المجاز.

ولأن الداعي في مقام الاستغاثة والاستمداد لإصلاح أمره عند ربّه وذلك لا يصح إلّا ممن يتولى أمره ناداه بيا سيدي دون غيره من الاوصاف.

وتفيد الفقرة المباركة أن سوء الأعمال وقبائح الأفعال مانع من استجابة الدعاء، ومانعيتها إما كأثر وضعي تكويني لها كما يحجب السحاب نور الشمس، أو كأثر جعلي اعتباري بأن يقدر الخالق عزّ وجل أن لا يستجيب لسيّء الأعمال؛ لأن سوء الأعمال يبعد العبد من ربّه، وهذا البعد يرد العبد، ويجعل دعاءه عند مولاه غير مسموع. هذه هي الحقيقة التي تشير إليها فقرة الدعاء هنا، وفيها مفردات تستدعي الشرح وهي: الفاء والعزة والحجب والعمل والفعل فنقول:

الفاء في قوله ﴿فأسألك﴾: إما للتفريع عما مضى، فبعد الإقرار على نفسه بالعجز والتقصير والحاجة تعيّن أن يستمد منه ما يدفع عنه ذلك،

---

(١) انظر مجمع البحرين: ج٣، ص٧٢-٧٣، (سود).

(٢) معجم الفروق اللغوية: ص٢٤٧، (٩٧٥)؛ مفردات الراغب: ص٣٣٦، (رب).

وإما لبيان السببية؛ لأنها تنبئ عن وجود سبب لم يذكر؛ لعدم الملاحة في ذكره، وهي ما يسميها بعض أهل الأدب بالفاء الفصيحة؛ لإفصاحها عن وجود سبب محذوف[١].

وقال (أسألك) ولم يقل (أدعوك) أو (أطلب)؛ لاقتضاء الحال ذلك، فإن المسألة مقرونة بالخضوع والاستكانة والإقرار بالحاجة وإظهارها بالكلام فهي أخص من الدعاء، ولذا يتعدى الدعاء بإلى فيقال دعاه إلى الإسلام، وبالباء فيقال دعوت الله بالإسلام، ولا يكون مع الاستكانة إلّا إذا كان لله تعالى[٢].

كما أنّها أخص من الطلب؛ لأنه إظهار الحاجة بالقول والفعل بالسعي إليها وقد يكون مع الخضوع والاستكانة وقد لا يكون، فالأنسب بمقتضى الحال هو السؤال.

والعزة: هي الشدة والقوة وما ضاهاهما من الغلبة والقهر[٣]، فهي حالة مانعة لصاحبها من الغلبة عليه، والعزيز هو الذي يقهر ولا يُقهر. قال تعالى: ﴿**إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾[٤] والباء سببية ومن هنا سأل عليه السلام بها في عدم حجب الدعاء.

---

(١) انظر أسرار العارفين: ص٢٢٨؛ تفسير الكشاف: ج١، ص١٤٤.

(٢) معجم الفروق اللغوية: ص٤٩٤، (١٩٩٨).

(٣) معجم مقاييس اللغة: ج٤، ص٣٨، (عزّ)؛ معجم الفروق اللغوية: ص٣٥٥، (١٤٣٥)؛ مفردات الراغب: ص٥٦٣، (عزّ).

(٤) سورة العنكبوت: الآية ٢٦.

والحجب: المنع من الوصول(١)، ومنه الحجاب، قال تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾(٢) يراد به ما يمنع وصول لذة أهل الجنة إلى أهل النار، وأذية أهل النار إلى أهل الجنة، وقال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾(٣) أي ممنوعون من وصول رحمة ربهم إليهم، أو من وصول دعائهم وتوسلهم كناية عن الإجابة، وهنا نكتة معرفية عميقة، وهي أن الآية وصفت المكذّبين الكافرين بأنّهم محجوبون للإشارة إلى أمرين:

الأول: أنّ الكذب بالله والكفر يجعل العبد قاصراً عن استحقاق الرحمة؛ لأنه ظالم لنفسه ولربه، وهو من الظلم العظيم الذي لا يغفر ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء﴾(٤).

الثاني: أن حجبهم بمعنى منع وصول صوتهم ودعائهم إلى ملائكة الرحمة فيزدادون عذاباً.

وأما العمل والفعل فقد قيل في معناهما والتفريق بينهما كلام كثير(٥)، إلّا أن الصواب هو أن العمل والفعل لغة وعرفاً من قبيل الفقير والمسكين إذا افترقا دل كل واحد منهما على الآخر، وإذا اجتمعا كان العمل أخص من الفعل من وجوه:

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ج٢، ص١٤٣، (حجب)؛ مفردات الراغب: ص٢١٩، (حجب).

(٢) سورة الأعراف: الآية ٤٦.

(٣) سورة المطففين: الآيتان ١٥-١٦.

(٤) سورة النساء: الآية ٤٨.

(٥) انظر مفردات الراغب: ص٥٨٧، (عمل)؛ وانظر الفروق اللغوية: ص٣٢٣، ١٢٩٠؛ لسان العرب: ج١١، ص٤٧٥، (عمل)؛ ص٥٢٨، (فعل).

أحدها: لأن العمل يطلق على كل فعل يقع بالقصد والاختيار، بخلاف الفعل؛ لأنه قد يصدر من غير قصد واختيار، ولذا ينسب الفعل إلى الحيوان والجماد دون العمل إلّا بنحو من المجاز، وعلى هذا فالعمل أخص من الفعل. من هنا يطلق العمل على فعل الإنسان في الصالحات والسيئات. قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ**﴾(١) وقال سبحانه: ﴿**مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ**﴾(٢).

وقد غلب في الآيات الشريفة إطلاق لفظ العمل على فعل الإنسان؛ لأنه فاعل بالقصد والإرادة.

ثانيها: أن العمل إيجاد الأثر في الشيء. يقال فلان عامل البناء، وفلان يعمل مزارعاً، وفلان يعمل الطين خزفاً، ويعمل العجين خبزاً وهكذا ولا يقال: يفعل ذلك، وعلى هذا فالعمل هو الفعل المتعدي إلى الغير بخلاف الفعل فإنه يشمل المتعدي وغيره.

ثالثها: أن العمل يصدر عن العلم، لسد الحاجة، والفعل أعم(٣).

وسأله بعزّته؛ لأن العبد الذليل في موقع الحاجة يسأل من تلك الجهة التي يحب فيها المدعو أن يدعى فيجيب، وفي قبال ذلّة العبد عزّة الرب، وفي قبال فقره غناه.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٧٧.

(٢) سورة النساء: الآية ١٢٣.

(٣) معجم الفروق اللغوية: ص٣٢٢، (١٢٩٠).

ومن الواضح أنّ التعدية بـ(عن) في قولهعليه السلام: ﴿لا يحجب عنك دعائي﴾ يكون قد سأل رفع موانع إجابة الدعاء واستماعه لا أن تحجب نفس العبد من الدعاء؛ لأن سوء الأعمال تارة تحجب عمل العبد، وتارة تحجب العبد نفسه بأن تبعده من الرحمة، وتجعله مغضوباً عليه من قبل سيّده، فحجب الدعاء تارة ينشأ من عدم لياقة العمل فيكون مانعاً من الإجابة وإن كان العبد صالحاً، وتارة يكون من عدم لياقة العامل نفسه، وهنا يكون سقوط العبد عن رتبة العبودية مانعاً من إجابة دعائه، والأول أهون من الثاني، والأثر المترتب على المطلبين كبير؛ لأن حجب عمل العبد يمكن أن يرفعه العبد ببعض الأعمال الصالحة كما سترى، وأما حجب العبد نفسه فلا علاج له سوى النار والعياذ بالله.

ومن هنا يعد أهل المعرفة سدّ باب الدعاء من أسباب الشقاء والنقمة، وهو أشق من سدّ باب الإجابة، لأنّ سدّ باب الدعاء من علامات الإبعاد والطرد من ساحة الربوبية، بخلاف سدّ باب الإجابة؛ إذ قد لا يستجاب دعاء العبد لمصالح دينية أو دنيوية تقتضيها الحكمة الإلهية وهو لا يعلمها، وليس لطرد العبد نفسه، وبجهله يظن أن دعاءه رُدَّ وليس كذلك، بل أجيب في حقه دعاء أكبر وأهم وفيه تحقيق مصلحة، ولذا قالوا: إن فتح باب الإجابة والاستجابة هو نفسه نوع طرد من ساحة العبودية؛ إذ ما من شيء يظهر فيه العبد تذللّه أمام مولاه وخشوعه وانقياده كالدعاء والمسألة، فإذا أجيبت دعوته عاجلاً كانت علامة على أن المولى لا يحب سماع استغاثته ودعوته ومناجاته، وهو عقاب ليس فوقه عقاب عند المحبين.

وقد استجار الإمام زين العابدين وسيد الساجدين عليه السلام بربه من أن يبعده عنه في مناجاته المعروفة؛ لأن بعد العبد عن الرب هو من أعظم المصائب والويلات عند أهل المعرفة. يقول فيها: «اللهمّ إنّي كلما قلت قد تهيأت وتعبأت وقمت للصلاة بين يديك وناجيتك ألقيت عليّ نعاساً إذا أنا صليت، وسلبتني مناجاتك إذا أنا ناجيت، ومالي كلما قلت قد صلحت سريرتي وقرب من مجالس التوابين مجلسي عرضت لي بلية أزالت قدمي، وحالت بيني وبين خدمتك.

سيدي لعلك عن بابك طردتني، وعن خدمتك نحيّتني! أو لعلك رأيتني مستخفاً بحقك فأقصيتني! أو لعلك رأيتني معرضاً عنك فقليتني! أو لعلك وجدتني في مقام الكاذبين فرفضتني! أو لعلك رأيتني غير شاكر لنعمائك فحرمتني! أو لعلك فقدتني من مجالس العلماء فخذلتني! أو لعلك رأيتني في الغافلين فمن رحمتك أيستني! أو لعلك رأيتني آلف مجالس البطالين فبيني وبينهم خليتني! أو لعلك لم تحب أن تسمع دعائي فباعدتني»[1].

ونلاحظ هنا تشديد الخوف من بعد العبد نفسه من الله سبحانه؛ لأن هذا عذاب ما فوقه عذاب، ولا علاج له بعد ذلك سوى تطهير العبد نفسه بالنار، بينما العذاب الناشئ من سوء العمل فهو قابل للجبران والغفران

---

(١) الصحيفة السجادية: ص٢٢٢؛ وانظر مصباح المتهجد: ص٥٨٨؛ إقبال الأعمال: ج١، ص١٦٤؛ مفاتيح الجنان: ص٣٠٧، مناجاة أبي حمزة الثمالي.

بالأعمال الصالحة؛ لأنّ الطاعة قد تمحي المعصية، والحسنة قد تمحي السيئة، ومن هنا سأل الإمامعليه السلام أن لا تحجب دعاءه سوء الأعمال والفعال.

و(الفعال) في فقرة الدعاء يمكن أن يقرأ بالفتح وبالكسر، ولكل منهما معنى، فإنه بالفتح مصدر أو اسم مصدر، وبالكسر اسم وهو جمع فعل، والفرق بينهما أنه على القراءة الأولى يكون معنى الفعال نتائج الأعمال وآثارها الوضعية، فيكون عطف الفعال على الأعمال من باب عطف المسبّب على السبب، كما يقال (طلعت الشمس والنهار) للإشارة إلى الملازمة بينهما، وعلى هذا المعنى تكون النتائج المترتبة على الأعمال من سواد القلب وقساوته، وسوء الأخلاق، وموت الضمير ناشئة من سوئها، ومن الواضح أن ظلمانية النفس وتلوثها تحجبها عن ربّها فلا يستجاب لها دعاء، ولا يقبل منها عمل.

وأما على القراءة الثانية فيكون العطف من عطف العام على الخاص؛ لما عرفت من أنّ الأعمال هي الأفعال الصادرة عن قصد وإرادة، بينما الأفعال أعم منها فتشمل حتى الأعمال الناشئة من الجهل والقصور في العبد كقلّة المعرفة وسوء الظن، وحب الدنيا، والإرهاق البدني أو النفسي الذي يمنع العبد من مزيد العبادة والطاعة.

فإنّ النوم أمر لا إرادي في العبد، وفي حقيقته يمنع العبد من فرص الخير كصلاة الليل ومناجاة السحر، والجهل وقلّة المعرفة وإن كانا لقصور العبد عن الإحاطة التامة بمعرفة ربّه إلّا أنهما يمنعان من الرقي والقرب، ولذا لا مناص للعبد من رفع هذا القصور ولا يتم إلّا بالدعاء والتوسل في

أن لا يظهر الخالق المالك للأمور آثارها السيئة على العبد فيمنعه من مواصلة الارتقاء والتقرب.

موانع إجابة الدعاء

والسؤال هنا ما الذي يمنع دعاء العبد ويحجبه من الأثر؟

والجواب: موانع عديدة تقدمت الإشارة إلى بعضها، وهنا نذكر بعضها الآخر فنقول: إنّ من أبرز موانع الدعاء أربعة:

المانع الأول: سهو القلب وغفلته ولهوه عن ربّه قبل الدعاء وفي أثنائه؛ لأنّ الغفلة تسقط العبد من مراتب العبودية وتفقده لياقة الاستماع والإجابة، وقد ورد عن النبي المصطفى صلى الله عليه وآله: «أنّ الله لا يستجيب دعاء من قلبه لاه»[1]

وفي رواية سليمان بن عمرو قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إنّ الله لا يستجيب دعاء بظهر قلب ساه، فإذا دعوت فأقبل بقلبك ثم استيقن الإجابة»[2] ويشير الحديث إلى وجود المسانخة بين الفعل وأثره في الإجابة وعدمها؛ لأنه يفيد أمرين:

الأول: أنّ سهو قلب العبد وعدم التفاته إلى ربه يقابل بعدم الالتفات إليه وإجابته، وفي المقابل أن الإقبال بالقلب يقابل بالإقبال في الإجابة، وفي هذا روي: «أنّ موسى عليه السلام مرّ برجل ساجد يبكي ويدعو ويتضرّع، فقال

---

(١) دعوات الراوندي: ص٣٠، ح٦١.

(٢) الكافي: ج٢، ص٤٧٣؛ البحار: ج٩٣، ص٣٠٥، ح١.

موسى: يا رب، لو كانت حاجة هذا العبد بيدي لقضيتها، فأوحى الله عزّ وجل إليه: يا موسى إنّه يدعوني وقلبه مشغول بغنم له، فلو سجد حتى ينقطع صلبه وتتفقأ عيناه لم أستجب له﴾ وفي رواية أخرى: ﴿حتى يتحوّل عما أبغض إلى ما أحب﴾[١].

الثاني: أن العلم واليقين بالإجابة -والذي يمكن أن نعبّر عنه بحسن الظن والثقة بالله سبحانه- من أسباب الإجابة، وبخلافه الشك فإنّه يدلّ على عدم الثقة بالله، ومن الواضح أن عمل الإنسان يقابل بمثله؛ لأنّ الله سبحانه عند حسن ظن عبده، وهذا سرّ من أهم أسرار انقطاع الرحمة وعدم إجابة الدعوات على الرغم من كثرتها.

المانع الثاني: عدم الصلاة على محمد وآله عليهم السلام؛ لأن الصلاة عليهم هي دعاء لهم، وهي بمنزلة الطاقة الكبيرة التي توفر في دعاء العبد أهلية الصعود والتقرب إلى الرب تبارك وتعالى، فإذا لا يتضمن الدعاء ذلك يكون بمنزلة الطائرة التي لا وقود فيها، فإنّها وإن كانت في ظاهرها طائرة إلّا أنها لا تؤدي عمل الطائرة من حيث الأثر، وهذا سر آخر من أسرار موانع الدعاء، وقد ورد عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿كل دعاء محجوب عن السماء حتى تصلي على محمد وآله﴾[٢] وقريب منه ورد عن الصادق عليه السلام في رواية هشام بن سالم[٣].

---

(١) إرشاد القلوب: ج١، ص١٤٩، (بتصرف)؛ مقتنيات الدرر: ج١، ص١٨١-١٨٢.

(٢) ثواب الأعمال: ص١٥٥.

(٣) انظر أمالي الطوسي: ص٦٦٢، ح١٣٧٩.

المانع الثالث والرابع: أكل الحرام وظلم العباد، فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إذا أراد أحدكم أن يستجاب له فليطيب كسبه، وليخرج من مظالم الناس، وإن الله لا يرفع إليه دعاء عبد وفي بطنه حرام، أو عنده مظلمة لأحد من خلقه»[(١)] والسبب أن لقمة الحرام إذا دخلت جوف ابن آدم سوّدت قلبه ونفسه، ولوثته بفعل الشيطان فسقط عن مراتب العبودية من حيث نفي المقتضي أو وجود المانع؛ لأن الحرام والظلم يبغضهما الباري ويحجبان إجابة الدعاء والمبغوض يمنع المحبوب، فلذا لا يستحق الإجابة.

وفي هذا حكي أنه كان بالكوفة أناس يستجاب دعاؤهم، فكلما دخل عليهم وال ظلوم كانوا يدعون عليه فيهلك، فلما ولي الحجاج الكوفة من عبد الملك بن مروان دعاهم إلى مأدبته، فلمّا أكلوا قال: الآن أمنت من دعائهم فليدعو عليّ ما شاؤوا[(٢)]، ومضافاً إلى الكسب الحرام فإن مظالم العباد هي الأخرى من موانع الإجابة، فعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «إن الله تبارك وتعالى أوحى إلى عيسى بن مريم عليهما السلام قل للملأ من بني إسرائيل: لا تدخلوا بيتاً من بيوتي إلّا بقلوب طاهرة وأبصار خاشعة وأكف نقيّة، وقل لهم: اعلموا أنّي غير مستجيب لأحد منكم دعوة ولأحد من خلقي قبله مظلمة»[(٣)]

والمراد من طهارة القلب -بقرينة مناسبة الحكم والموضوع- نظافته المادية من أكل الحرام، ونزاهته المعنوية من سوء النية وسوء الاعتقاد

---

(١) فلاح السائل: ص٣٨-٣٩؛ البحار: ج٩٠، ص٣٢١، ح٣١.

(٢) انظر مقتنيات الدرر: ج٢، ص٢٦.

(٣) الخصال: ص٣٣٧-٣٣٨؛ وانظر البحار: ج٧٥، ص٢٧، ح٩٣.

ونحوهما، والأبصار الخاشعة تشمل البصر والبصيرة، وذلك بتوظيف النظر بهما إلى ما يحبه الله ويرضاه، ومن أسمى ما يطلب منهما هو الاعتبار وترك النظر والفكر فيما لا يعني، والأكف النقيّة أي من الحرام والعدوان على الآخرين، والسر في عدم إجابة دعاء من عليه مظلمة ورد في أمالي الصدوق عن الصادقعليه السلام قال: ﴿إذا ظلم الرجل فظل يدعو على صاحبه قال الله جلّ جلاله: إنّ ها هنا آخر يدعو عليك يزعم أنك ظلمته، فإن شئت أجبتك وأجبت عليك، وإن شئت أخرتكما فيوسعكما عفوي﴾[1].

ونلاحظ من هذه الرواية الشريفة شدة المسانخة والارتباط بين فعل العبد وآثاره، فانّ الظالم اعتدى على غيره ولم يستجب لنداء الضمير والحق ولا يستجيب لغيره فيرد ظلامته فيقابل بالمثل فلا يستجاب له، وهذا ما تقتضيه الحكمة؛ لأن الاستجابة للظالم ظلم مضاعف بالمظلوم، وتشجيع على الظلم.

ويستفاد من الرواية أيضاً أن وقوع العبد في تهمة الظلم ومظانه هو أيضاً من موانع الدعاء، وهذا يوجب على العبد أن يتعامل مع الناس معاملة حسنة سالمة من الأوهام والشكوك والتوهمات الباطلة.

فلا يتنازع مع أحد على شيء من حطام الدنيا وإن كان محقاً مصيباً؛ لأنّه لا يكفي في حقه أن يرى نفسه مظلوماً محقاً، فإن الطرف الآخر قد يراه ظالماً مخطئاً، وهذا من شأنه أن يشغله بمساوئ النزاعات والتخرّصات، وربما

---

(١) أمالي الصدوق: ص٣٩٦، ح٥٠٩.

الوقوع في فتنه المعاصي الاجتماعية من سوء الظن والحقد والعداوة والعنف ونحوها، فينزل عن مقام العبودية، ويحجب دعاءه بنفسه، أو يحجب بسبب دعاء الغير عليه، وهذه حقيقة هامة تستفاد من هذه الروايات الشريفة قد يغفل عنها الكثير من الصالحين حتى من أهل الفضل والمكانة.

في طلب المحال

وهنا سؤال آخر خلاصته: أن المستفاد من ظواهر الأدلة والأخبار هو أن الأعمال السيئة والمعاصي علة لمنع الدعاء وحجبه، فكيف يسأله تعالى أن لا تحجب هذه الأعمال دعاءه، وهل هذا إلّا سؤال المحال؛ لأن انفكاك المعلول عن العلة محال؟ إذ الحجب معلول المعصية فكيف يتخلف عنها؟

والجواب من وجوه:

الأول: أن المعاصي ليست في رتبة علة حجب الدعاء، بل هي مقتض لذلك، والمقتضي لا يؤثر أثره إذا ابتلي بالمانع، والمانع هنا قد يكون إرادة الله سبحانه، فإنه إذا أراد أن يستجيب لعبده استجاب ولو كان عاصياً، ولعل من دواعي الاستجابة له نيّته الحسنة، أو بعض أعماله الصالحة التي جعلته يستحق الإجابة، أو استجابة دعاء الآخرين في حقه، إلى غير ذلك من دواع وأسباب.

وقد تكون التوبة من المعاصي، فإنّ العبد إذا تاب إلى ربه يكون قد أزال المانع من الإجابة، فإن الحسنات يذهبن السيئات، وعلى هذا فإن الطلب هنا لرفع المانع بعد وجوده.

الثاني: وربما يكون الطلب لدفع المانع قبل وجوده، بأن يسأل أن يعطيه عصمة من الذنوب والمعاصي من أول الأمر لكيلا يبتلى بحجب الدعاء، وفي هذا المضمون ورد الخبر في فقه الرضا عليه السلام: «أن الدعاء يدفع من البلاء ما قدّر وما لم يقدّر» قيل: وكيف يدفع ما لم يقدّر؟ قال: «حتى لا يكون»[(١)] إلّا أن هذا المعنى خلاف المتبادر من فقرة الدعاء الشريف.

إذ الظاهر أنه سأل أن يرفع مانعيّة أعماله من استماع دعائه، لكنّه محال؛ لأنّ اللوازم والآثار الشرعية كاللوازم والآثار التكوينية في الامتناع والاستحالة، وقانون الأسباب والمسببات حاكم على عالم المعنويات كما هو حاكم على عالم الماديات.

الثالث: أنّ الطلب هنا ليس لإلغاء قانون العلية، بل لإبطال علية العلة تكويناً، ويمكن توضيحه بأكثر من بيان:

البيان الأول: أن نقول بأن المراد أن لا تجعل المعصية سبباً لحجب دعائه، وهذا ممكن عقلاً؛ لأنّ الأشياء بيد الله سبحانه، وهو الذي خلق ذات العلة وأعطاها صفة العلية، وأوجد المسانخة بينها وبين معلولها، وهو المهيمن على كل شؤونها، فله أن يبطل ذات العلة، وله أن يبطل آثارها، والدعاء هنا تعلّق بإزالة الأثر لا المؤثر؛ لأن العبد قد لا ينفك من القصور في حق ربه إما من جهة القصور الذاتي أو الفعلي بما أنه مخلوق عاجز لا يملك لنفسه نفعاً

---

(١) فقه الرضا عليه السلام: ص٣٤٥، وانظر البحار: ج٩٠، ص٢٩٢، ح١٨.

ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً. قال تعالى: ﴿**قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلَّا مَا شَاء اللهُ**﴾[١].

والبيان الثاني: أن نقول بأن الأسباب والمسببات مجعولة من قبل الخالق تعالى إلّا أنّ السبب مقتض للتأثير وليس علة، وحتى يكون مؤثراً يتوقف على الإذن الإلهي والمشيئة الربانية. قال تعالى: ﴿**وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾[٢] وحتى للفاعل بالإرادة يقول تعالى: ﴿**وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاء اللهُ**﴾[٣] فالمشيئة الإلهية هي الجزء الأخير من العلة التامة، بل هي قوام العلية والسبب.

وبهذا يتضح أن الأسباب حتى في التكوينيات أمرها بيد الخالق عزّ وجل؛ لتوقفها على المشيئة الإلهية والإرادة، فما لم تتحقق المشية لم تكتمل علية الأسباب؛ إذ بلا إرادة الخالق لا يؤثر أي مؤثر في الكون، ولذا سأل أن لا تمنع المعاصي وسوء الأفعال من استجابة الدعاء، بمعنى أن لا يأذن بمنع المعاصي من دعائه وتحجبه عن الإجابة.

ولعل مما يقرب هذين المعنيين وقوع المعاجز والكرامات، فإنّ بعضها قد تقع بسبب إبطال أثر العلة والسبب، وبعضها قد يقع من جهة عدم الإذن الإلهي.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٨٨.

(٢) سورة التكوير: الآية ٢٩.

(٣) سورة الكهف: الآيتان ٢٣-٢٤.

فمثلاً: في إنقاذ إبراهيم عليه السلام خليله قال تعالى: ﴿**قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ**﴾[(١)] وقد روي أن الناس سعوا أربعين يوماً يجمعون الحطب للنار التي أوقدها نمرود لإحراق ولي الله، وقد جمعوا الكثير حتى إن النساء اللواتي كن يعملن الحياكة في البيوت خرجن وجمعن تلاً من الحطب، وأوصى المرضى المشرفون على الموت بقسم من أموالهم لشراء الحطب، وكان المحتاجون ينذرون لقضاء حوائجهم شراء الحطب حتى صارت ناراً عظيمة جبارة، ورموا إبراهيم فيها، وهنا تتجلى عظمة الله ومشيئته؛ إذ ورد بطرق الفريقين أنهم حين وضعوا إبراهيم بالمنجنيق وأردوا إلقاءه في النار جاء جبرئيل عليه السلام للقاء إبراهيم وقال له: ألك حاجة؟ فأجابه بعبارة في غاية المعرفة والإيمان. قال: ﴿أما إليك فلا، وأما إلى رب العالمين فنعم﴾ فقال جبرائيل: فاسأل ربك فأجابه: ﴿حسبي من سؤالي علمه بحالي﴾[(٢)].

وفي الأمالي عن الصادق عليه السلام قال: ﴿قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن إبراهيم لما ألقي في النار قال: اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد لما أنجيتني منها، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً﴾[(٣)].

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٦٩.

(٢) مقتنيات الدرر: ج٧، ص١٧١؛ بيان السعادة: ج٣، ص٥٥.

(٣) أمالي الصدوق: ص٢٨٧، ح٣٢٠؛ الوسائل: ج٧، الباب ٣٧ من أبواب الدعاء، ص١٠٠، ح٨٨٤٦.

وهنا أمر الباري عزّ وجل النار أمراً تكوينياً بأن لا تحرق إبراهيم عليه السلام، وتكون عليه برداً وسلاماً، فإن النار وإن كانت بالنسبة إلينا جماداً لا يصح خطابها وأمرها لكنها بالنسبة إليه تعالى عاقلة شاعرة مأمورة، كما أمر الباري عزّ وجل السماء والأرض بالإتيان: ﴿**قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾[١].

وهنا نكتة معرفية وتربوية هامة لنا نحن البشر، وهي أن لا نتعجل في إنكار الحقائق أو نتسرع في الحكم على الأشياء؛ لأننا لا ندركها أو لا نعرفها فنجعل من أنفسنا معياراً للعلم والمعرفة، بل هناك الكثير من الحقائق والمعارف الموجودة في هذا الوجود التي لا ندركها نحن ليس لقصور فيها، بل لقصورنا نحن وعجزنا عن دركها.

ولولا أن يقول الباري عزّ وجل: ﴿**كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ**﴾ لوقع أمران:

الأول: لولا أن يقول: ﴿**بَرْدًا وَسَلَامًا**﴾ لتضرر إبراهيم عليه السلام من أذى البرد، وفي بعض الأخبار أن أسنان إبراهيم اصطكت حتى أوشك على الموت إلّا أنّ قوله ﴿**سَلَامًا**﴾ جعله عليه نعمة ورحمة.

وفي رواية مشهورة أنّ النار تحولت إلى روضة خضراء[٢]، وفي بعض التفاسير أنّ إبراهيم عليه السلام في تلك الحالة كان أنعم عيشاً منه في سائر أحواله[٣].

---

(١) سورة فصلت: الآية ١١.

(٢) تفسير نور الثقلين: ج٣، ص٤٣٢، ح٧٩؛ مجمع البيان: ج٧، ص٩٩، تفسير الآية المزبورة.

(٣) تفسير الرازي: ج٢٢، ص١٨٩؛ وانظر تفسير الأمثل: ج١٠، ص١٣٧.

الثاني: لولا أن يقيّد الأمر بصيرورة النار برداً ﴿**عَلَى إِبْرَاهِيمَ**﴾ لعجزت النار عن الإحراق في الوجود، وتحوّلت إلى برد، فتكون كالهواء والماء، إلّا أنه سبحانه أراد اختصاص ذلك بإبراهيم عليه السلام كانت نار نمرود تحرق الناس حتى إنهم ما تمكنوا من الاقتراب منها، وألقوا إبراهيم فيها بالمنجنيق إلّا أنها لم تحرقه، وفي بعض الأخبار أن النار لم تعمل في الدنيا ثلاثة أيام(١).

ومن استعراض دلالة الآية في مفرداتها وظهورها نستفيد أن جعل النار برداً يمكن أن يكون من قبيل تبديل جوهرها بالأمر التكويني، وهذا كثير الوقوع في الخارج، كالمسوخ فإن الله سبحانه يبدّل حقائق الممسوخات بالأمر. قال تعالى: ﴿**كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ**﴾(٢) ويمكن أن يكون من قبيل سلب تأثيرها بسبب عدم الإذن لها بالإحراق، أو تكون من قبيل الحيلولة بين الشيء والآخر كما لو وضع الغلاف العازل الذي يمنع من الإحراق، وهذا ما قد تشير إليه بعض الأخبار.

ففي مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «إنّ نمرود الجبار لما ألقى إبراهيم عليه السلام في النار نزل إليه جبرائيل عليه السلام بقميص من الجنة وطنفسة -بساط- من الجنة، فألبسه القميص، وأقعده على الطنفسة، وقعد معه

---

(١) تفسير نور الثقلين: ج٣، ص٤٣٢، ح٧٩.

(٢) سورة البقرة: الآية ٦٥؛ وانظر مجمع البيان: ج١، ص٢٤٨ تفسير الآية المزبورة؛ وانظر الأخبار في هذا المضمون في تفسير نور الثقلين: ج١، ص٨٥-٨٦، ح٢٢٩، ح٢٣٠، ح٢٣١، ح٢٣٣.

يحدثه﴾[١] وربّما يصيّر جسم إبراهيمعَلَيْهِ السَّلَامُ على كيفية لا تحرقه النار كما يقال: إن بدن النعامة لا يتضرر إذا ابتلعت الحديدة المحماة، وبدن السمندل -وهو طائر- لا يضره المكث في النار[٢]، وأوراق السلفون الذي لا يحترق بالنار، فيلف به اللحم ويلقى فيها فيشتوي اللحم ولم يحترق، ومثله يمكن أن يقال في حجب العمل السيّء من الدعاء، فإنّه قد يكون من قبيل تبديل العمل السيّء إلى الحسن بالعفو والمغفرة؛ لأنّ: ﴿**الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ**﴾[٣] كما قال تعالى.

كما أنّ التائبين والعاملين للصالحات يبدّل الله أعمالهم الطالحة إلى صالحة؛ إذ قال عز وجل: ﴿**فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ الله سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ**﴾[٤] وقد يكون من قبيل الدعاء لسلب تأثير الإساءة في رد الدعاء وعدم استجابته، وقد يكون من قبيل وضع الحائل بين الإساءة وبين تأثيرها، وهذا أمر ممكن عقلاً، بل واقع خارجاً، وعلى كل حال فإنّ الدعاء الشريف ليس طلباً للمحال.

هذا وربما يجيب البعض عنه بجواب آخر، وخلاصته: أن سببية المعصية لرد الدعاء سببية شرعية اعتبارية لا حقيقية تكوينية، وقانون استحالة الانفكاك بين العلة والمعلول مختص بالأسباب التكوينية؛ لأن

---

(١) مجمع البيان: ج٧، ص٩٩، تفسير الآية المزبورة.

(٢) انظر تفسير الرازي: ج٢٢، ص١٨٩، تفسير الآية المزبورة.

(٣) سورة هود: الآية ١١٤.

(٤) سورة الفرقان: الآية ٧٠.

وجودها وعدمها حقيقي، وأما الاعتباريات فيمكن التفكيك بينها؛ لأنها وجوداً وعدماً ترجع إلى اعتبارات المعتبرين وجعل الجاعلين، ويمكن للجاعل أن يجعل السببية تارة ويمكن أن يلغيها، وعلى هذا فإن الدعاء هنا يكون طلباً لأن لا يجعل المعصية سبباً لحجب الدعاء، أو لأن يسلب تأثير المعصية برد الدعاء.

والصواب: أن هذا الجواب غير وجيه؛ لإشكالين أحدهما صغروي والآخر كبروي.

أما الأول: فإنّ تأثير المعصية برد الدعاء ليس من الأمور الاعتبارية، بل من الحقائق التكوينية الخارجية التي تخضع للقانون الحقيقي للأسباب والمسببات. نعم هو من الحقائق الواقعية المعنوية لا المادية، وعلى هذا لا ينطبق الجواب على ما ذكر.

وأما الثاني: فإنّا لا نسلّم بأن قانون السببية في الاعتباريات يغاير قانونها في التكوينيات؛ لأن ذلك حكم عقلي، والأحكام العقلية لا تقبل التخصيص؛ لاستلزامه التناقض، وعلى هذا فإننا إذ قبلنا بسببية المعصية لرد الدعاء فإننا لا يعقل بعد ذلك أن نقبل بإمكان الانفكاك بينهما؛ لأن إمكان الانفكاك يستلزم إما إلغاء السببية بينهما وهو خلف، أو إبطال سببية السبب وهو خلف أيضاً.

هذا فضلاً عما عرفت من أن العلاقة بينهما علاقة المقتضي والمانع لا السبب والمسبب فتأمل.

تصنيف موانع الدعاء

ولا يفوتنا هنا أن نذكر بأن موانع الدعاء على قسمين: موانع فردية تخص الشخص، وموانع جماعية تخص الأمة، وهي تظهر في الابتلاءات العظيمة والفتن والمفاسد العامة التي تظهر في الأمة فيدعو الناس ولا يستجاب دعاؤهم بسبب ما يرتكب نوع الناس من موانع للإجابة:

منها: ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإليه يشير الرضوي الشريف: ﴿لتأمرنّ بالمعروف ولتنهنَّ عن المنكر، أو ليستعملنّ عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم﴾[١] وفي النبوي المبارك أنه قال: ﴿لا تزال أمتي بخير ما أمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وتعاونوا على البر والتقوى، فإذ لم يفعلوا ذلك نزعت منهم البركات، وسلّط بعضهم على بعض، ولم يكن لهم ناصر في الأرض ولا في السماء﴾[٢] وعدم الناصر في الأرض يشمل انعدام الرحمة والتعاطف والتعاون، وعدم الناصر في السماء يشمل حجب الدعاء وعدم الاستجابة لهم.

وهذا موضوع هام قد نتعرض إليه فيما يأتي.

---

(١) الكافي: ج٥، ص٥٦، ح٣؛ الوسائل: ج١٦، الباب ١ من أبواب الأمر والنهي، ص١١٨، ح٢١١٣٠.

(٢) التهذيب: ج٦، ص١٨١، ح٢٢؛ الوسائل: ج١٦، الباب ١ من أبوب الأمر والنهي، ص١٢٣، ح١٨.

﴿وَلا تَفْضَحْني بِخَفِيّ مَا اطَّلَعْتَ
عَلَيْهِ مِنْ سِرّي﴾

الستر والفضيحة

السر إخفاء الشيء في النفس، فلو اختفى بستر أو وراء جدار لم يكن سراً[1]، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾[2] أي سرقتهم، ويشمل القبائح والمحاسن، وهنا أريد به الأول، ويشمل ذنوب الجوانح كسوء الظن والحقد والنفاق والأفكار والخواطر، والفضح كشف المستور، وفي الدعاء: «لا تفضحنا بين خلقك»[3] أي استر عيوبنا ولا تكشفها، أو اعصمنا حتى لا نعصي وتستحق الكشف[4] وبإضافة السر إلى المتكلم يستفاد أن سره لم يعرفه أحد إلّا الله سبحانه؛ لذا سأله أن يبقيه مستوراً ولا يكشفه، وبقرينة الفضيحة يكون المعنى أسألك أن تمحي الإساءات الخفية الباطنة التي تسقط العبد عن لياقة العبودية؛ إذ الإنسان إذا حجب دعاؤه عند ربه ابتعد عنه، وطرد من رحمته، وإذا انفضح أمام الناس ابتعد عن أهله وعشيرته ومجتمعه، وهذا هلاك في الدنيا وفي الآخرة؛ لذا يسأله أن يستر عيوبه ونواقصه السرّية التي لم يطلع عليها أحد سوى الله عزّ وجل.

---

(١) معجم الفروق اللغوية: ص٥٣٣، (٢١٤٥)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٣٢٨-٣٢٩، (سرر).

(٢) سورة يوسف: الآية ٧٧.

(٣) مجمع البحرين: ج٢، ص٣٩٩، (فضح).

(٤) رياض السالكين: ج٢، ص١٤٩؛ مجمع البحرين: ج٤، ص٤٠٦، (فضح).

أصناف الناس

وفي هذ الفقرة المباركة إشارة إلى حقيقتين هامتين في حياتنا نحن البشر:

الأولى: أن الأسرار لا تبقى أسراراً مهما طال الزمان أو خطط لإخفائها، بل في بعض الأخبار المباركة أنّ لله سبحانه ملائكة مهمتهم إذاعة أسرار الصالحين والطالحين حتى وإن سعوا لإخفائها.

والثانية: أن الناس بالقياس إلى ظاهرهم وباطنهم أصناف، ولكل صنف مظاهر وعواقب، فإنّنا إذا ألقينا نظرة إلى المجتمع البشري نجد أنّ بعض الناس يعيش حياته في وجهين: أحدهما ظاهر، والآخر باطن، وهذا الثاني يسمى سراً.

وعلى أساس هذين الوجهين يقيّم واقع الإنسان ويكتسب مكانته الحقيقية عند الله تبارك وتعالى، فإن الناس في هذين الوجهين على ثلاثة أصناف:

صنف وجهه الظاهر حسن فيبدو أمام الناس طيّب النفس، حسن الخليقة، معتدل السلوك، إلّا أنه في وجهه الباطن على خلاف ذلك، فتراه أمام الناس يمدحهم وإذا خلا في نفسه يذمهم، وفي الملأ يتظاهر بتمسكه بصلاته وحسن أخلاقه وإذا انفرد بأهله أو في بيته تهاون بها وأساء أخلاقه.

وصنف آخر وجهه الباطن حسن إلّا أنه أمام الآخرين يحمل وجهاً سيئاً، فإذا خلا في نفسه ندم على سوء خلقه، وتألم بسبب كلمة قالها جرح فيها قلب أحد، أو هدم من سمعة آخر، وهؤلاء أناس طيبّون في الغالب إلّا أنّ طباعهم تغلبهم أو الشيطان فيسيئون العمل.

وصنف ثالث وجهه الباطن والظاهر متفقان في المحاسن والقبائح، وأفضل الناس هو الذي اتفق ظاهره وباطنه ولم يكن بينه وبين الناس سراً يخفيه عليهم، بأن يقابلهم بوجه ويخفي عليهم وجهاً آخر.

وهذا هو الذي عمل عليه الأنبياء والأولياء عليهم السلام؛ إذ كانت غايتهم في تعليم البشر أن يكون ظاهرهم وباطنهم شيئاً واحداً، ولا يختلف أحدهما عن الآخر.

وأقبح الناس ذاك الذي يظهر بوجه حسن ويبطن الوجه القبيح؛ لأن الشخص الذي يحمل هذه الصفة هو مريض في قلبه وروحه، وهذا داء خطير يضر بدنيا الإنسان وآخرته.

علامة ذي الوجهين

وهكذا شخص تراه يحمل صفتين:

الأولى: الاهتمام بالمظهر لا بالمخبر، فيهتم بنظافة بدنه وتجميل منظره وتلميع وجهه وملابسه، ولا يهتم بنظافة روحه وقلبه وفكره.

والثانية: المبالغة في المجاملة الكاذبة، فيتودد إلى الناس، ويتقرّب لهذا بسبب ماله، ولذاك بسبب سلطته، ولآخر بسبب مكانته وهكذا، ولا يبالغ في أن يكون صادقاً في قوله مخلصاً في إظهار محبته للناس، فيظهر لهم وجهاً ويخفي عنهم آخر، وهذه الصفة من مراتب النفاق، وصاحبها من المنافقين، وفي هذا يقول الشاعر:

يعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ عنك كما يروغ الثعلب[1]

---

(١) حياة الحيوان الكبرى: ص٥١.

وروي فيه أن حكيماً دخل على رجل من أهل المظاهر فرأى داراً متجددة وفرشاً مبسوطة، ورأى صاحبها خالياً من الفضل والأخلاق الحسنة، فتنحنح الحكيم وبزق على وجه الرجل!! فتعجب الرجل وقال: ما هذا السفه أيّها الحكيم؟ فقال: بل هو عين الحكمة؛ لأنّ البصاق يليق بأخس ما كان في الدار، ولم أر في دارك أخس منك، فجعلته مكانه لخلوّك عن الفضائل الباطنة(١).

ومن نعم الله سبحانه على الإنسان أنه لا يتمكن من إخفاء سرّه على أحد وإن بالغ في إخفائه، لأن ما يضمر الإنسان شيئاً إلّا ويظهر على ظاهره، وهذا الظهور ناشئ من صراع الخير والشر، والحسن والقبح في فطرته، وإليه يشير ما ورد عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿ما أضمر أحد شيئاً إلّا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه﴾(٢).

وهذا أمر يتوافق مع البرهان؛ لأن الظاهر منشؤه الباطن، والسرّ دافع العلن، ولا يتمكن الإنسان أن يخفي هذه الحقيقة مهما سعى وعمل.

فعلى العاقل أن يهتم بتصحيح سرّه لكي يصح علنه، ويبالغ في تهذيب باطنه ليتنزّه ظاهره، ويكون من الصالحين، وهذا هو سرّ كبير من أسرار التوفيق في حياة الإنسان، وفي هذا ورد الحديث النبوي الشريف: ﴿من أصلح فيما بينه وبين الله أصلح الله فيما بينه وبين الناس،

---

(١) مقتنيات الدرر: ج٣، ص٢٧٢.

(٢) نهج البلاغة: ص٤٥٨، قصار الحكم ٢٢.

ومن أصلح جوانيّه أصلح الله برّانيّه، ومن أراد وجه الله أناله الله وجهه ووجوه الناس»(١).

وغالباً ما يبتلى أصحاب السر الفاسد بالفضيحة، فإن الله سبحانه يفضحهم، ويكشف سرائرهم، فعن الإمام الصادق عليه السلام: «ما من عبد أسرّ خيراً فذهبت الأيام أبداً حتى يظهر الله له خيراً، وما من عبد يسرّ شراً فذهبت الأيام أبداً حتى يظهر الله له شراً»(٢).

وهذه نتيجة حتمية تنشأ من سببين إلهي وطبيعي. أما السبب الإلهي فلأن الله سبحانه يكافئ الحسنة، ويجازي السيئة، فما أضمره الإنسان من حسن يكافئه بالإحسان، ومكافأة النية الحسنة والباطن الصالح بإظهار حسنه وصلاحه للناس.

وأما السبب الطبيعي فلأن الإنسان إذا حسنت سريرته حسنت علانيته، كما أن قبح سريرته يفضحه قبح علانيته؛ لأن ظاهر الإنسان هو انعكاس جوهره وباطنه.

فما أضمر الإنسان شيئاً إلّا وفضحه ظاهره، فأصحاب النوايا السيّئة يساقون إلى مصيرهم السيء، وأصحاب النوايا الخيّرة يساقون إلى مصيرهم الحسن.

---

(١) الكافي: ج٢، ص٢٩٤، ح٤؛ وانظر الوسائل: ج١، الباب ١٢ من أبواب مقدمة العبادات، ص٧١، ح١٥٩.

(٢) الكافي: ج٢، ص٢٩٣، ح٤؛ البحار: ج٦٩، ص٢٨٢، ح٤.

وفي هذا نقل أن أحد الأمراء كان جالساً على مائدة طعامه وقد شاركه في الطعام جمع من أصحابه وحشمه، ولمّا وضعوا الطعام إذا بأحدهم يضحك ضحكاً عالياً من دون مبرر، فتعجب الأمير وقال له: لماذا ضحكت؟ قال: تذكرت قصة. قال الأمير: وما هي؟ قال الرجل -وأراد أن يغطّي على الأمر- لا تستحق الذكر، فأصرّ الأمير أن يذكرها. قال الرجل: رأيت الحجل - بفتح الحاء والجيم[1]- وقد وضع على المائدة، فذكرني في رجل أحمق أتخذ الحجل شاهداً على قتله. قال الأمير: وكيف ذاك؟

قال الرجل: منذ عهد ليس بالقريب كنت سارقاً، وذات مرة لقيت إنساناً وحيداً يمشي في الصحراء فسلبته ما عنده، ثم خفت أن تنكشف القضية وأفتضح ففكرت في قتله، ولما جرّدت السيف أخذ يلتمس أن أتركه وأكتفي بسلب أمواله.

وقد قسا قلبي عليه، فكلّما كان يبالغ في الالتماس أبالغ في الإصرار على قتله، ولما يئس الرجل منيّ نظر يميناً وشمالاً علّه يجد أحداً ينقذه أو يجعله شاهداً على الجريمة، فلم يجد سوى سرب من الحجل فخاطبه قائلاً: أيّها الحجل اشهد لي أنّ هذا يقتلني ظلماً، فلم أمهله يكمل خطابه حتى علوته بالسيف وقتلته، ولما رأيت الحجل على المائدة ذكرت تلك القصة، وضحكني حمق الرجل إذ يجعل الحجل شاهداً!

---

(١) الحَجَل: طائر على قدر الحمام كالقطا، أحمر المنقار والرجلين، طيب اللحم يسمى (دجاج البر)، وهو من أطعمة الملوك - في الغالب-؛ انظر حياة الحيوان الكبرى: ج١، ص٢١٨.

فلما سمع الأمير ذلك قال له: نعم لقد شهد الحجل له فعلاً. يا جلاّد عليك بالنطع والسيف فاحضرهما، وربط يد الرجل ورجله وأخذ الرجل يلتمس فلم يستجب له حتى ضرب عنقه(١).

وهذه عاقبة الذي يكن للناس العداء والأذى، فلا ينبغي أن ينخدع الإنسان فيتصور أنه إذا أخفى سرّه أو أضمر الظلم للناس لا ينكشف ولا ينفضح أمره، فإنّ أفلاك الدنيا لا تدور عبثاً، ولا تمشي الأيام بلا حكمة، وكل شيء عند الله سبحانه محسوب ومراقب ومعاقب عليه، وربما يطول للامتحان وربما يقصر للانتقام كما قرر في علم الكلام.

يقول سبحانه: **﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾**(٢) ولا مخلص للإنسان من هذه العواقب الوخيمة إلّا بأمرين:

المحاسبة وترويض النفس على حسن النية وصفاء الباطن والالتجاء إلى الله عزّ وجل لكي يستر الإنسان ولا يفضحه، فيستره بإصلاح نفسه، أو بالستر على عيوبه.

ولا يخفى أن الأسرار الموجبة للفضيحة تختلف من شخص لآخر، وكل على حسب مستواه، فأسرار الأشرار من الناس هي نيّة السوء والعدوان وتفضحها الذنوب والجرائم والجنايات، وأسرار الأخيار من الناس هي

---

(١) انظر حياة الحيوان الكبرى: ج١، ص٢١٩؛ المستطرف: ج٢، ص٤٨٤.

(٢) سورة إبراهيم: الآية ٤٢.

الحسنات والأعمال الصالحة التي يخفونها على الناس ليضمنوا فيها إخلاص النية والصدق مع الله سبحانه، وأسرار الأنبياء والأولياء عليهم السلام هي شعورهم بالقصور في شكر ربهم وعبادته حق عبادته التي تليق بشأنه، ولعل هذا ما ورد ذكره في دعائه عليه السلام: ﴿ولا تفضحني بخفيّ ما أطلعت عليه من سرّي﴾ إذ إن العبد الصالح يخشى أن قصوره يحرمه من مزيد القرب من ربه تبارك وتعالى، وهذا في نفسه يعد فضيحة له؛ لأنّها تشهره عند ربّه أو بين الملائكة، أو في الملأ الأعلى، أو عند أرواح الربانيين وأهل السر الإلهي في أنه لم يؤد شكر النعمة، ولم يقم بواجب العبودية.

﴿وَلا تُعاجِلْني بِالْعُقُوبَةِ عَلى ما عَمِلْتُهُ
فِي خَلَواتي مِنْ سُوءِ فِعْلي وَإِساءَتي،
وَدَوامِ تَفْريطي وَجَهالَتي، وَكَثْرَةِ
شَهَواتي وَغَفْلَتي﴾

أثر الولاية والنصب في تبديل الأعمال وانقلابها

ولعله لا يريد عدم تعجيل عقوبة الآخرة؛ إذ مقتضى الحكمة أن يطالب بالعفو عن عقاب الآخرة لا عدم التعجيل؛ إذ هي بمراتب أصعب من عقوبات الدنيا، والذي يخشى العقاب المحتوم يطلب رفعه لا تأخيره، ثم إن سؤال عدم التعجيل من عقاب الآخرة يبدو أنه بلا فائدة؛ إذ عقاب الآخرة لا تسريع ولا تأخير فيه، وإنما واقع كل حسب وضعه، لنص الروايات القائلة: «فإن أحدكم إذا مات فقد قامت قيامته»[1] والذي يبدو أن المراد من العقوبات هنا هي الدنيوية من الآثار الوضعية للأعمال كنزول البلاء وحبس الدعاء ونحو ذلك، وبعض الذنوب يلازمها عقابها ولا يؤخر عنها، فقد روى الكليني قدس سره بإسناده إلى أبي جعفر عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: خمس إن أدركتموهن فتعوّذوا بالله منهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوها إلّا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلّا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان، ولم يمنعوا الزكاة إلّا منعوا القطر من السماء، ولو لا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلّا سلّط الله عليهم عدوّهم، وأخذ بعض ما في أيديهم، ولم يحكموا بغير ما

---

(١) إرشاد القلوب: ج١، ص١٨.

أنـزل الله إلّا جعـل الله بأسهـم بينهـم»[١] وورد بطـرق العامـة أيضـاً[٢] والروايات بهذا المضمون كثيرة[٣].

ويدل الحديث على التناسب بين العمل وعقابه، فالفاحشة -أي الزنا- تضيّع النسل وتهدده فتبتلى بالطاعون الموجب لانقطاعه، واللذة المقصودة منها تقابل بالأوجاع، وتنقيص المكيال والميزان يطلب منه زيادة المال فيقابل بضده أي القحط وعسر المؤنة وجور السلطان الذي يأكل أموال الناس وينتقصها، ومنع الزكاة يراد منه تنمية المال فهو منع طلباً للزيادة، فيقابل بمنع سبب الزيادة وهو المطر، ونقض العهد يراد به التحرر من الالتزام وترك العدل، ولازمه العداء لله ورسوله تحصيلاً للمصالح، فيقابل بتسلط العدو الذي ينقض عهودهم، وينزل الأضرار المعنوية والمادية بهم، والحكم بغير حكم الله يقابل بالفتن والظلم والعدوان بينهم؛ لأن رفض حكم الله العادل الذي ينظم أمورهم ويحمي حقوقهم يقابل بما يضاده[٤].

وعدم التعجيل بالعقوبة في قوله: «**ولا تعاجلني بالعقوبة**» يحتمل معاني:

الأول: أخّر عليَّ العقوبات بتأخير موتي لعلّي أوفق للتوبة والندم قبله.

الثاني: أو أُوفق للقيام ببعض الصالحات التي تغطي المساوئ أو تمحيها أو تبدلها إلى حسنات.

---

(١) الكافي: ج٢، ص٣٧٢، ح١؛ ثواب الأعمال: ص٢٥٢؛ البحار: ج٧٣، ص٣٦٧، ح١٣.

(٢) انظر المستدرك على الصحيحين: ج٤، ص٥٤٠.

(٣) انظر البحار: ج٧٣، ص٢٦٨؛ شرح أصول الكافي: ج١٠، ص٣٩.

(٤) انظر الكافي: ج٢، ص٣٧٤، ح٢؛ علل الشرائع: ص٥٨٤، ح٢٦؛ ثواب الأعمال: ص٢٥٢.

الثالث: أو ببركة الدعاء والرحمة الإلهية ينفك الأثر عن المؤثر، ويتأخر عنه؛ لأن العقاب والعمل متلازمان تكويناً ولا ينفكان إلاّ بإرادته سبحانه، ولعل كلمة (تعاجلني) التي هي من باب المفاعلة تؤيد ذلك.

وتوضيح ذلك: أن كل عمل سيء يقابله أثره الوضعي أو الجزاء الإلهي فوراً فيلازم العمل كما يحصل للأولياء؛ إذ يعاقبهم الله سبحانه على مساوئهم بالفور وبلا تأخير محواً لمساوئهم كما دلّت الأخبار، إذ المعاجلة يعني في قبال كل عمل قبيح يقابله عقاب سريع وقد طلب التفكيك لعله يمحي الأثر ببركة دعائه، أو سعة رحمة ربه، أو استغفاره وتوبته، أو بعض أعماله الصالحة.

فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: ﴿إذا أراد الله عزّ وجل بعبد خيراً عجّل له عقوبته في الدنيا، وإذا أراد بعبد سوءاً أمسك عليه ذنوبه حتى يوافي بها يوم القيامة﴾[1].

وفي الحديث القدسي: قال الله عزّ وجل: ﴿وعزتي وجلالي لا أخرج عبداً من الدنيا وأنا أريد أن أرحمه حتى أستوفي منه كل خطيئة عملها إمّا بسقم في جسده، وإما بضيق في رزقه، وإمّا بخوف في دنياه، فإن بقيت عليه بقية شددت عليه عند الموت، وعزتي وجلالي لا أخرج عبداً من الدنيا وأنا أريد أن أعذّبه حتى أوفيه كل حسنة عملها إما بسعة في رزقه وإما بصحة في جسمه وإما بأمن في دنياه؛ فإن بقيت عليه بقية هوّنت عليه بها الموت﴾[2]

---

(١) الكافي: ج٢، ص٤٤٥، ح٥.

(٢) الكافي: ج٢، ص٤٤٤، ح٣.

وفي مجمع البيان عن أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا علي، ما من خدش عود ولا نكبة قدم إلّا بذنب، وما عفا الله عنه في الدنيا فهو أكرم من أن يعود فيه، وما عاقب عليه في الدنيا فهو أعدل من أن يُثنّي على عبده»(١) والروايات بهذا المعنى كثيرة(٢).

ولا يخفى أن الأمم السابقة كانت تواجه بنتائج أعمالها عقاباً في الدنيا بالبلايا والإبادات الجماعية وعقوبات الاستئصال ونحوها، ولكن بفضل الله سبحانه ولطفه رفع هذا النوع من العقاب عنهم، وأخّره إلى الآخرة، وذلك لوجود ضمانين في رفع العقاب الدنيوي عن المسلمين كما في الآيات والروايات:

أحدهما: وجود رسول الله صلى الله عليه وآله بينهم.

وثانيهما: الاستغفار، وإلى ذلك أشار قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾(٣)، وروي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «كان في الأرض أمانان من عذاب الله وقد رفع أحدهما، فدونكم الآخر، فتمسكوا به، وقرأ هذه الآية»(٤).

---

(١) مجمع البيان ج٩، ص٥٣، تفسير الآية ٣٢ من سورة الشورى؛ البحار: ج٧٣، ص٣١٦.

(٢) انظر الكافي: ج٢، ص٤٤٤، ح١، ح٢؛ مشكاة الأنوار: ص٢٧٤؛ شرح أصول الكافي: ج١٠، ص١٨٩، ح١.

(٣) سورة الأنفال: الآية ٣٣.

(٤) تفسير مجمع البيان: ج٤، ص٤٦١.

نعم. العقاب الظاهري مرفوع ستراً عليهم من الفضيحة، ولكن دلّت الأدلة على أن العصاة تتصف نفوسهم بأشكال الذنوب المشاكلة لطبائع الحيوانات؛ إذ لكل حيوان طبيعة غالبة إما شهوية أو سبعية لقاعدة تجسم الأعمال أو مسانختها لطبائع المذنبين، ولكنه سبحانه لا يظهر هذه الذنوب ستراً عليهم، ولكن تظهر هذه الحقائق في الآخرة؛ إذ يحشر الناس كلاً على هيئة خاصة، فجماعة على هيئة الخنازير، وآخرون على هيئة القردة وهكذا، وهذا أيضاً فضل من الله ورحمة؛ إذ يستر عباده في الدنيا ولم يكشف حقائقهم مع أنها في الدنيا هكذا، ولا تظهر إلّا لذوي البصائر، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿**إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا**﴾[1] والكاف في (كالأنعام) للتشبيه بأفعالها، والترقي بـ(بل) يفيد دنو صفاتهم وسجاياهم من الأنعام.

ولعل من هنا قال سيد الشهداء عليه السلام: «كأنّي بأوصالي يتقطعها عسلان الفلوات...»[2] تشبيهاً لأرواح أعدائه بالذئاب؛ لأن طبائعهم وسجاياهم كانت الغدر والافتراس واللؤم والتكالب على الدنيا وأكل الحرام.

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٤٤.

(٢) البحار: ج٤٤، ص٣٦٧؛ كشف الغمة: ج٢، ص٢٣٩؛ مثير الأحزان: ص٢٩؛ اللهوف في قتلى الطفوف: ص٣٨.

سوء الفعل والإساءة

ما الفرق بين سوء الفعل والإساءة الواردة في الفقرة؟

قالوا: سوء الفعل كل قبيح يفعله الإنسان سواء علم بقبحه أم لا[١]. أما الإساءة فهو القبيح المعلوم قبحه.

وقالوا: بالعكس.

وقالوا: سوء الفعل ظلم النفس، والإساءة الظلم المتعدي للغير، ولا تكون إلّا قبيحة، وهو تعريف بالمصداق؛ ولذا لا يصح وصفه تعالى بالمسيء، وصح وصفه بالمنتقم؛ لأن الانتقام يوافق العدل لاسيما في فعل الخالق عزّ وجل[٢].

والظاهر إن سوء الفعل من إضافة الصفة إلى الموصوف وهو استثناء من القاعدة؛ لأن الأصل في الصفة هو حملها على الموصوف أي (الفعل السيّء) وإنما يعبّر بها إذا كان المقصود بالكلام هو الصفة لا الموصوف كما في قولهم: (خير العمل) و: (علو الهمة) مع أن الأصل هو: (العمل الخير) و:(الهمة العالية) ولكن حيث أريد التعليق على ذات الصفة لخصوصية في خيرية العمل وعلو الهمة تأتي بصيغة الإضافة، وسوء الفعل من هذا القبيل، والمراد هو الأثر السيّء للفعل وإن لم يكن مقصوداً؛ لأنه يتجسم ويبقى أثره وتبعاته في الدنيا والآخرة.

---

(١) انظر مفردات الراغب: ص٤٤٢، (سوء)؛ مجمع البحرين: ج١، ص٢٣٧، (سوا)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٤٦٠، (ساء).

(٢) معجم الفروق اللغوية: ص٤٣، (١٥١)، (١٥٢).

بينما الإساءة تعني فعل القبيح الذي يقصده الإنسان ويكون فيه عدوان على النفس أو الغير، فالسوء أعم من الإساءة؛ لأن الإساءة قد يعفى عنها ويمحى أثرها، بينما سوء الفعل لا يمحى أثره وإن غفره الباري عزّ وجل؛ لأن المغفرة ترفع العقاب ولا ترفع الأثر التكويني للفعل.

نعم قد يتبدّل السوء إلى الحسن ببعض الأعمال الصالحة التي توجب تبدّل حقيقة الفعل؛ لأنّ خيرها وحسنها يقلب قبح الفعل السيء، وحيث إن الأثر الأقوى هو الذي يلازم الشيء فيبقى الحسن ويزول القبح، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿**إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ**﴾[1] فإنّ الآية تشير إلى أن الأعمال الطالحة قد تتبدّل إلى صالحة، والتبدّل ليس ذاتياً حتى يقال بالاستحالة؛ بدعوى أن الشيء لا ينقلب عما وقع عليه، وإنما بقدرة الله سبحانه الذي قدرته تسع كل شيء، فالله سبحانه هو المبدّل، وكما أن الله سبحانه قادر على إحداث الشيء وإعدامه قادر على تبديله وتغييره، وهل التغيير للجوهر أم للصورة؟ احتمالان، والأقوى الأعم؛ لوجود المقتضي وانعدام المانع، فإن بعض الأعمال تبدّل صورتها القبيحة إلى صورة حسنة، كالشخص الذي يفعل الإساءة دون قصد أو بنية حسنة، فيصورها الباري في أنظار الناس حسنة، والآخر الذي يفعل الحسن بنية سيئة، فيصورها الباري في أنظار الناس سيئة كالمنافق والمرائي.

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٧٠.

وبعض الأعمال تبدّل حقيقتها وجوهرها، فكما ينقلب الخمر إلى خل والمركبات الكيمياوية والمعاجين والأدوية تتبدّل في حقائقها وجواهرها بإضافة بعض العناصر أو نقصانها كذلك الأعمال؛ لأن القانون الحاكم في الجميع واحد، أي قانون الأسباب والمسبّبات الذي أودعه الباري في الوجود، فكما أن إضافة الماء إلى التراب يصيّره طيناً، وإضافة الملح والكالسيوم إلى الطين يصيّره لؤلؤاً، فإن اقتران التوبة بالعمل الصالح يبدّل الذنب طاعة؛ لأن العبد بالتوبة والطاعة يقرب من ربه، وتتبدّل نواياه وقصوده، والأعمال تتبع النوايا والقصود، وإذا تبدّل السبب تبدّل المسبّب، ولا مانع من أن يكون المتأخر مؤثراً في المتقدم وبالعكس، لاسيما في المعنويات، فالتوبة تمحي الذنب، والكفارة تمحي العقوبة، فتبدّل السيئة إلى حسنة قد يكون بتبدّل صورتها أو حقيقتها.

وقد ذكر المتكلمون والمفسّرون في توجيه ذلك توجيهات عديدة أخرى:

التوجيه الأول: أنه سبحانه يمحي من سجل أعمالهم السيئات ويسجل مكانها الحسنات(١).

التوجيه الثاني: أنه سبحانه يعطيهم الثواب على نفس السيئة التي ارتكبوها، بأن يعطي من زنى مثلاً ثم تاب توبة نصوحاً ثواب النكاح على زناه؛ لشفاعة التوبة والعمل الصالح له(٢).

---

(١) تفسير التبيان: ج٧، ص٣١٢-٣١٣.

(٢) انظر تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص٢٩-٣٠، تفسير الآية المزبورة.

التوجيه الثالث: أنه سبحانه يوفق العبد التائب إلى العمل الصالح بما يمحي عنه أعماله الطالحة، فإذا كان قاتلاً للنفس المحترمة في ماضي أيامه ثم تاب فإنه سبحانه يوفقه في مستقبل أيامه للدفاع عن المظلومين وحقن دمائهم، وإذا كان زانياً يوفقه للعفة والطهارة ومكافحة الزنى.

أسباب الذنوب

وأما دوام التفريط والجهالة في قوله عليه السلام: «**ودوام تفريطي وجهالتي وكثرة شهواتي وغفلتي**» فهو إشارة إلى سبب الأخطاء والإساءات التي يفعلها الإنسان؛ لأن الذنوب تنشأ من أسباب عديدة أشارت الفقرة إلى ثلاثة منها:

الأول: التفريط والتضييع والتقصير، وقد سمي المسرفون على أنفسهم في الذنوب مفرطين بكسر الراء؛ لأنهم تجاوزوا الحدود أي -حدود أنفسهم- إذ وضعوها في مقام الند مع الخالق، وتجاوز حقوق الخالق عزّ وجل والتفريط قد يلازم الإنسان بسبب تسرعه وتعجيله في إجابة الهوى والشيطان، أو تعجيله للذات الدنيا وحلاوتها على الآخرة.

فإن البشر في طبعه الأولي يحب العاجلة ويذر الآخرة؛ لميله الشديد إلى المحسوس من اللذات، إلّا الخواص من أهل المعرفة والبصيرة كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿**كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ**﴾[1] هذا من حيث

(١) سورة القيامة: الآيتان ٢٠-٢١.

أصله ونشأته، فإذا صار التفريط دأبه وديدنه فإنه يوغله في المعاصي والذنوب، ويبعده عن ربه، ومثله يستحق تعجيل العقوبة عليه؛ لأنه ينفي عن العبد لياقة العفو فيعجل له العقاب، أو يوقعه بمزيد العصيان، فيعجل الباري عقوبته لطفاً به؛ ليخلصه منه، وهو نوع ثالث من اللطف غير المقرّب، والمحصّل الذي اتفق عليه علماء الكلام ربما يسمى باللطف المخلّص؛ لأنه يخلص العبد من عقاب الآخرة، أو اللطف المعجّل لذات الغاية، أو المطهرّ؛ لأنه يطهر العبد من آثار الذنوب في الدنيا، وربما يكون من مراتب المحصّل؛ لأن تقليل العقاب بمنع سببه رحمة ورفق[1].

الثاني: الجهالة، وهي من السفه وخفة العقل، ويقابلها الحلم، ولا شك أن ارتكاب الذنوب والمعاصي لا يكون إلّا بتضييع الإنسان وتفريطه في عقله وحكمته وغلبة شهوته، والجهل وإن كان سبباً لوقوع الذنب أيضاً سواء كان جهلاً بموضوع الذنب أو بحكمه إلّا أنه عليه السلام لم يعبّر به؛ لأن الباري لا يؤاخذ عباده على ما يجهلون، بل على ما يعلمون، والجهل عدم العلم بالشيء، وربما يكون جهلاً مركباً بأن يعتقد الإنسان بالشيء على خلاف ما هو عليه[2].

بخلاف الجهالة فإنها تكون على علم وعمد وغلبة القوة الشهوية والغضبية والسبعية على فعل الإنسان، ومن هنا عرّف المفسّرون وأهل اللغة

---

(١) انظر مجمع البحرين: ج٥، ص١٢٠، (لطف).

(٢) انظر مجمع البحرين: ج٥، ص٣٤٥-٣٤٦، (جهل).

الجهالة في مثل قوله تعالى: ﴿أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾[١] بالسفاهة؛ لأن الذي يعتمد على خبر الفاسق دون تبيّن من صدقه يكون قد عطّل عقله، وألغى حكمته، وهي كاشفة عن خفة العقل والغفلة لا الجهل.

وفي الحديث: «من استجهل مؤمناً فعليه إثمه»[٢] أي من حمله على شيء ليس من خلقه فيغضبه أو يوقعه بما يخالف مقتضيات الإيمان أو يخفف من عقله فإنما إثمه على من أوقعه في ذلك، ومنه قوله: (استجهلت الريح الغصن أي خرّبته، كأنّها حملته على تعاطي الجهل)[٣] لأن الإيمان يجتمع مع العلم والبصيرة ولا يجتمع مع الجهل.

ومن هنا قيل: أجمعت العصابة على أن كل ما عصي الله به فهو جهالة، وكل من عصى الله فهو جاهل، وقيل: إن الجهالة عبارة عن اختيار اللذة الفانية على اللذة الباقية[٤]، ومنها أيضاً الانشغال بما لا يهم أو لا يعني، وفي الخبر: ((أنّ من العلم جهلاً)) وقد فسرّوه بمن يتعلم ما لا يحتاج إليه كالنجوم وعلوم الأوائل ويدع ما يحتاج إليه في دينه ودنياه كعلوم القرآن والسّنة[٥] والفضائل والأحكام، وبهذا يتضح وجه الارتباط بين التفريط

---

(١) سورة الحجرات: الآية ٦.

(٢) الفائق في غريب الحديث: ج١، ص٢١٦؛ النهاية في غريب الحديث: ج١، ص٣٢٢؛ مجمع البحرين: ج١، ص٤٢١، (جهل).

(٣) بصائر ذوي التمييز: ج٢، ص٤٠٦، بصيرة (٤٨).

(٤) مجمع البحرين: ج١، ص٤٢١، (جهل).

(٥) المصدر نفسه.

والجهالة في فقرة الدعاء المبارك، كما يتضح وجه العلاقة بين التفريط والجهل؛ لأن الجاهل إما مفرط -بالتخفيف- أو مفرّط -بالتشديد- كما في الحديث، أي بين إسراف وتقصير.

وواضح أن العقوبات التي تعاجل الإنسان أخروية ودنيوية، وهي محيطة به؛ لما عرفت من تجسم الأعمال وملازمة آثارها لها، ومن آثارها سلب التوفيق عن العمل الصالح أو النجاح، أو سوء التوفيق بإظهار النتائج العكسية على أعمال الإنسان التي يؤديها لغرض الوصول إلى الفوز والمنفعة، والفشل والتراجع في مشاريعه ومخططاته وخذلانه في موضع الحاجة إلى النصرة والتأييد، وترديه في السقوط والتساقط حتى تكون حياته فشلاً بعد فشل وسقوطاً بعد آخر، ولذا لا نجد لأهل المعاصي حياة مطمئنة ناجحة، والفشل يحيط بهم في حياتهم الأسرية ومكانتهم الاجتماعية والتأريخية بالرغم من أنهم خططوا وبذلوا الكثير للنجاح فيها، غاية الأمر قد يظهر الفشل على أعمالهم وخططهم سريعاً؛ لأن الله سبحانه يعاجلهم بالعقوبة، وقد يمهلهم إلى حين، وذلك يرجع إلى درجات الإيمان والمعرفة، فالمؤمن يعاجله بالعقوبة تطهيراً له ولطفاً به، وغيره قد يمهله إلى الآخرة؛ لأنها سجنه.

الثالث: غلبة الشهوة والغفلة عن الحق، سواء كانت الشهوة إلى اللذة أو إلى دفع الألم والتعب، والأولى تجرّ الإنسان إلى ارتكاب الفواحش، والثانية تجرّه إلى ترك الواجبات؛ لأنّ في التكليف مشقة وضيق على النفس أو على البدن أو كليهما.

التوجيه الرابع: أنه سبحانه في الآخرة يرجع كل عمل إلى منشئه وطينته الأصلية، فالطينة الخيّرة تنسب إليها الخيرات، والطينة السيّئة تنسب إليها السيئات.

وهو ما يستفاد من رواية الصدوق‌قدس‌سره في العلل بإسناده إلى إسحاق القمي قال: دخلت على أبي جعفر الباقر‌عليه‌السلام فقلت له: جعلت فداك، قد أرى المؤمن الموحّد الذي يقول بقولي ويدين الله بولايتكم وليس بيني وبينه خلاف يشرب المسكر، ويزني ويلوط، وآتيه في حاجة واحدة فأصيبه معبس الوجه، كالح اللون، ثقيلاً في حاجتي، بطيئاً فيها، وقد أرى الناصب المخالف لما آتي عليه ويعرفني بذلك فآتيه في حاجة فأصيبه طلق الوجه، حسن البشر، متسرعاً في حاجتي، فرحاً بها، يحب قضائها، كثير الصلاة، كثير الصوم، كثير الصدقة، يؤدي الزكاة، ويستودع فيؤدي الأمانة؟ قال: «يا إسحاق، ليس تدرون من أين أوتيتم؟» قلت: لا والله جعلت فداك إلّا أن تخبرني، فقال: «يا إسحاق، إنّ الله عز وجل لما كان متفرداً بالوحدانية أبتدأ الأشياء لا من شيء، فأجرى الماء العذب على أرض طيبة طاهرة سبعة أيام بلياليها، ثم نضب الماء عنها، فقبض قبضة من صفوة ذلك الطين وهي طينة أهل البيت، ثم قبض قبضة من أسفل ذلك الطين، وهي طينة شيعتنا، ثم اصطفانا لنفسه، فلو أنّ طينة شيعتنا تركت كما تركت طينتنا لما زنى أحد منهم، ولا سرق، ولا لاط، ولا شرب المسكر، ولا اكتسب شيئاً مما ذكرت، ولكنّ الله عزّ وجل أجرى الماء المالح على أرض ملعونة سبعة أيام ولياليها، ثم نضب الماء عنها، ثم قبض قبضة وهي طينة

ملعونة من حمأ مسنون، وهي طينة خبال، وهي طينة أعدائنا، فلو أن الله عز وجل ترك طينتهم كما أخذها لم تروهم في خلق الآدميين، ولم يقرّوا بالشهادتين، ولم يصوموا، ولم يصلوا، ولم يزكوا، ولم يحجوا البيت، ولم تروا أحداً منهم بحسن خلق، ولكن الله تبارك وتعالى جمع الطينتين: طينتكم وطينتهم فخلطها وعركها عرك الأديم، ومزجها بالماءين، فما رأيت من أخيك المؤمن من شر لفظ أو زنا أو شيء مما ذكرت من شرب مسكر أو غيره فليس من جوهريته، ولا من إيمانه، إنما هو بمسحة الناصب أجترح هذه السيّئات التي ذكرت، وما رأيت من الناصب من حسن وجه وحسن خلق أو صوم أو صلاة أو حج بيت أو صدقة أو معروف فليس من جوهريته، إنما تلك الأفاعيل من مسحة الإيمان اكتسبها، وهو اكتساب مسحة الإيمان إذا كان يوم القيامة نزع الله تعالى مسحة الإيمان منهم فردها إلى شيعتنا، ونزع مسحة الناصب بجميع ما اكتسبوا من السيّئات فردها على أعدائنا، وعاد كل شيء إلى عنصره الأول الذي منه ابتدأ .. يا إسحاق، أما تتلو هذه الآية: ﴿**فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ**﴾[١] فلم يبدّل الله سيئاتهم حسنات إلّا لكم، والله يبدّل لكم﴾[٢].

وواضح أن سبب خلط الطينة الطيبة بالخبيثة هو إجراء سنّة الاختبار والامتحان للعباد، وينال كل منهم جزاء عمله على ما تقتضيه الأصول

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٧٠.

(٢) علل الشرائع: ج٢، ص٤٨٩، ح١.

والقواعد عندنا، وفضلاً عن المعنى المقصود فقد تضمنت الرواية الإشارة إلى حقيقة تكوينية مهمة تفتح أبواباً للعلوم والمعارف، وهي أن كل شيء يعود إلى أصله، وينجذب إليه، وبهذا القانون يمكن أن تتبدّل الحقائق، وتتغير في الماديات والمعنويات، ولو التفت إلى هذا القانون لأمكن الارتقاء بعلوم الكيمياء والفيزياء والطب بطفرات مهمة.

التوجيه الخامس: أنه سبحانه يبدّل أعمال العباد فيما بينهم، فيعطي سيئات شيعة آل محمدعليهم السلام ومواليهم إلى أعدائهم والناصبين لهم، ويعطي حسنات النواصب إلى الشيعة والموالين؛ لأن نعمة الولاية والمحبة لآل الله سبحانه هي منشأ الخير والنور والرحمة، ونقمة النصب والجحود منشأ الشر والقبح والظلمة، فكل فعل لا ينتمي إلى الولاية ولم ينشأ منها فهو شر قبيح وإن تلبّس بلباس حسن، وكل قبيح يفعله الموالي بسبب اقترانه بالولاية والمحبة لأولياء الله سبحانه فإنه عند الله سبحانه يكون حسناً. إما لأن جوهر الولاية ونورانيتها تمحي ظلمة العمل، أو لأن رحمتها ورأفتها تمحي أثره، أو أن خيراتها وبركاتها تطغى على قبحه فيكون العمل في صورته قبيحاً لكنه في واقعه التكويني أو في سجل الأعمال حسناً، ولذا ورد: ﴿أن حب علي حسنة لا تضر معها سيئة﴾[1] وبمقتضى مفهوم المقابلة يعرف، وأن بغضه سيئة لا تنفع معها حسنة.

وفي الأمالي بسنده عن الرضاعليه السلام عن أبيه عن جده عن آبائهعليهم السلام قال: ﴿قال رسول الله صلى الله عليه وآله: حبنا -أهل البيت- يكفّر الذنوب، ويضاعف الحسنات،

---

(١) الفضائل (لابن شاذان): ص٩٦؛ كشف الغمة: ج١، ص٩٢.

وإن الله ليتحمل من محبنا أهل البيت ما عليهم من مظالم العباد إلّا ما كان منهم فيها على إصرار وظلم للمؤمنين، فيقول للسيئات كوني حسنات»[١].

وهي ظاهرة في أنّ التبدّل يكون للحقيقة والجوهر كما يفيده قوله: «كوني» والمراد من ظلم المؤمنين لأجل إيمانهم وولايتهم، وواضح أن من يؤذي المؤمن الموالي لأجل إيمانه وولايته لا يكون مؤمناً، وإنما يتمظهر به، ويتلبس بلباسه؛ إذ لا يصر على ظلم المؤمن إلّا المعادي، وفي ذلك إشارة لطيفة إلى المؤمنين لكي يجعلوا الأعمال ميزانهم في معرفة حقائق الناس وتشخيص مواقفهم لا المظاهر والأقوال.

هذا وقد وردت الروايات بجميع المعاني المذكورة، وحيث لا تنافي بينها؛ لأنها مثبتات أمكن حملها على اختلاف مراتب الأعمال أو مراتب العاملين، فلعل بعض الأعمال تتبدّل صورها، وبعضها تتبدّل حقائقها.

ففي التفسير الأول والثاني ورد عن البرقي‌قدس‌سره بسنده عن أبي عبد الله‌عليه‌السلام قال: «يؤتى بالمؤمن المذنب يوم القيامة حتى يوقف بين يدي الله عز وجل، فيكون هو الذي يلي حسابه، فيوقفه على سيئاته شيئاً فشيئاً فيقول: عملت كذا وكذا في يوم كذا في ساعة كذا، فيقول: أعرف يا رب. قال: حتى يوقفه على سيّئاته كلّها. كل ذلك يقول: أعرف، فيقول: سترتها عليك في الدنيا، وأغفرها لك اليوم. ابدلوها لعبدي حسنات. قال: فترفع صحيفته للناس فيقولون: سبحان الله، أما كانت لهذا العبد ولا سيئة

(١) أمالي الطوسي: ص ١٦٤، ح٢٧٤.

واحدة؟ فهو قول الله عزّ وجل: ﴿فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾[1] ﴾[2] وهذا المضمون ورد في رواية أبي ذر عن النبي المصطفى صلى الله عليه وآله[3]، ورواية محمد بن مسلم عن الباقر عليه السلام، وخصصت تبديل السيئات إلى حسنات بالشيعة خاصة[4]، وقد عرفت وجهه.

وفي التفسير الخامس روى الصدوق قدس سره بإسناده عن أبي إسحاق الليثي قال: قلت لأبي جعفر محمد بن علي الباقر عليهما السلام ... يا بن رسول الله إني أجد من شيعتكم من يشرب الخمر، ويقطع الطريق... ويزني... ويتهاون بالصلاة والصيام... ويأتي الكبائر... وأجد من أعدائكم ومناصبيكم من يكثر من الصلاة ومن الصيام... ويؤثر على البر وعلى صلة الأرحام... ويتجنب شرب الخمر والزنا واللواط وسائر الفواحش فمم ذلك؟ ولم ذاك؟ قال: فتبسّم الباقر (صلوات الله عليه) ثم قال: ﴿يا إبراهيم، خذ إليك بياناً شافياً فيما سألت، وعلماً مكنوناً من خزائن علم الله وسرّه، أخبرني يا إبراهيم كيف تجد اعتقادهما؟﴾ قلت: يا بن رسول الله أجد محبيكم وشيعتكم على ما هم فيه مما وصفته من أفعالهم لو أعطي أحدهما ما بين المشرق والمغرب ذهباً وفضة أن يزول عن ولايتكم ومحبتكم إلى موالاة غيركم وإلى محبتهم ما زال ولو ضربت خياشيمه –أقصى الأنف– بالسيوف فيكم، ولو قتل فيكم ما ارتدع ولا رجع عن محبتكم وولايتكم، وأرى

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٧٠.

(٢) المحاسن: ج١، ص١٧٠، ح١٣٦.

(٣) عوالي اللآلئ: ج١، ص١٢٤، ح٥٦.

(٤) أمالي الطوسي: ص٧٢-٧٣، ح١٠٥.

الناصب على ما هو عليه مما وصفته من أفعالهم لو أعطي أحدهم ما بين المشرق والمغرب ذهباً وفضة أن يزول عن محبة الطواغيت وموالاتهم إلى موالاتكم ما فعل ولا زال ولو ضربت خياشيمه بالسيوف فيهم، ولو قتل فيهم ما ارتدع ولا رجع.

قال: فتبسم الباقر عليه السلام ثم قال: «يا إبراهيم أتدري ما السبب وما القصة في ذلك؟ وما الذي خفي على الناس منه؟ قال: يا إبراهيم، إن الله تبارك وتعالى لم يزل عالماً قديماً خلق الأشياء لا من شيء ومما خلق الله عز وجل أرضاً طيبة ثم فجر منها ماءً عذباً زلالاً فعرض عليها ولايتنا أهل البيت فقبلتها فأخذ من صفوة ذلك الطين طيناً فجعله طين الأئمة عليهم السلام، ثم أخذ ثفل ذلك الطين فخلق منه شيعتنا، ولو ترك طينتكم يا إبراهيم على حاله كما ترك طينتنا لكنتم ونحن شيئاً واحداً» قلت: يا بن رسول الله فما فعل بطينتنا؟ قال: «خلق الله بعد ذلك أرضاً سبخة خبيثة منتنة، ثم فجر منها ماءً أجاجاً اسناً مالحاً فعرض عليها ولايتنا -أهل البيت- فلم تقبلها ثم أخذ من ذلك الطين فخلق منه الطغاة وأئمتهم، ثم مزجه بثفل طينتكم، ولو ترك طينتهم على حالها ولم يمزج بطينتكم لم يشهدوا الشهادتين، ولا صلوا، ولا صاموا ولا أشبهوكم في الصور، وليس شيء أكبر على المؤمن من أن يرى صورة عدوه مثل صورته فما رأيته من شيعتنا من زنا أو لواط أو ترك صلاة فهو من طينة الناصب وعنصره الذي قد مزج فيه؛ لأن من سنخ الناصب وعنصره وطينته اكتساب المآثم والفواحش والكبائر، وما رأيت من الناصب من مواظبته على الصلاة والصيام وأبواب البر فهو من طينة المؤمن وسنخه الذي مزج فيه؛ لأن من سنخ المؤمن وعنصره وطينته

اكتساب الحسنات واجتناب المآثم، فإذا عرضت هذه الأعمال كلها على الله عز وجل قال: أنا عدل لا أجور، ومنصف لا أظلم ألحقوا الأعمال السيئة التي اجترحها المؤمن بسنخ الناصب وطينته، وألحقوا الأعمال الحسنة التي اكتسبها الناصب بسنخ المؤمن وطينته. ردّوها كلّها إلى أصلها كذلك يعود كل شيء إلى سنخه وجوهره وأصله ثم قال: ﴿**فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ**﴾[(١)] يبدّل الله سيئات شيعتنا حسنات، ويبدّل الله حسنات أعدائنا سيئات﴾[(٢)].

وواضح أن إرجاع كل شيء إلى أصله ناشئ من الاختيار لا الجبر؛ لأن الطينة الخبيثة قدرت لنفسها هذا المصير برفضها الولاية، والطينة الطيبة قدرت لنفسها حسن الخاتمة بقبولها الولاية.

شروط تبدّل الأعمال

ومن مجموع ما تقدم يتضح أن تبدّل السيئات إلى حسنات يتوقف على ثلاثة شروط:

الأول: التوبة الصادقة.

والثاني: العمل الصالح.

والثالث: ولاية محمد وآل محمد، وهي مفتاح الأعمال وسرّ قبولها، ولولاها لا تنفع توبة ولا عمل صالح، وعدم النفع من قبيل السالبة بانتفاء

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٧٠.

(٢) علل الشرائع: ج٢، ص٦٠٦، ح٨١، والحديث طويل أخذ منه موضع الشاهد.

الموضوع لا من جهة فقدان الشرط؛ إذ يستفاد من الأخبار الشريفة أن التوبة من دون ولاية ليست بتوبة بل معصية، والعمل الصالح هو الآخر عمل طالح من دون ولاية.

فما قد يتصوره البعض من أن الولاية شرط الأعمال لابد وأن يحمل على الشرط المقِّوم لا المصحح، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿**وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا**﴾(١) كما يتضح أن الطينة والجبلّة الأولى لها الأثر الأكبر في حاضر الإنسان ومستقبله، وتأثيرها لازم ذاتي لها لا ينفك عنها، سوى أنها إما أن تكون بنحو اللازم والملزوم أو المقتضي لا العلة التامة؛ لمكان الاختيار في أفعال البشر في النشأة وفي الفعل، وما كان في أصله أو في فعله بالاختيار تكون نتائجه اختيارية أيضاً؛ لأن ما بالاختيار يكون اختيارياً، والمقدور بالواسطة يكون مقدوراً.

وباختصار: إنّ الاختيار ملازم لأفعال البشر من جهتين:

الأولى: أصل النشأة، فإنَّ الروايات صريحة في أن الناس اختاروا الولاية والإذعان لها فطابت طينتهم، وحسنت أفعالهم وعواقبهم، وهذه نتيجة اختيارهم؛ لأن اختيار الأصل اختيار لتوابعه وفروعه.

والثانية: الفعل؛ لأن البشر يملكون السلطة والاختيار على تغيير واقعهم السيء إلى حسن، وتبديل خصالهم الخبيثة إلى طيبة، والتخلي عن الرذائل والتحلي بالفضائل حتى على فرض عدم الاختيار من طينتهم

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٢٣.

الأولى؛ لأن خبث الطينة ليس علة تامة لظهور آثارها السيئة، بل مقتض، ويمكن للإنسان أن يمنع من تأثير المقتضي بالأفعال الحسنة، وهو ما أشارت إليه الآية بصيغة الاستثناء، ونصت على أن الذين يفعلون الفواحش يمكن أن يبدّل الله سيئاتهم حسنات إذا تابوا وعملوا صالحاً.

وإقرار الطينة بالولاية يمكن أن يوجه بتوجيهين:

الأول: أنّ للطينة الأولى فهماً وإدراكاً ومعرفة وإرادة وطاعة وعصياناً، ولذا فهم الخطاب الإلهي، وبعضها استجاب وأقر بالولاية وبعضها رفض، وحينئذ قدر الله سبحانه لكل من علم بأنه يطيع ويقر بالولاية أن تكون طينته من الطينة الطيبة، وقدر لكل من علم بأنه متمرد معاند أن تكون طينته خبيثة.

الثاني: أن الأرواح المؤمنة تشتق من الطينة الطيبة، والأخرى الجاحدة تشتق من الخبيثة، وقاعدتا التناسب والتناسخ بين الأشياء يستدعيان أن يخلق الباري عز وجل من الطينة الطيبة أرواح المؤمنين، ومن الطينة الخبيثة أرواح النواصب، ويكون الاختيار الأول للطينة، والاختيار على البقاء على الطهارة والإيمان والولاية للأرواح، وهذا المعنى أقرب إلى ظواهر الروايات المتقدمة.

ويستخلص مما تقدم عدة أمور متتالية:

الأمر الأول: أن فقرة الدعاء الشريف أشارت إلى حقيقة تبديل الأعمال وتحويلها من مساوئ إلى محاسن ببركة التوبة وطلب العفو والمغفرة، وهو قوله: ﴿**ولا تعاجلني بالعقوبة على ما عملته في خلواتي من سوء فعلي وإساءتي**﴾ فإنه لولا الدعاء وطلب العفو فإن العمل يتجسم ويتكون على

حقيقته فيكون عقوبة فعلية تحيط خطيئتها بالإنسان، وعقوبة الآخرة مدخرة يواجهها في الآخرة، فلو أمهل الرب تعالى عبده وأخر عليه العقوبة وأمهله في الأجل أمكن تبديلها إلى محاسن بالتوبة والعمل الصالح.

الأمر الثاني: أن مفتاح تبديل المساوئ إلى محاسن يتوقف على محبة آل محمد وولايتهم عليهم السلام، وأن الولاية والمحبة هي أساس طيب الطينة وطهارتها، وهي منشأ الأعمال الخيرة، والطينة الخبيثة هي منشأ الأعمال السيئة، وهو ما يؤكده قولهم عليهم السلام: ﴿نحن أصل كل خير وعدونا أصل كل شر﴾[١].

بل يمكن القول بأن الولاية مصفاة الأعمال وميزانها، وهي سبب وصف العمل بالفضيلة والطاعة بالعبادة، ومن دونها تكون الفضيلة رذيلة، والطاعة تمرد وجحود؛ لأنها الباب الذي اختاره الله سبحانه، وجعله طريقاً إلى معرفته ورضوانه، وأغلق كل الأبواب الأخرى، فلم يقبل من العباد إيماناً ولا عملاً ولا عبادة إلّا إذا كان عن ولاية محمد وآل محمد عليهم السلام.

فالولاية مصفاة الأعمال، وهي التي تضفيها صفاتها اللائقة في الحسن والقبح، ويمكن تشبيه هذا المعنى المعقول بالمحسوس بجهاز التصفية الذي يدخله الماء الملوث فيخرج نقياً زلالاً؛ لقوة أثر التصفية، وجهاز التلويث الذي يدخله الماء الصافي فيخرج فاسداً نتناً، وللأول مثال الولاية التي

---

(١) الكافي: ج٨، ص٢٤٢، ح٣٣٦؛ الوسائل: ج٢٧، الباب ٧ من أبواب صفات القاضي، ص٧٠، ح٣٣٢٢٦.

تطهر الأعمال وتصفيها، والثاني مثال النصب الذي يبطل الأعمال وإن كانت بحسب ظاهرها صالحة.

الأمر الثالث: أن العقيدة الصحيحة هي العنصر المقوّم لأعمال بني آدم، فلا يمكن أن يكون عمل صالح لا يقترن بعقيدة صحيحة، فعلى العاقل أن يهتم بعقيدته ويأخذها من عيونها الصافية؛ لأن أعمال الفرد كلها من عبادات وأعمال صالحة هباءً إذا لا تقترن بالعقيدة الحقة.

الأمر الرابع: أن مشاريع الوحدة والتقريب بين المسلمين التي تحملها بعض الفئات وتبذل الغالي والنفيس لأجل الوصول إلى وحدة حقيقية أو تقريبية لا يمكن أن تنتهي يوماً إلى نتيجة؛ لأن كل شيء يعود إلى أصله، فالحل الأوفق هو الدعوة إلى مشروع لتوحيد المواقف والسياسات العامة التي تهم الجميع، وتجمعهم في مصالح مشتركة، فتوحيد المواقف تجاه الوقائع والأحداث أمر ممكن عقلاً، وواقع خارجاً، ويمكن تحقيقه، بخلاف التوحيد والتقريب في المعتقد، فإنه ممتنع في نفسه.

وبعد طلب العفو وعدم المعاجلة بالعقوبة لابد وأن يكون الطلب للرأفة والرحمة ليعزز الإجابة، فقال:

﴿وَكُنِ اللّهُمَّ بِعِزَّتِكَ لي فِي كُلِّ
الأحْوالِ (فِي الأحْوالِ كُلِّها) رَؤوفاً،
وَعَلَيّ في جَميعِ الأُمُورِ عَطُوفاً﴾

رأفة الله وعطفه (التوفيق)

وقد جعل العزة مفتاح هذا السؤال فسأله بها دون غيرها من صفات الذات والفعل، ولعل السبب يعود إلى وجهين:

أحدهما: الاستناد إلى القوة والغلبة، فإن من أسمائه سبحانه العزيز، ومعناه الغالب الذي يَقهر ولا يُقهر، والمعز بصيغة اسم الفاعل معناه واهب العزة لمن يشاء.

ثانيهما: التكريم والتجليل. يقال أعزّ فلان فلاناً أي أحبه وأكرمه[1]، وهي قد تكون صفة الذات، ومعناها تنزيه الخالق من كل نقص وعجز، وقد تكون صفة فعل بمعنى تعزيز العبد وإعلاء شأنه تكريماً له، ومن أسمائه سبحانه (المعزّ)؛ لأنّه يعزّ عبده فيقويه ويكرمه، والباء في قوله ﴿**بعزتك**﴾ سببية، والفقرة الشريفة تارة تقرأ على أن تكون العزة صفة للعبد وصفة فعل لله سبحانه، والسؤال بعزة العبد وكرامته عند ربه، ورؤوفاً مفعولاً به، وكان تامة، والمعنى أنه يسأل بمكانته عند ربه وتكريمه إياه باعتبار إنسانيته وإيمانه أن يشمله برأفته ورحمته، وهو نوع تودد بعهد الله سبحانه الذي أخبر عنه في القرآن؛ إذ قال سبحانه: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾[2] وصيغة الماضي وقد التحقيقية ولام التأكيد تفيد حتمية التكريم ووقوعه عنده سبحانه، وباعتبار

---

(١) بصائر ذوي التمييز: ج٤، ص٦١، بصيرة (١٩)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٥٩٨، (عزّ).

(٢) سورة الإسراء: الآية ٧٠.

أن أفعاله سبحانه معللة بالأغراض ومواهبه على قدر القابليات والمقتضيات، فإن التكريم يدّل على وجود مكانة لبني آدم عند ربه. هم فيها معززون مكرمون، وبهذه العزة والكرامة سأله أن يرأف بحاله، ويتعطف عليه في جميع أحواله وأموره، وتارة تقرأ على أن تكون الباء سببية والعزة صفة ذات تشير إلى قوة الله سبحانه وغلبته وضعف عبده وقصوره.

والسؤال أن يتعامل معه بالرأفة والعطف، وحيث إنه سبحانه رؤوف عطوف يستجيب لعبده، ويحقق له ما يريد.

والقراءة الثانية أظهر وأوفق بالقواعد، وهي الأنسب بمقام الطلب، فإن القوي الغالب الذي لا يقهر شأنه العفو؛ لأن العاصي لم يعصه عن غلبة وقوة، بل عن ضعف، فلو غفر له لا عن عجز أو حاجة، بل عن علو وقدرة، وشأنه التكريم؛ لأنه خالق العبد، وقد ابتدأ خلقه رحمة ورأفة وتكريما فكيف بدوامها؟ والأحوال أي حالات العبد المختلفة وتقلباته النفسانية والمعيشية، فيوم شاب قادر، ويوم شيخ عاجز، ويوم فقير، ويوم غني، ويوم عاص، ويوم مطيع، والأمور أي الحوائج والأعمال والطلبات جمع أمر، وهو الشيء والشأن[١].

والعبد يحتاج إلى رأفة ربه ورحمته في صفاته وحالاته وفي جميع طلباته وشؤونه، فلولا العطف والرأفة لعامله الله سبحانه بالعدل، ويقوم على الاستحقاق، والعبد المذنب لا يستحق شيئاً من عطايا الرب تبارك وتعالى.

---

(١) مفردات الراغب: ص٨٨، (أمر)؛ معجم مقاييس اللغة: ص٧٣، (أمر)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٢١٠، (أمر).

والرؤوف: شديد الرحمة، بل الرأفة أرق من الرحمة؛ لأنها لا تكاد تقع في الكراهة، بخلاف الرحمة فإنها قد تقع في الكراهة للمصلحة كقطع العضو الفاسد الذي لا دواء له، فالرأفة إيصال النعم صافية من الألم، والرحمة إيصالها مطلقاً[١]، ولذا جعل الرحمة صفة للرأفة في قوله تعالى: ﴿رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٢] لأن الرحيم صفة الفعل، وهي تقتضي إيصال كل ما فيه مصلحة العبد وإن لازمها الألم والمشقة كالابتلاء بالأمراض ونقص الأموال والأنفس؛ لأجل غفران الذنوب وعلو درجات أهلها.

والرؤوف: من أسمائه تعالى، وهو الرحيم بعباده، العطوف عليهم بألطافه، وفي الدعاء: ﴿رؤوف بالمؤمنين﴾ أي رحيم بهم[٣].

وعن الشيخ ابن فهد الحلي قدس سره الرؤوف هو العاطف برأفته على عباده، وقيل: الرأفة أبلغ من الرحمة، ويقال: الرأفة أخص من الرحمة، والرحمة أعم[٤]، كما أن العطف أعم من الرأفة؛ لأن الرأفة رفق المعاملة بينهما العطف الميل بالرحمة، فالرأفة أثر العطف؛ إذ لا رأفة بلا عطف، ولذا طلب عليه السلام أن يكون عليه رؤوفاً في الأحوال؛ لأنها تقوم على المعاملة بينهما في الطلبات عطوفاً؛ لتوقف قبول الأعمال واستجابة الدعوات والتوفيق فيها على الميل والقرب منه سبحانه، بل لا وجود للإنسان ولا تهنأ له عيشة إلّا بالرأفة والعطف.

---

(١) معجم الفروق اللغوية: ص٢٤٦، (٩٧١).

(٢) سورة التوبة: الآية ١١٧.

(٣) مجمع البحرين: ج٥، ص٦١، (رؤف).

(٤) عدة الداعي: ص٣٠٤.

فالرأفة الإلهية تحفظ الإنسان من المعاصي، والعطوفة بإعانته وتوفيقه للطاعات، وربما يقال أن العطوفة مرتبة أشدّ من الرحمة، فيكون ذلك العطف بعد الرأفة من باب ذكر الخاص بعد العام، وبهذا تنسجم مع الفقرات السابقة؛ إذ عدم المعاجلة بالعقاب مقتضى الرأفة والعطف، وفي كل الأحوال في حالات العصيان يرأف بحاله فيغفر له، وفي حالات الطاعات يعطف ويميل إليه فيدنيه من قربه، كما توافق الفقرة التالية.

﴿إلهي وَرَبِّي مَنْ لي غَيْرُكَ أَسْأَلُهُ
كَشْفَ ضُرِّي وَالنَّظَرَ في أَمْري﴾

مفتاح التوفيق والعناية الإلهية

من لي غيرك أي في الغنا والرحمة والعطف على تمامها وكمالها يقضي الحوائج بلا عجز ولا بخل ولا منّة، وتشير إلى غاية الخضوع والتوكل والانقطاع إلى الله سبحانه، والانصراف عن غيره، وهي من أعلى مقامات الأولياء، كما أنها من أعظم أسباب استجابة الدعاء، إذ لا يبلغ العبد مقام العبودية التامة إلّا بإذعانه بفقره التام وحاجته المطلقة إلى الله سبحانه، وأنه الغني الكامل الذي بيده كل شيء.

وقوله: ﴿**من لي غيرك**﴾ يشعر بتمام الحب والحاجة والخضوع إلى الخالق العظيم ونفي ذلك عن غيره، فهو يحب الله ولا يحب غيره، وإليه محتاج لا إلى سواه، وإليه خاضع، وعليه معتمد ومتوكل لا على غيره، وهو معنى الانقطاع إليه.

وفي هذا المقام الذي يبلغ به العبد مرتبة يستحق به سماع ندائه واستجابة دعائه طلب عليه السلام أمرين بهما يتقوم وجوده وديمومة بقائه في خير وسلامة هما: كشف الضر عنه والنظر في أمره، والضر- بضم الضاد- سوء الحال، وبالفتح خلاف النفع، ومنه الضرر[(١)].

والفقرة جاءت بالصيغة الأولى، وسوء الحال لا يراد به القبح والذم كما في اللغة[(٢)]؛ لمنافاته لمقام الدعاء، بل النقص والفقر والحاجة؛ لأنها

(١) الصحاح: ج٢، ص٧١٩-٧٢٠، (ضرر)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٣٧٢، (ضرر).
(٢) المعجم الوسيط: ج١، ص٤٥٩-٤٦٠، (ساء).

جميعاً تعود إلى القصور الذاتي، وباعتبار أنها ترجع إلى العدم وتلازم الإساءة والتقصير تكون قبيحة مشينة لصاحبها، فهي من قبيل التعبير عن الملزوم وإرادة اللازم.

وضرّ العبد ينقسم إلى ذاتي وعرضي، ويشمل الأول ثلاث مراتب:

الأولى: ضرّه الذاتي وحاجته المطلقة، فإنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فوجوده من الله، وبقاؤه منه.

الثانية: ضرّه في صفاته وملكاته، فإن الإنسان في أصل خلقه وتكوينه فقير معدم، والله سبحانه هو الذي صيّر طينته إنساناً، وأعطاه عقلاً وروحاً وفهماً وشعوراً ونطقاً وبياناً وإرادة ورغبة وشهوة وأملاً، وهو الذي يرفع عنه ظلمات الجهل، وينعمه في الرجاء والأمل والطموح العالي؛ ليعيش سعيداً منعماً، ويلذّذه بالعافية والأرزاق المتنوّعة، ولولا ذلك لكان محبوساً في سجنه النفسي والبدني وضيق العيش.

الثالثة: ضرّه في أفعاله وآثاره، فلولا عطاء الله ورأفته وقوته سبحانه لما تمكن الإنسان من فعل شيء، ولم يبق من آثاره شيء، فليس للإنسان أي جهة غنى أو قدرة أو علم، بل ذاتيّه الضرّ والفقر والحاجة.

وواضح أن هذا النحو من الضرّ هو كمال ذاتي للعبد؛ إذ ليس شيء أكمل للعبد من حاجته وفقره إلى ربّه.

وأما النقص فهو الضر العرفي وله مرتبتان:

الأولى: الضرّ المعنوي، وهو ضد العبودية، وتقصير العبد بواجباته تجاه ربه ونفسه بخروجه عن العبودية الرحمانية إلى الشيطانية والأنانية،

فإن الذنوب والقبائح التي يرتكبها العبد توقعه في سوء الحال، وتحجبه عن نيل الفيوضات الإلهية.

والثانية: الضرّ البدني الذي يمنعه من القيام بواجباته ووظائفه كما ينبغي، كالأمراض والأسقام التي يبتلى بها العبد، أو ضيق الحال، ويشمل ذلك الأسرة والصديق والعشيرة والعمل وغيرها من أمور إذا لم تعن العبد على الطاعة أو تكون مانعة منها.

وكشف الضر الذاتي يتم برفع موانع الوجود والملكات الخيّرة والسجايا الفاضلة والأفعال والآثار، وهذا يبتدئه الله سبحانه، ويمنّ بها على عبده، وتكون على أتم ما يكون؛ لأنّها شأن الباري عزّ وجل، وليس للعبد في حدوثها اختيار، وإنما اختياره في بقائها ودوامها، وكشف الضرّ العرضي حدوثه وبقاؤه للعبد فيه بعض الاختيار، والبعض الآخر بيد الله سبحانه، واختيار العبد يكمن في أمرين:

أحدهما: مراقبة النفس وإلزامها بالطاعة واجتناب المعصية، وهذا سبب لكشف الضرّ المعنوي؛ لأنه من سبل التوفيق والهداية والرحمة.

وثانيهما: مراقبة البدن ليتخلص من الأمراض والأعراض الناشئة من سوء الحال والإفراط والتفريط في الطعام والشراب والنوم والنكاح.

فإن أكثر الأمراض ناشئة من سوء اختيار العباد أنفسهم، فمراقبة البدن ومراعاة الموازين الشرعية في تصرفاتهم يعود عليهم بالصحة والعافية وحسن الحال باعتدال المزاج، وواضح أن مراقبة النفس والبدن ليست علة تامة لرفع سوء الحال، بل مقتض، وهو لا يؤثر ما لم ترتفع الموانع، ورفعها

بيد الله سبحانه، ولذا لابد للعبد من توفيق من ربّه لكي يكون مطيعاً، ولابد له من عافية ورزق ودفع للبلاء والابتلاء؛ ليكون سالماً في بدنه ونفسه وأسرته ومجتمعه.

والنظر في الأمر يشير إلى الإقبال على العبد في كل شؤونه وأحواله الذاتية والعرضية؛ لأن النظر في أمر الشخص يستلزم النظر إلى نفس الشخص، وهذا يستوجب تحلية الشخص وتكميله وقبوله وتوفيقه لكل خير.

ولو تعلّق النظر الإلهي بشيء أمطره بالخير والبركة، وأعطاه أفضل ما يستحقه من الكمالات والملكات والتوفيقات، كما ينظر سبحانه إلى الأنبياء والأولياء وأفعالهم وآثارهم فتعم أياديهم خيراً وبركة وهداية، ولعل من هنا خاطبه بقوله ((إلهي وربّي)) أي معبودي الذي ربّاني وكمّلني وسوّاني لا ربّ غيرك، ولا أحد سواك يكشف الضرّ ويعطي ويجود ويقضي الحوائج.

وفي قصة موسى عليه السلام نظر نظرة لطف إلى عصاه بقوله: ﴿**وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ**﴾[1] فصيّرها آية تتفجر منها البركات والخيرات، فكيف إذا نظر إلى العبد نظرة لطف وعناية؟ وفي ذلك إشارة لطيفة لطالبي طريق العبودية أن يصلوا إلى مقام النظر في أمرهم وكشف الضر عنهم، فإنّه لا يكون العبد عبداً إلّا بهما؛ لأن النظر الإلهي للعبد فيه إقبال على العبد، والإقبال سبب كشف الضر عنه في جميع حالاته وأحواله.

---

(١) سورة طه: الآية ١٧.

﴿إلهي وَمَوْلاي أجْرَيْتَ عَلَيّ حُكْماً اتَّبَعْتُ فيهِ
هَوى نَفْسي وَلَمْ أحْتَرِسْ فيهِ مِنْ تَزْيينِ عَدُوّي،
فَغَرَّني بِما أهْوى وَأسْعَدَهُ على ذلِكَ الْقَضاءُ،
فَتَجاوَزْتُ بِما جَرى عَلَيّ مِنْ ذلِكَ بَعْضَ
حُدُودِكَ، وَخالَفْتُ بَعْضَ أوامِرِكَ﴾

أثر القضاء والقدر في مصير العبد

وقد عطف ﴿**مولاي**﴾ على ﴿**إلهي**﴾ مع أنها ترجع إلى حقيقة واحدة لبيان اختلاف الجهة، وقد عرفت أن لإجابة الدعاء مفاتيح، ومن المفاتيح مناجاة الباري والدخول إلى ساحته من الباب المناسب، فإن باب طلب الغنى غير باب طلب الشفاء، وهو الآخر غير باب طلب العلم، وهو غير طلب الرزق.

ومولاي هنا للإشارة إلى أمرين:

أحدهما: أنه سبحانه سيّد العبد ومالكه، والسيّد معني بحاجات عبده ومملوكه.

ثانيهما: أنّه حبيبه وقريبه، ولابد للحبيب أن يجيب، وللقريب أن يسمع.

ويحاكي ذلك قوله: ﴿**أجريت عليّ حكماً**﴾ لأن الحبيب المملوك ليس له إلّا الإقرار والقبول بحكم حبيبه، وماله من خيار سوى الاستجابة والإذعان، والمراد من الحكم إما الحكم التكليفي أو الحكم التكويني الذي قدّر فيه الخالق لعبده أن يكون ممتحناً بالتكاليف والأحكام، ومختبراً بالطاعات والمعاصي، وحيث لا تنافي بينهما فلا مانع من الجمع، ويؤيّده الإطلاق.

وقوله: ﴿**بما جرى عليّ من ذلك**﴾ أي من القضاء والحكم، وإنما قال: ﴿**بعض حدودك وأوامرك**﴾ لأن العصيان والمخالفة تقع في الحدود الشرعية لا التكوينية؛ لأن العبد مجبر في التكوين، ولا تصدق فيها المخالفة،

بل وتقع في الأحكام التشريعية بأن يخالف بعضها لا جميعها؛ لأن العبد لابد وأن يلتزم ببعض الطاعات وإلّا لم يكن عبداً ولا مؤمناً.

فالعبد محاط بإحكام القضاء الإلهي في نشأته وتكوينه وفي أحكامه وتكليفه، فمن جهة مجبول بالهوى وحب الشهوة، ومقرون بالشيطان وإغراءاته، وكلاهما يشتركان في امتحانه وابتلائه، ومن حكم الله سبحانه في الوجود أن يكون التمايز بين البشر والتفاضل ناشئاً من الامتحان والاختيار وليس من الجبر، فقضاء الله سبحانه يراد به قضاء التكوين في جعل الإنسان غرائزياً شهوانياً، وفي عين الحال عاقلاً فطناً، وأحاطه بإغراء الشيطان من دون أن يسلّطه عليه، بل جعل السلطة لعقله وإرادته، وقضاء التشريع في إجراء سنة الاختبار والامتحان، وجعل الإنسان عاقلاً مختاراً له أن يختار سوء الفعل ويستجيب للشهوة والشيطان، وله أن يتنزّه عنهما ويطردهما ويسلك سبيل الرحمن الذي فيه الطاعة والرضوان، فإذا مال العبد إلى المعصية فيكون بهوى نفسه واختياره ومساعدة القضاء؛ لأن الله سبحانه لم يجبر الإنسان على الطاعة، بل قضى عليه أن يكون مختاراً، فمساعدة القضاء تتحقق هنا بعدم منع العبد من العصيان، وهو متوافق مع الاختيار، ولا يراد بها الجبر.

ويستفاد من مجموع الفقرة المباركة أنه عليه السلام يشير إلى بعض جهات عذره في تقصيره، ويرجعه إلى قصوره؛ ليكون أبلغ إلى القبول، وأسرع في الإجابة؛ لأن القوي الحكيم والرحيم الحليم يغفر للقاصر ويعذره، وجهات القصور تكمن في ثلاث هي:

١- أنّه مجبول على الهوى وحب الشهوة.

٢- أنّه محاط بإغراء الشيطان وتزيينه.

٣- أنّه محكوم بالقضاء الإلهي في أن لا يمنعه الباري من ارتكاب المعصية.

فإذا أساء أو فعل ما فيه معصية فإنه لم يكن عن عمد واختيار تامين؛ لوجود من دفعه وخدعه فيه، وفي ذلك أدب رفيع في الدعاء، فهو في الوقت الذي يقر على نفسه بالذنب والمعصية يعتذر بقصوره عن الثبات، فلو أحب الله سبحانه العبودية والطاعة له وفقه وكشف ضرّه وأعانه عليهما، وحيث إن الله سبحانه يحب لعبده ذلك؛ لأنّه خير وهو سبحانه خير مطلق فإنه ينال ذلك، وبها يضمن الإجابة والتوفيق.

وبهذا يعرف السر في ابتداء الفقرة بقوله: ﴿**إلهي ومولاي**﴾ ولم يبتدئ بغيرهما. والأول نسبة إلى الإله وهو المعبود، ولا تحق العبادة إلّا له[1]، ونسبته إلى العبد للتشريف والتخصيص؛ لبيان انقطاع العبودية إليه سبحانه، فيكون أحق بالإجابة وأضمن؛ لأن من لا معبود له إلّا هو سبحانه فإنه لا يقضي حوائجه إلّا هو، وإطلاق الآلهة على الأصنام ونحوها إما من باب العلم الخاص أو الخطأ في التطبيق، أو الخطأ في المفهوم، والثاني أي ﴿**مولاي**﴾ نسبة إلى الولي أي المعين والناصر والمتولي لتدبير الأمر[2]، ومرجعها إلى الوَلْي أي القرب[3]، ونسبته إلى المتكلم تفيد شدة الانقطاع

---

(١) معجم الفروق اللغوية: ص٦٨، (٢٦٩)، (٢٧١).

(٢) مفردات الراغب: ص٨٨٥، (ولي)؛ معجم الفروق اللغوية: ص٥٧٧، (٢٣٤٠).

(٣) معجم مقاييس اللغة: ص١٠٦٥، (ولي).

والقرب الذي به ينال العبد مراده، وتتجلى عليه آثار رحمة ربّه؛ إذ لا معين ولا ناصر ولا متولٍ لأمر العبد إلّا هو سبحانه.

العلم والقضاء والقدر

وربما يقال إن القضاء في قوله عليه السلام: ﴿**وأسعده على ذلك القضاء**﴾ فيه محتملات أخرى غير ما ذكرناه عمدتها اثنان:

الأول: العلم الإلهي الأزلي بأحوال الممكنات قبل الخلق، والإسعاد بمعنى الإعانة والتوفيق. يقال: أسعده الله أي وفقه، وأسعدت النائحة الثكلى أي أعانتها على البكاء والنوح، ومنه السعادة أي معاونة الله للإنسان على نيل الخير، وتضادها الشقاوة، فسعادة القضاء الإلهي[1] أي مساعدته، والمعنى مطابقة ما يقع في الخارج بعد الخلق للعلم الإلهي قبل الخلق، وقد ثبت في مباحث علم الكلام أن كل موجود يقع بحسب قانون القضاء والقدر الإلهي.

والقضاء هو العلم الإلهي بجميع المخلوقات قبل خلقها، والقدر هو تفصيل القضاء ومقام بروز العلم في الخارج متدرجاً حسب الحكمة والمصلحة.

((فمساعدة القضاء)) تكون بمعنى تهيئة الأسباب والمقتضيات للموجود، ومنها خلق المكلَّف عاقلاً مختاراً مثلاً، ولعله باعتبار عدم إيجاد الموانع التكوينية لصدور أفعال المكلف أو عدم إيجاد الصارف في نفسه لصدور الفعل.

---

(١) بصائر ذوي التمييز: ج٣، ص٢٢١، بصيرة (٢٤)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٤٣٠، (سعد).

وربما يقال: إذا التزمنا أن كل ما يقع في الخارج فهو مطابق للعلم الإلهي والذي لم يطابق لم يقع في الخارج يلزم منه الجبر، وهو مبنى الأشاعرة، وبطلانه ظاهر؛ لأننا إما أن نقول بعدم إمكان تخلف ما يقع في الخارج عن علمه، أو نقول بإمكان تخلّفه فيستلزم الجهل عليه سبحانه، وكلاهما محال؟!

وقد أُجيب على ذلك: أن العلم الإلهي تابع للمعلوم وليس العكس، والإشكال يرد على القول بتبعية المعلوم للعلم دون العكس[1]، والحق أنه لا يرد الإشكال بل يعمّقه؛ لأنّ تبعية العلم للمعلوم ملازمة لتعدد القدماء؛ لضرورة أسبقية المتبوع للتابع، كما لا يتوافق مع مسلك الحكماء القائلين بأن العلم الإلهي عنائي -بحسب اصطلاحهم-، وأنّه سبب وجود المعلوم، بل عكس الأشاعرة والحكماء الأمر فذهبوا إلى أن القضاء هو التقدير، والقدر هو سبب الوجود.

فعن شرح المواقف: اعلم أن قضاء الله عند الأشاعرة هو إرادته الأزلية المتعلقة بالأشياء على ما هي عليه فيما لا يزال، وقدره إيجاده إياها على قدر مخصوص وتقدير معيّن في ذواتها وأحوالها، وأمّا عند الفلاسفة فالقضاء عبارة عن علمه بما ينبغي أن يكون عليه الوجود حتى يكون على أحسن النظام وأكمل الانتظام، وهو المسمّى عندهم بالعناية التي هي مبدأ لفيضان الموجودات من حيث جملتها على أحسن الوجوه وأكملها،

---

(١) انظر شرح أصول الكافي: ج١٢، ص٥٧؛ نور البرهان: ج٢، ص٢٥١؛ حقائق التأويل: ص٢٦٦، الحاشية.

والقدر عبارة عن خروجها إلى الوجود العيني بأسبابها على الوجه الذي تقرر في القضاء[١].

ويبطله ما جاء عن أبي الحسن الرضاعليه السلام وقد سأله يونس عن معنى القدر والقضاء فقال: «هي الهندسة ووضع الحدود من البقاء والفناء، ثم قال: والقضاء هو الإبرام وإقامة العين»[٢].

الثاني: المراد من القضاء هنا ما ثبت في اللوح المحفوظ كما هو مضمون طائفة من الأخبار في باب خلق اللوح والقلم[٣]، وفي تفسير قوله تعالى: **﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾**[٤] وفي آية: **﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**[٥].

وحاصلها: أن القلم عندما خلقه الله سبحانه أمره أن يكتب ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة.

وإطلاقه يشمل المعاصي والطاعات التي يرتكبها العبد، وضعفه ظاهر؛ لأنه مناف لمنطوق الدعاء، وملازم للجبر، وهو باطل بالضرورة،

---

(١) شرح المواقف: ج٨، ص١٨٠-١٨١.

(٢) الكافي: ج١، ص١٥٧-١٥٨، ح٤.

(٣) انظر تفسير نور الثقلين: ج٥، ص٣٨٩، ح٩.

(٤) سورة القلم: الآية ١.

(٥) سورة الجاثية: الآية ٢٩؛ ورد في تفسير الآية ٢٩ من الجاثية كما في مجمع البيان للطبرسي إذ قال: وقيل المراد بالكتاب اللوح المحفوظ يشهد بما قضي فيه من خير وشر وعلى هذا فيكون معنى نستنسخ الخزنة ما هو مدوّن عندها من أحوال العباد وهو قول ابن عباس؛ مجمع البيان: ص٩، ص١٣٣.

وأما أحاديث اللوح والقلم ففيها توجيهات أخرى تتوافق مع الاختيار نوكلها إلى محلها.

هذا وقد ذكروا أن الفرق بين الحدود والأوامر هو أن الحدود تتعلق بمقام المولى والأوامر تتعلق بمقام العبد، والمراد من الأول حدود الربوبية والعبودية؛ إذ لو خالف العبد مولاه خرج عن حدود الربوبية التي يجب أن تطاع وتحترم ولا تعصى والعاصي متجرئ على مولاه، وكذلك خارج عن حدود العبودية التي مقتضاها الخضوع والالتزام، ولذا قال: تجاوزت؛ إذ التجاوز يطلق على التمرد وانتهاك الحرمة والإتيان بمنافيات الآداب والرسوم.

أما الأوامر فهي شأن الشرع، ومخالفة الشرع معصية يستحق فيها العبد العقاب؛ لذا سمّاها الأوامر الأعم من الواجبات والمحرّمات؛ لأن المحرّم مرجعه إلى الأمر وان كان نهياً؛ إذ الاثنين طلب من العالي لكن أحدهما طلب للفعل والآخر طلب للكف عنه، والظاهر أنهما من قبيل الفقير والمسكين إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا، وعند الاجتماع يراد بالحدود ما يتعلق بحقوق الله والعبد، والأوامر ما يتعلق بالواجبات والطاعات، ولذا عقّبه بقوله: ﴿**فلك الحجة عليّ في جميع ذلك**﴾ لأن الحقوق معلومة بالعقل والفطرة، والتكاليف معلومة بالشرع، وهي واصلة إلى العبد، والبيان فيها تام فلا عذر على المخالفة.

﴿فَلَكَ الْحَمْدُ (اَلْحُجَّةُ) عَلَيّ فِي
جَمِيعِ ذلِكَ﴾

كمال الحجة وفلسفة الابتلاء

الحجة هنا بمعنى الغلبة، ويراد بها ما يحتج به في مقام المحاسبة والمعاقبة، وهي في العبد عذره أمام ربّه، وفي المولى إلزامه بما يستحق به العقوبة، فحجة العبد أمام ربّه ما يستند إليه ويوجب استحقاقه العذر، وحجة الرب ما يستند إليه ويوجب استحقاق العبد العقوبة[1]. وجميع ذلك إقرار على نفسه باتباع الهوى والشيطان الموجب لوقوعه في تجاوز حدود ربّه ومخالفة أوامره.

هذا وقد ورد الدعاء في بعض النسخ: «فلك الحمد عليّ في جميع ذلك»[2].

والظاهر أن الحمد لا يتناسب كثيراً مع مقام الدعاء هنا؛ لأن الحمد على الطاعة يصح في مقام شكر التوفيق لها أو شكر النعم، ولا يتناسب مع العصيان؛ لقبح شكر التأييد على المعصية كما في هذا المقام. نعم ربما يمكن أن نوجه العبارة بناء على الحمد بتوجيهات:

منها: الحمد على جميع ما تقدم؛ لأنه لم يصدر منك إلّا الخير والنفع والنعم والوفيرة، وبدلاً من شكرها خالفتك فيها، فلذا وجب عليه أمران:

أحدهما: أن يحمد ويشكر النعم.

وثانيهما: أن يستغفر من تقصيره وإسرافه.

---

(١) بصائر ذوي التمييز: ج٢، ص٤٣١، بصيرة (٨)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص١٥٦، (حج)؛ مجمع البحرين: ج٢، ص٢٨٦، (حجج).

(٢) المصباح: ص٧٣٩؛ زاد المعاد: ص٦٢.

ومنها: أن الحمد على نفس القضاء وليس المقضي، كما أن الرضا كان على نفس القضاء لا المقضي، فمعنى العبارة يجب عليّ الحمد والثناء على كل ما كان في عالم القضاء والقدر؛ لأنه في محصلته نعمة عظيمة يستحق الحمد والشكر، ولعل هذا أفضل الوجوه.

ومنها: أن العبد بعد العصيان بإغراء الشيطان والهوى يلتفت إلى وجوب طرق باب التوبة والمغفرة، وفي علمه يدرك أن ربّه رحيم ودود يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن كثير؛ إذ رحمته واسعة وقد سبقت غضبه، فيحمده لهذه الرحمة، ولعل الفقرة التي بعدها تؤيد هذا التوجيه؛ إذ يقول عليه السلام: ﴿**وقد أتيتك يا إلهي بعد تقصيري وإسرافي على نفسي معتذراً نادماً منكسراً مستقيلاً مستغفراً منيباً مقراً مذعناً معترفاً، لا أجد مفراً مما كان منّي ولا مفزعاً أتوجه إليه في أمري غير قبولك عذري وإدخالك إيّاي في سعةٍ من رحمتك**﴾.

ومنها: أن الحمد والشكر من لوازم العبودية والرضا بأمر الله وقضائه سواء في حال النعمة أو النقمة؛ إذ العبد الحقيقي هو الذي يسلّم أمره إلى مولاه على أي حال، فجاء الحمد على هذه الحالة، ولذا ورد في الدعاء: ﴿اللهّم ثبّت حجتي في الدنيا والآخرة﴾(١) أي قولي وإيماني في الدنيا، فأكون قدوة للغير ومأمون السبيل، فلا ذنب عليّ ولا تقصير، وعند مساءلة الملكين في القبر وفي الحساب.

---

(١) مجمع البحرين: ج٢، ص٢٨٨، (حجج)؛ النهاية في غريب الحديث: ج١، ص٣٤١؛ لسان العرب: ج٢، ص٢٣٠، (حجج).

وفي الفقرة الشريفة يقر بأن الحجة لله ثابتة على عبده؛ لأن كل ما كان من شأن الخالق أعطاه لعبده، وهي ثلاثة أمور:

الأول: الوجود الكامل، فإن الله سبحانه خلق العبد وأعطاه كل ما يستحقه في وجوده من حياة وعقل وعلم وقدرة وإرادة على الفعل وقابلية لفهم التكليف وامتثاله.

الثاني: أعطاه الرزق وما يقوّم معيشته من طعام وشراب وأمن وسلامة تقوّم حياته الشخصية، ومجتمع متكافل يقوّم حياته الاجتماعية.

الثالث: أرسل له الأنبياء، وأنزل عليه الكتب، ونصب له الأولياء والأئمة عليهم السلام؛ لكي يقودوه إلى الحق، ويبعدوه عن الباطل، ويقرّبوه إلى الطاعات، ويبعّدوه عن المعاصي، وهذه جميعاً توجب للخالق حقوقاً في ذمة المخلوق تحثه على الطاعة والانقياد إلى ربّه، فإذا ستر كل ذلك وغض طرفه عن هذه الحقوق وانقاد لشهواته واتبع هواه وعصى ربّه كانت عليه الحجة، واستحق العقوبة.

﴿وَلا حُجَّةَ لي فيما جَرى
عَلَيَّ فيهِ قَضاؤُكَ، وَأَلْزَمَني
حُكْمُكَ وَبَلاؤُكَ﴾

الحجة التامة

ونفي الحجة بلسان نفي الجنس يشير إلى حقيقة تكوينية؛ لنفوذ حكم الله وقضائه في خلقه وتشريعية؛ لتقصير العبد وقصوره في شكر نعم ربّه، و: ﴿ما﴾ موصولة و: ﴿جرى﴾ أي مضى ونفذ، ومنه قولهم: (جرى القلم بما فيه) أي مضى على ما ثبت عليه حكمه في اللوح المحفوظ[1] ونحوه، ولعل هذه الفقرة تقوي التفسير الثاني لمعنى القضاء في الفقرة قبل السابقة؛ إذ بعد أن جعل الله العبد مختاراً في أفعاله لم تبق للعبد حجة على ربّه في العقوبة والمؤاخذة، بل يلازمه الحكم الإلهي في وجوب الامتثال والطاعة أولاً، وكذلك ترتيب الآثار الوضعية عند المعصية في الدنيا؛ إذ الأثر لا ينفك عن المؤثر ثانياً.

والعقاب في الآخرة ثالثاً، إما لأنّ العقاب أثر تشريعي للعمل، أو هو شكل العمل وجوهره بناء على تجسم الأعمال، أو نماؤه، فأثر العمل يلازم العامل بعد أن كان مختاراً في الامتحان والاختبار.

فالبلاء هنا بمعنى الامتحان، وإطلاق الابتلاء على التكاليف الإلهية لا إشكال فيه؛ لأن التكليف من التكلّف والمشقة وغايته الامتحان.

فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: ﴿ليس شيء فيه قبض أو بسط مما أمر الله به أو نهى عنه إلّا وفيه من الله عز وجل ابتلاءٌ وقضاء﴾[2].

---

(١) مجمع البحرين: ج١، ص٨٣، (جرا).

(٢) التوحيد: ص٣٥٤، ح٣؛ البحار: ج٥، ص٢١٧، ح٦.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «لا يقولن أحدكم: اللهّم إنّي أعوذ بك من الفتنة؛ لأنه ليس أحدٌ إلّا وهو مشتمل على فتنة، ولكن من أستعاذ فليستعذ من مضلّات الفتن، فإن الله سبحانه يقول: ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[١]. ومعنى ذلك أنه سبحانه يختبرهم بالأموال والأولاد؛ ليتبين الساخط لرزقه والراضي بقسمه وإن كان سبحانه أعلم بهم من أنفسهم، ولكن لتظهر الأفعال التي بها يستحق الثواب والعقاب»[٢]، وربما يراد بالحكم والابتلاء ما وقع في عالم الذر وأخذ الميثاق من بني آدم بالشهادة لله بالربوبية والعبودية له وتجنب عبودية الشيطان كما نص عليه الكتاب العزيز بقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾[٣] وقوله سبحانه: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾[٤] وهما صريحان في وجود تكليف وشهادة وإقرار وابتلاء وطاعة عن اختيار، ومن خالف حكم عليه بالعصيان في الدنيا، وألزمه هذا الحكم، ومن أطاع حكم عليه بالطاعة، والنتائج غير الاختيارية تكون اختيارية إذا كانت أسبابها أو مقدماتها اختيارية، فلا تنافي بين الإلزام بالحكم والقضاء وبين الاختيار؛ لأن ما بالاختيار لا ينافي الاختيار.

---

(١) سورة الانفال: الآية ٢٨.

(٢) نهج البلاغة: ج٤، ص٢٠، خطبة ٩٣.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٧٢.

(٤) سورة يس: الآيتان ٦٠-٦١.

ويتحصل: أن العبد يقر بأن حكم الخالق ملزم له، وهو في الوقت الذي يكون بلاء وابتلاء يكون قضاء من الله سبحانه، ومن مجموعهما يستفاد أن القضاء الإلهي لا يلازم الجبر، ولا يستلزمه؛ لأنه سبحانه قرر لعالم الدنيا أن يكون دار ابتلاء وامتحان، وأن تكون التكاليف والأحكام الشرعية وسيلة الابتلاء، وفي عين الوقت هي نظام يوصل العباد إلى أفضل مصالحهم الدينية والدنيوية، وجعل الإنسان فاعلاً مختاراً بالقصد والإرادة؛ ليتوافق مع سنن الامتحان والثواب والعقاب وتفاوت المراتب والدرجات.

فلو كان الإنسان مجبوراً لما صح أن يلزمه البلاء ولم يكن وجه لثبوت الحجة الإلهية عليه؛ لأن المجبور لا يحاسب على شيء من فعله.

وفي هذه الفقرة والسابقة عليها أكمل عليه السلام دورة الحجة على العبد من الطرفين؛ لأن الباري عز وجل أعطاه كل ما يستحقه، فلابد وأن يعطي العبد لربه ما يستحقه، ولكن الواقع يثبت أن العبد استوفى حقوقه كاملة ولكنه لم يف بحقوق ربّه؛ لذلك تكون الحجة عليه تامة، ولذا أقر على نفسه بالتقصير، وجاء معتذراً نادماً كما في الفقرة التالية.

﴿وَقَدْ أتَيْتُكَ يا إلهي بَعْدَ تَقْصيري
وَإِسْرافي عَلى نَفْسي مُعْتَذِراً نادِماً
مُنْكَسِراً مُسْتَقيلاً مُسْتَغْفِراً﴾

أثر التوبة في سعادة الإنسان

بعد ثبوت الحجة على العبد ليس له حل سوى التوبة، ومفتاح التوبة وباب قبولها هو الاعتراف بالتقصير والذنب؛ لأنه من مقامات العبودية، بخلاف الجحود والتكبر وتنزيه النفس من التقصير فإنه من الموانع، ولهذا ابتدأ اعتذاره باعترافه بتقصيره أمام ربّه وتجاوزه على حدوده وندمه على ذلك، فجاء معتذراً تائباً.

وفي هذه الفقرة الشريفة إشارة إلى قاعدة هامة ترشد العبد إلى أدب التوبة، وتدله على سبيل قبولها، وهذه القاعدة لا تختص بحقوق المولى، بل حتى في حقوق العباد، فإن من أهم أسباب العفو والتجاوز بين العباد هو إقرار المذنب المقصّر بذنبه وتقصيره، وهذا النهج أحد أهم أساليب حل المنازعات ورفع الخصومات بين البشر على صعيدهم الشخصي أو الاجتماعي، بل حتى على صعيد العلاقات بين الدول، فإن المذنب بإقراره بذنبه يكون قد اختصر الطريق إلى الحل وانتزع فتيل الأزمة والنزاع من القلوب والنفوس، وفي عين الحال أذعن للحق، ورسّخ مبادئ العدالة، وأغلب الحروب والصراعات تستمر بسبب المكابرة وتمادي المذنب المقصر وتعاليه على الحقيقة.

هذا من حيث الأثر النفسي والاجتماعي، وأما من حيث المقام المعنوي فالتوبة هي القدم الأولى في طريق رضا الله سبحانه، ولا يمكن أن يصل العبد

إلى مقام أو رتبة ما لم يفتتح طريقه بالتوبة؛ لأن طريق الله يتقوّم بالمحبة، وقد نصَّ الباري عزّ وجل على أنّه: ﴿يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[١] والتوبة والتطهّر متلازمان لا مترادفان؛ لملازمة التوبة للطهارة، وملازمة الطهارة للتوبة، فأول نهر يغسل به العبد قصوره وتقصيره ويزكي نفسه أمام ربّه هو الاستغفار من الذنب، وفي النبوي الشريف: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»[٢] ومثله عن الإمام الباقر عليه السلام[٣]، وإذا برئ العبد من الذنب وكان كمن لا ذنب له نال درجات عالية في القرب، وتشبّه ببعض مقامات المعصوم عليه السلام فيزكو في نفسه وفي فكره وعمله.

وتضمنت الفقرة المباركة الإشارة إلى الإسراف على النفس وهو التعدي عليها باقتراف الذنب أعم من الشرك وسائر الذنوب الكبيرة والصغيرة[٤]، فكل مخالفة ومجاوزة للحد إسراف ذنباً كان أو قبحاً أو رذيلة.

وفي حديث الأصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام: «للمسرف ثلاث علامات: يأكل ما ليس له، ويشتري ما ليس له، ويلبس ما ليس له»[٥] وفيه معنيان:

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٢٢.

(٢) البحار: ج٦، ص٢١، ح١٦.

(٣) الكافي: ج٢، ص٤٣٥، ح١٠؛ البحار: ج٦، ص٤١، ح٧٥.

(٤) مجمع البيان: ج ٨، ص٤٠٧-٤٠٨.

(٥) الفقيه: ج٣، ص١٦٧، ح٣٦٢٤؛ الخصال: ص٩٧، ح٤٥؛ مجمع البحرين: ج٥، ص٦٩، (سرف).

أحدهما: أن يتصرف في أموال الغير دون إذن منهم، فيتصرف في ملك الباري عزّ وجل دون ترخيص منه كناية عن أكل الحرام، ويتصرف في أموال الناس كذلك، فيكون فعله حراماً وإن كان المتصرف فيه في نفسه حلالاً كالغاصب للدار.

وثانيهما: أن يأكل ما لا يليق بحاله أكله كالأكل الضار به بدنياً أو معنوياً، ويشتري ما لا يليق بحاله شراؤه كما إذا اشترى الشيء بأكثر من ثمنه شرهاً منه أو إسرافاً، أو اشترى الغني الشيء بالثمن الزهيد بخلاً منه، ويلبس ما لا يليق بحاله لبسه ومعناه ظاهر.

قوله (وإسرافنا في أمرنا) أي إفراطنا فيه، واستغفر منه؛ لأن الإفراط يقود إلى التضييع والخسارة ومنشؤه الجهل، ولذا فسّر البعض الإسراف بالجهل[١].

والظاهر أن الاعتذار والندم والانكسار والاستقالة والاستغفار الوارد في الفقرة الشريفة يقابل الخضوع والتذلل والخشوع الذي ورد في فقرة سابقة، والذي يبدو أن الاعتذار فعل ظاهر على الجوارح يبرزه العبد بالفعل أو اللفظ. أما الندم فهو صفة جانحية تلتهب في القلب والضمير تأنيباً ولوماً، بينما الانكسار أعم منهما؛ لأنه يظهر على العبد في جوانحه وجوارحه. أما الاستقالة فهي حالة تظهر على الجوارح كالاستغفار، مفادها الإقلال من قيمة الشيء تصغيراً[٢]، أو طالباً الإقالة أي العفو عما أبرم من

---

(١) مجمع البحرين: ج٥، ص٦٩، (سرف).

(٢) انظر مجمع البحرين: ج٥، ص٤٥٥، (قلل)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٧٥٦، (قلّ).

عهد وميثاق وصولاً إلى العفو عن آثار نقضها، فهو من قبيل رفع السبب وصولاً لرفع المسبب. فالاستغفار أخص منها؛ لأنه طلب المغفرة بالقول واللسان، بينما الاستقالة أعم منه، ومن هنا قالوا إن الاستغفار قولي وعملي، والعملي هو التوبة.

مراتب التوبة

وأولها توبة الندم، بأن يندم العبد على فعله، وقد ورد في دعاء الإمام السجاد عليه السلام: ﴿اللهم إن يكن الندم توبة إليك فأنا أندم النادمين﴾[١] وحقيقتها مراتب ثلاث: علمية وحالية وعملية.

والترتيب بينها طولي، بمعنى كل واحدة مقدمة للأخرى، فالعلمية تعني: معرفة أضرار الذنوب والمعاصي وآثارها، وأن كل ذنب يوجد حجاباً بين العبد وربّه، ويلوّث قلبه وضميره، فتنعكس آثاره الوضعية على سلوكه ثم عاقبته ومصيره ﴿وأنك لا تحتجب عن خلقك إلّا أن تحجبهم الأعمال دونك﴾[٢]؛ لأن الأعمال القبيحة تحجب العبد من ربّه حسب قانون التجاذب والتنافر، فإن الحسن ينجذب إلى الحسن، والقبيح ينجذب إلى القبيح وينفر من الحسن؛ إذ شبيه الشيء منجذب إليه، ولا يعقل أن ينال العبد مقام القرب من الله سبحانه الذي هو مصدر الخير

---

(١) الصحيفة السجادية: ص١٥٨.

(٢) مصباح المتهجد: ص٥٨٩؛ الصحيفة السجادية: ص٢١٥.

والجمال والبركة والنور والهدى بنفس جاهلة شهوانية وأعمال قبيحة ومعتقدات ضالة، والله سبحانه لا يحتجب عن العباد إلّا أن العباد أنفسهم يحجبون أنفسهم عنه، ويوجدون دواعي النفرة، ولذا يختلف الندم بحسب مراتب العباد، فأهل اليقين ندمهم على القصور والاحتجاب عن ساحة الربّ، وأهل المعرفة ندمهم على الجهل، وأهل الشهوة ندمهم على المعاصي، فالعبد بعمله السيّء قصوراً أو تقصيراً يحتجب عن ربّه، وهو أشد العقوبات التي ينالها أهل اليقين.

فكل فعل يبعد العبد عن مولاه فيه ألم ومشقة، وكل ترك كذلك، هذه حالة التألم والعذاب إذا تولدت في القلب لا علاج لها إلّا بالتوبة والمراقبة وتدارك القصور والتقصير، وقد ذكروا أن التائب لابد أن يتدارك بفعل ثلاثة أمور:

أحدها: بالقياس إلى الزمن الماضي.

وثانيها: بالقياس إلى الزمن الحاضر.

وثالثها: بالقياس إلى الزمن المستقبل.

أما بالقياس إلى الزمان الماضي فهو ينشعب إلى شعبتين:

أحداهما: الندم على ما فات والأسف على ما زلّت به قدمه في الخطيئات.

وثانيتهما: التدارك لما وقع، وله نسب ثلاث:

الأولى: بالنسبة إلى الحق تعالى بالتضرّع إلى حضرته، والالتزام بخدمته، والاعتكاف ببابه، والاستكانة إلى جنابه.

والثانية: بالنسبة إلى نفسه، حيث جعل نفسه في معرض سخطه تعالى، بأن يؤدّي حقّها بإصلاحها.

والثالثة: بالنسبة إلى الغير الذي أذّاه بالمضرات القولية والفعلية.

وأمّا ما بالقياس إلى الزمان الحاضر فهو أن يترك الذنب الذي كان يفعله في الحال.

وأما ما بالنسبة إلى الزمان المستقبل فهو أن يعزم على أن لا يعود إليه، وحينئذ يصدق فيه: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»[١] فهذه شروط توبة العام، ومنه يعلم حال (توبة الخاص) وأمّا (الأخص) فأمره أصعب[٢]، وهو أحد أسرار كثرة التضرع والمناجاة التي ناجى بها المعصومون عليهم السلام.

فالتوبة الحالية تتحقق بترك الذنوب والقبائح الحالية، وأما الاستقبالية فتتحقق بالعزم على ترك المعاصي الباعثة على الاحتجاب عن الحبيب إلى آخر العمر، وبالنسبة للماضي تتعلق بالندم على ما أسلف من عمل طالح، ثم بجبران ما فاته من خير بسبب الغفلة، وتداركها بما يقوم مقامها ويمحق آثارها؛ إذ العلم بأن الذنوب سموم تهلك الإنسان وتبعده عن ربّه. هذه الرتبة الأولى للتوبة، وهي التوبة العلمية، والندامة عليها الرتبة الثانية، وهي الحالية، وتدارك ما فاته الرتبة الثالثة، وهي العملية، ولأن الندم يلازم

---

(١) الكافي: ج٢، ص٤٣٥، ح١٠؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج١، ص٧٩، ح٣٤٧.

(٢) شرح الأسماء الحسنى: ج١، ص٣٥، (يتصرف)؛ شرح نهج البلاغة: ج٢٠، ص٥٧.

الجميع؛ إذ لا يتحرك العبد إلى ترك القبيح وتدارك قبحه بالعمل إلّا بعد أن يعلم ويندم. وإليه يشير الحديث عن الباقرعليه السلام ﴿كفى بالندم توبة﴾[(١)] وفسّره العلامة المجلسيقدس سره بأن الندامة الصادقة تستلزم العزم على الترك في المستقبل غالباً، أو المعنى أنه فرد من التوبة وإن لم يؤثر ما تؤثر التوبة الكاملة[(٢)]؛ لأن التأثير الأكبر للندم مع التدارك.

ومن ذلك يعرف أن التوبة واجبة عقلاً وشرعاً. أما عقلاً فلوجوب دفع الضرر الخطير المتيقن بل إن في عقاب الآخرة الخطر المظنون، بل والموهوم واجب الدفع عقلاً وعقلائياً؛ لأن المحتمل خطير وإن كان الاحتمال ضعيفاً، فكيف إذا ثبت الخطر باليقين النقلي في أن لكل معصية عقاباً، ولكل قبيح أثراً مسانخاً له، ويمكن الاستدلال للوجوب من باب الحسن والقبح أيضاً، وأما نقلاً فلصريح الآيات والروايات وهي متواترة، ومن هنا اتفقت كلمة أهل الأديان على وجوبها.

نعم لا خلاف بين المتكلمين في وجوب التوبة سمعاً، واختلفوا في وجوبها عقلاً، فأثبته المعتزلة؛ لدفعها ضرر العقاب. قال الشيخ البهائيقدس سره: هذا لا يدل على وجوب التوبة عن الصغائر ممن يجتنب الكبائر؛ لكونها مكفّرة، ولهذا ذهبت البهشمية إلى وجوبها عن الصغائر سمعاً لا عقلاً. نعم الاستدلال بأن الندم على القبيح من مقتضيات العقل الصحيح يعمّ

(١) الكافي: ج٢، ص٤٢٦، ح١؛ التوحيد: ص٤٠٨، ح٦؛ البحار: ج٦، ص٢٠، ح٩.
(٢) البحار: ج٦، ص٢٠، بيان.

القسمين، وأما فورية الوجوب فقد صرّح بها المعتزلة وأصحابنا يوافقونهم على الفورية لكنهم لم يفصّلوا تفصيلهم[١].

وقد وصف أهل المعرفة الذنب بالمرض الذي يصيب العبد وله أسباب وآثار كثيرة، ومن أسبابه الغفلة والغرور، كما له علاج وأوّله الاستغفار، وإليه يشير قول أمير المؤمنين عليه السلام: «الذنوب داء والدواء الاستغفار، والشفاء أن لا تعود»[٢].

خصوصيات التوبة الصادقة

والمستفاد من النصوص الشريفة أن التوبة الصادقة تمتاز بخصوصيات كثيرة:

منها: أنها تقابل بالقبول والغفران فتمحي الذنوب، وتطهّر القلوب والنفوس؛ لأنّها من الوعد الإلهي؛ إذ وصف نفسه بأنه (قابل التوب)[٣].

ومنها: أنّها تقرّب العبد وتختصر له طرق الوصول.

ومنها: أنّها تزيد من معرفة العبد بربّه، وتدل على حسن ظنّه به، وحسن الظن بالله سبحانه من أهم أبواب استجابة الدعاء وقضاء الحوائج؛ لأنّه سبحانه عند حسن ظن عبده المؤمن، وفي رواية محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: «يا محمد بن مسلم، ذنوب المؤمن إذا تاب منها مغفورة

---

(١) انظر البحار: ج٦، ص٤٨، الخامس (بتصرف).

(٢) عيون الحكم والمواعظ: ص٥٦؛ مستدرك الوسائل: ج١٢، الباب ٨٦ من أبواب جهاد النفس وما يناسبه، ص١٢٩، ح١٣٧٠٧.

(٣) انظر سورة غافر: الآية ٣.

له، فليعمل المؤمن لما يستأنف بعد التوبة والمغفرة، أما والله إنّه ليست إلّا لأهل الايمان﴾ قلت: فإن عاد بعد التوبة والاستغفار من الذنوب وعاد في التوبة؟! فقال: ﴿يا محمد بن مسلم، أترى العبد المؤمن يندم على ذنبه ويستغفر منه ويتوب ثم لا يقبل الله توبته؟﴾

قلت: فإنه فعل ذلك مراراً، يذنب ثم يتوب ويستغفر (الله) فقال: ﴿كلّما عاد المؤمن بالاستغفار والتوبة عاد الله عليه بالمغفرة، وإنّ الله غفور رحيم يقبل التوبة، ويعفو عن السيئات، فإيّاك أن تقنّط المؤمنين من رحمة الله﴾[(١)].

وورد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ﴿إنّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، الكبائر فما سواها﴾ قال: قلت: دخلت الكبائر في الاستثناء؟ قال: ﴿نعم﴾[(٢)].

نعم يجب أن يكون الاستغفار حقيقياً، ولا يكون كذلك إلّا إذا تساوى فيه الباطن والظاهر والعمل، وهو ما تشير إليه رواية كميل قال: قلت لأمير المؤمنين عليه السلام: يا أمير المؤمنين العبد يصيب الذنب فيستغفر الله منه، فما حدّ الاستغفار؟ قال: ﴿يا بن زياد التوبة﴾ قلت: بس؟ قال: ﴿لا!﴾ قلت: فكيف؟ قال: ﴿إنّ العبد إذا أصاب ذنباً يقول: أستغفر الله

---

(١) الكافي: ج٢، ص٤٣٤، ح٦.

(٢) الكافي: ج٢، ص٢٨٤، ح١٨؛ الوسائل: ج١٥، الباب ٤٧ من أبواب جهاد النفس وما يناسبه، ص٣٣٣، ح٢٠٦٦٥.

بالتحريك﴾ قلت: وما التحريك؟ قال: ﴿الشفتان واللسان. يريد أن يتبع ذلك بالحقيقة﴾ قلت: وما الحقيقة؟ قال: ﴿تصديق في القلب، وإضمار أن لا يعود إلى الذنب الذي استغفر منه﴾ قال كميل: فإذا فعلت ذلك فأنا من المستغفرين؟ قال: ﴿لا﴾ قال كميل: فكيف ذاك؟ قال: ﴿لأنّك لم تبلغ إلى الأصل بعد﴾ قال كميل: فأصل الاستغفار ما هو؟ قال: ﴿الرجوع إلى التوبة من الذنب الذي استغفرت منه، وهي أوّل درجة العابدين، وترك الذنب، والاستغفار اسم واقع لمعان ستّ: أوله الندم على ما مضى، والثاني العزم على ترك العود أبداً، والثالث أن تؤدي حقوق المخلوقين التي بينك وبينهم، والرابع أن تؤدي حق الله في كلّ فرض، والخامس أن تذيب اللحم الذي نبت على السحت والحرام حتى يرجع الجلد إلى عظمه، ثم تنشئ فيما بينهما لحماً جديداً، والسادس أن تذيق البدن ألم الطاعات كما أذقته لذّات المعاصي﴾[1].

فمتى ما كانت توبة الإنسان صادقة وجب قبولها؛ لأنها مقتضى الوعد، وعدم قبولها خلف للوعد، وهو نقص تتنزّه ساحة الربوبية عنه، وهو ما يقضي به العقل والضرورة؛ إذ لو لم يقبل التوبة النصوح لأمكن أن يسأل لماذا؟ هل لأنه بخيل؟ أو يحب الانتقام؟ أو يعجز عن القبول؟ أو للكذب؛ إذ وصف نفسه بالرحمة ودعا عباده إلى التوبة وعدم القنوط من رحمته، وأنه يغفر الذنوب جميعاً ومع ذلك لم يغفر؟ وكلّها محالة.

---

(١) تحف العقول: ص١٩٧؛ البحار: ج٦، ص٢٧، ح٢٨.

ومن هنا لم يختلف أهل الإسلام على القبول كما اتفقوا على سقوط العقاب الأخروي بها، وإنّما الخلاف في أنّه هل يجب على الله ذلك حتى إذا عاقب بعد التوبة كان ظلماً؟ أو هو تفضّل يفعله سبحانه كرماً منه ورحمة بعباده؟

فالمعتزلة على الأول، والأشاعرة على الثاني، وإليه ذهب شيخ الطائفةقُدِّسَ سِرُّهُ في كتاب الاقتصاد، والعلامة الحلّيقُدِّسَ سِرُّهُ في بعض كتبه الكلامية، وتوقّف المحقق الطوسي طاب ثراه في التجريد، ومختار الشيخين هو الظاهر من الأخبار وأدعية الصحيفة الكاملة وغيرها، وهو الذي اختاره الشيخ الطبرسيقُدِّسَ سِرُّهُ ونسبه إلى أصحابنا كما عرفت[1].

وربما يجمع بينهما بأن أصل الوعد في قبول توبة التائبين هو تفضّل ولطف من الله سبحانه؛ لأنه كتب على نفسه الرحمة، والالتزام بها واجب عقلاً؛ لأن عدم الالتزام قبيح لا يليق بشأنه سبحانه، وهو ما يستفاد من الأخبار، فعن معاوية بن وهب قال: سمعت أبا عبد اللهعَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: «إذا تاب العبد توبة نصوحاً أحبّه الله فستر عليه في الدنيا والآخرة» فقلت: وكيف يستر عليه؟ قال: «ينسي ملكيه ما كتبا عليه من الذنوب، ويوحي إلى جوارحه: اكتمي عليه ذنوبه، ويوحي إلى بقاع الأرض: اكتمي ما كان يعمل عليك من الذنوب، فيلقى الله حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب»[2].

---

(١) انظر البحار: ج٦، ص٤٨، السادس.

(٢) الكافي: ج٢، ص٤٣٠، ح١.

ويؤكده ما ورد في الدعاء كلّ ذلك بشرط أن تكون التوبة نصوحاً، فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «التوبة النصوح أن يكون باطن الرجل كظاهره وأفضل» وقد روي: «أن التوبة النصوح هو أن يتوب الرجل من ذنب وينوي أن لا يعود إليه أبداً»(١).

ولا ينحصر قبول التوبة بالوعد، بل هو مقتضى اللطف الإلهي بالعباد؛ لأن قبولها محقق لغاية بعث الرسل وإنزال الكتب وتعيين الشرائع، وهي هداية الخلق إلى الحق.

والتوبة أوسع باب وأفضلها للرجوع إليه والعمل بقوانينه والهداية إليه سبحانه، فإنه إذا كان المولى لا يقبل التوبة سيبقى عباده في تيه الضلالة والحرمان، وهذا يبعدهم من الطاعة، ويقربهم من المعصية، وهو خلاف اللطف، ومناف لغرض البعثة، بل والخلقة، والله سبحانه متنزّه عنه.

وتتفق النصوص وأهل المعرفة على وجوب المبادرة إلى التوبة؛ لأن الذنوب كالسموم لو استقرت في القلب لوّثته وأصابته بالعمى، وربّما انقلب فصار يرى الباطل حقاً، والمعروف منكراً، وحينئذ لا علاج له إلّا النار، فإن العاقبة الوخيمة تأتي من اللامبالاة والصغائر إذا واصلها العبد، فإن أعظم النار من مستصغر الشرر(٢) وإليه يشير قوله تعالى:

---

(١) معاني الأخبار: ص١٧٤، ح٣.

(٢) إعانة الطالبين: ج٣، ص٣٠٠؛ تفسير الآلوسي: ج١٨، ص١٣٩؛ وانظر الانتصار: ج٤، ص٩٢.

﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ﴾[1] فإن ارتكاب المعصية الصغيرة يكبر فتصير كبيرة، ثم تجرّه إلى الكفران والعياذ بالله، وحينئذ لا ينفع معه علاج ولا دواء، ولا يفرق حالهم سواء أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون[2].

وفي الكافي الشريف عن الباقر عليه السلام: «ما من عبد مؤمن إلّا وفي قلبه نكتة بيضاء، فإذا أذنب خرج في تلك النكتة نكتة سوداء، فإذا تاب ذهب ذلك السواد، فإن تمادى زاد ذلك السواد حتى يغطّي البياض، فإذا غطّى البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً»[3].

ولا تختص التوبة بما كان من الذنوب والمعاصي، بل من التقصير في حقوق المولى، أو من معايشة أهل الذنوب، ولذا تشمل التوبة المعصومين عليهم السلام فإنهم لا يفعلون الذنب إلّا أنهم يشعرون بتقصيرهم بشأن ربهم ومولاهم، ويعايشون أهل الذنوب بما يعدونه ذنباً أو ظلمة تمنعهم من ربهم، وفيه قال أشرف المخلوقات: «إنه ليغان[4] على قلبي حتى أستغفر في اليوم والليلة سبعين مرة»[5].

---

(١) سورة الروم: الآية ١٠.

(٢) انظر سورة يس: الآية ١٠؛ سورة البقرة: الآية ٦.

(٣) الكافي: ج٢، ص٢٧٣، ح٢٠.

(٤) في بعض النسخ (ليران من الرين).

(٥) البحار: ج١٧، ص٤٤.

وتشتد مؤونة التوبة على الأولياء والخواص؛ لأنّ الله سبحانه يعامل عباده على قدر استعداداتهم، وقد ورد في شأن نبي من أنبياء بني إسرائيل وقد سأل الباري عزّ وجل قبول توبة عبد من عبيده كان قد قضى عمراً في الجد والاجتهاد في العبادة، فجاءه الخطاب: ﴿وعزّتي لو أنّ أهل السماوات والأرض تشفّعوا له ما قبلت شفاعتهم، كيف وما زال في قلبه حلاوة الذنب الذي تاب منه؟﴾(١).

ووجهه أن الدواء قد يعالج الأمراض الظاهرية ولا يجتثها من أصولها، فإذا طرأ عارض غير ملائم ربما عاود المرض واستفحل من جديد، وكذلك الأمراض الروحية، وقد ورد في الأخبار ما يفيد أن الذنب مرض وله معالجات يجب أن يواظب عليها العبد لينقى ويطهر منها.

فقد روي عن الرضا عليه السلام عن عمار بن ياسر قال: ((بينا أنا أمشي بأرض الكوفة إذ رأيت أمير المؤمنين علياً عليه السلام جالساً وعنده جماعة من الناس، وهو يصف لكل إنسان ما يصلح له، فقلت: يا أمير المؤمنين، أيوجد عندك دواء الذنوب؟ فقال عليه السلام: ﴿نعم اجلس، فجثوت على ركبتي حتى تفرّق عنه الناس، ثم أقبل عليّ فقال: خذ دواءً أقول لك. قلت: قل يا أمير المؤمنين. قال عليه السلام: عليك بورق الفقر، وعروق الصبر، وهليلج الكتمان، وبليلج الرضا، وغاريقون الفكر، وسقمونيا الأحزان، واشربه بماء الأجفان، واغله

---

(١) تذكرة المتقين: ص٣٢.

في طنجير القلق، ودعه تحت نيران الفرق، ثم صفّه بمنخل الأرق، واشربه على الحَرَق، فذلك دواك وشفاك يا عليل»[1].

وكل فقرة من فقراته باب للمعرفة تكشف عن الترابط بين العلاج المادي والمعنوي وأثر كل واحدة من الأوصاف في معالجة الأمراض لا يسعها المجال هنا، وهي في مجملها تشير إلى طريقة معالجة الذنوب، ولذا قيل: إن الخلاص من الذنب يتوقف عل أن تذيب اللحم الذي نبت من حرام؛ لأنه فاسد بنفسه مفسد للحم السليم أيضاً.

---

(١) مستدرك الوسائل: ج١٢، الباب ١٠١ من أبواب جهاد النفس وما يناسبه، ص١٧١، ح١٣٨٠٣.

الاهليلج: ثمر منه أصفر ومنه أسود يمنع من الخوانيق ويزيل الصداع.

الغاريقون: دواء يستخدم لدفع السموم.

السقمونيا: دواء مر ومسهل للصفراء والبلغم، ويطلق عليه محمودة.

الطنجير: الإناء.

انظر مستدرك الوسائل: ج١٢، ص١٧١، الحاشية.

﴿۞مُنيباً مُقِرّاً مُذْعِناً مُعْتَرِفاً ۞﴾

التوبة عهدٌ بين العبد وربّه

قد تكون هذه الفقرات متممة للفقرات السابقة، أو أن تلك السابقة كانت تحكي عن الحالات الأولية للتوبة، وهي تتحقق بمرة واحدة. أما هذه الفقرات فهي تحكي عن الحالات والملكات الثابتة والراسخة في نفس الإنسان التي تشعره بالقصور والتقصير في مقام ربّه.

إذ الإنابة فوق التوبة رتبة، والإقرار والاعتراف فوق الاعتذار؛ لأن الاعتذار قد يتحقق بإظهاره مرة واحدة، ولكن ربما يكون عن مصلحة، وليس بالضرورة يكون عن قناعة إلّا أن الإذعان فهو اعتذار مقترن بالقناعة والإقرار بالتقصير.

وفي المجمع في معنى قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي أرجع إليه مقبلاً بالقلب(١).

والإذعان في قوله تعالى: ﴿مُذْعِنِينَ﴾ أي مقرّين منقادين غير مستكرهين، يقال: أذعن له إذعاناً أي انقاد وخضع وذلّ ولم يستعص، ومنه (ناقة مذعان) أي منقادة(٢).

وتفوّق الإنابة على التوبة ناشئ من وجوه:

منها: أن التوبة هي الرجوع إلى الحق في حالة الندم والاعتذار من المعصية. أما الإنابة فهي الرجوع إليه في إصلاح الأحوال والأفعال ظاهراً وباطناً.

---

(١) مجمع البحرين: ج٢، ص١٧٧، (نوب).

(٢) مجمع البحرين: ج٦، ص٢٥٤، (ذعن).

فالأولى مجرّد الرجوع. أما الثانية فهي رجوع بالإصلاح والعمل، وكلاهما مقترن بالاعتذار والندم. قال تعالى: ﴿**وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ**﴾[١] أي ارجعوا إليه وانقادوا له بالطاعة[٢].

ومنها: ما قاله البعض إن التوبة عهدٌ بين العبد وربّه، ولذا يحتاج إلى واسطة تظهرها وهي الاستغفار والتوبة. أما الإنابة فهي الوفاء بهذا العهد، وهي التزام قلبي واقعي.

ومنها: ما قاله البعض إن التوبة رجوع إلى الحق قولاً وفعلاً بالاستغفار وترك المعاصي ﴿**وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا**﴾[٣] أما الإنابة فهي رجوع إليه فعلاً، بمعنى أن فعل المنيب يشهد علَى صحة أقواله وصدق توبته، وبذلك يتضح أن التوبة أعم من الإنابة؛ لأن الإنابة تختص بالرجوع في الجوانح أو مساوية، والفرق أن التوبة رجوع ظاهر في الجوارح والإنابة رجوع في الجوانح.

ولبعض أهل المعرفة تفسيرات للإنابة ترجع إلى ما ذكرنا[٤].

والاعتراف والإقرار من وسائط نزول الرحمة وبواعث الغفران، ولكن الاعتراف يكون بالظاهر كإظهاره باللسان، والإقرار يقع بالظاهر والباطن فهو أعم. أما الإذعان فهو يشتمل على التصديق والاعتقاد الجازم، ولأن خطايا الذنوب تحيط ببني آدم ولا مخلص له إلّا بالإنابة والتوبة.

---

(١) سورة الزمر: الآية ٥٤.

(٢) مجمع البيان: ج٨، ص٤٠٨، تفسير الآية المزبورة.

(٣) سورة النور: الآية ٣١.

(٤) انظر شرح الأسماء الحسنى: ج١، ص٣٤-٣٥، وص١٤١.

﴿لا أَجِدُ مَفَرّاً مِمّا كانَ مِنّي وَلا
مَفْزَعاً أَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ في أَمْري غَيْرَ
قَبُولِكَ عُذْري وَإِدْخالِكَ إِيّايَ في
سَعَةٍ (مِنْ) رَحْمَتِكَ﴾

الفرار إلى الله ومراتبه

ولأن الذنوب تلازمها آثارها الوضعية وهي تلاحق الإنسان وتتحكم بمصيره في الدنيا والآخرة قال: ﴿لا أجد مفراً مما كان منّي (من الذنوب)﴾ وملجأً يصونه من الجزاء في الدنيا والآخرة من آثار المعاصي إذا لم يتب، لذا قال: ﴿ولا مفزعاً أتوجّه إليه في أمري﴾.

والمفر موضع الفرار، كالمقر موضع القرار، والمفزع الملجأ.

(غير) بمعنى (إلّا) وهو استثناء من فقدان الوسيلة يتكون من أمرين يشكلان الدورة التامة للتكامل، وهما قبول التوبة والعذر؛ إذ العذر مرحلة التخلية ومحو السيئات والقبول والدخول في الرحمة الذي عبّر عنه بالإدخال في الرحمة الذي هو مترتب على الغفران، ولعله عبّر بالإدخال لمحاكاة لطف الباري وكرمه لا عدله وإنصافه؛ لأنّ العبد لا يستحق الرحمة إلّا أن الحق كتب على نفسه الإدخال في الرحمة، وبها يبلغ العبد مرحلة التحلية ونزول الرحمة وفيوضاتها.

ومن ذلك يستفاد أن قاعدة التخلية أمر اختياري لابد وأن يقدم عليه العبد حتى يصل مقام التحلية؛ لتوقفه على إذن خاص، ولذا لا ينال مقامات الكمال إلّا خواص العباد.

ولا يخفى أن فرار العبد تارة يكون من الله سبحانه، وتارة إلى الله سبحانه، وتارة يكون منه وإليه. الأول يكون في مقام الخوف، والثاني في مقام الرجاء، والثالث يكون في مقامي الخوف والرجاء معاً، وهو الذي تضمّنه الدعاء المبارك، والعبد في الوقت الذي أقر بفقدان حيلته للخلاص

والنجاة ولا توجد له وجهة يوليها إلّا إلى ربه تبارك وتعالى قال: ﴿**لا أجد مفراً مما كان منّي ولا مفزعاً أتوجّه إليه**﴾ وفيه بيان لقاعدة أساسية في المعرفة والسير إلى الله سبحانه، وقد حصر بعض أهل المعرفة الفرار بالتوحيد العملي فقال: الفرار إلى الله سبحانه الإقبال عليه وتوجيه السير إليه وهو على مراتب:

أولها: الفرار من أثر غضبه إلى رحمته، وهي مرتبة العاصين المذنبين.

وثانيها: الفرار في المشاهدة من الأفعال الإلهية في الوجود إلى مشاهدة أسبابها، وهي الصفات، ويتوسل بأسمائه الحسنى فيفر من سخط الله إلى عفوه، ومن منعه إلى جوده.

وثالثها: الفرار من مشاهدة الصفات الثانوية إلى الأصلية، فيفر مثلاً من عقاب الله إلى عزة الله.

ورابعها: الفرار من مشاهدة الصفات إلى الذات التي هي مجمع الكمالات، فيفر منها إليها؛ لتجليات المقامات مقام الغضب والرحمة، ومقام العلو والمحبة، وإليه يشير الدعاء الشريف: ﴿**أعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ برحمتك من عذابك، وأعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بك منك**﴾[1] وهو فرار منه إليه، وفيه غاية الانقطاع والفناء[2].

---

(١) مصباح المتهجد: ص٨٣٠؛ المصباح ص٥٤١؛ وانظر جمال الأسبوع: ص٩٢، وفيه: ﴿أعوذ بعفوك من عقوبتك، وأعوذ برحمتك من نقمتك، وأعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بك منك﴾.

(٢) انظر مجمع البحرين: ج٣، ص٤٣٦، (فرر).

وهذه الفقرات شرح للحال وحكاية عن اعتقاد العبد وليس طلباً، أي هو إخبار لا إنشاء، والفرق أن الإخبار حكاية عن الحال وشرح للواقع. أما الإنشاء فهو التماس وطلب، وستأتي الفقرات اللاحقة بصيغة الإنشاء والطلب؛ لذا يعقبها بقوله عليه السلام:

﴿اللّهُمَّ (إلـهي) فَاقْبَلْ عُذْري،
وَارْحَمْ شِدَّةَ ضُرّي، وَفُكَّني مِنْ
شَدِّ وَثاقي﴾

قاعدتان للوصول إلى مقام القرب

وبعد إخبار العبد عن حاله وإقراره بقصوره وتقصيره ابتدأ بالالتماس والطلب، وأول باب يلج منه إلى مقام القدس هو قبول العذر والرفق بحاله، والأول بمنزلة إزالة المانع، والثاني بمنزلة إيجاد المقتضي؛ لأن من أخلاق الرب تبارك وتعالى أن يقبل العذر لمن اعتذر إليه؛ لأنّه غافر الذنب، وقابل التوب، ومن شأنه تبارك وتعالى الرحمة بالفقير المسكين، وهو وعد كتبه على نفسه مضمون الحصول، ومنهما دخل إلى الطلب الثالث الذي هو الفك من شد الوثاق، وهو شديده ومحكمه[1]، ويحتمل معنيين:

الأول: الفك من وثاق الأعمال السيئة التي ترهق رقبة العبد.

الثاني: الفك من وثاق البشرية وقصوراتها التي تحيط بالإنسان وتحجبه عن الانقطاع إلى ربّه تبارك وتعالى؛ لأنّ الانقطاع والاتصال بمقامه تبارك وتعالى يعصم العبد، ويضفي عليه الكمال والجلال الإلهي، والإطلاق يشمل الاثنين، ومن هنا قيل: إن الوثاق هنا الذنوب؛ لأنّها تقيّد الإنسان في الدنيا بآثارها الوضعية، وفي الآخرة بجزائها، أو المراد شوائب النفس وشهواتها وعجزها وقصورها الذي يحجب الإنسان ويقيّده من الوصول إلى كمالاته المطلوبة، ويستفاد من ذلك قاعدتان لأهل السر:

الأولى: أن باب العفو مفتاحه الإقرار والاعتراف بالذنب وطلب العذر.

---

(١) انظر مختار الصحاح: ص٧٠٨، (وثق)؛ مجمع البحرين: ج٥، ص٢٤٣-٢٤٤، (وثق).

الثانية: أن باب الانقطاع والولوج إلى مقام الرب تبارك وتعالى أمره بيد الله سبحانه، فهو الذي يقرّب ويبّعد ويفتح ويغلق، وليس على العبد إلّا السعي لنيل الرضا والعفو والاعتذار من قصوره وتقصيره، وهذا المقام لا ينال بالعبادة أو العمل الكثير فقط، بل بالتخلية من الرذائل، فإن مقام القرب تحلية، والعفو تخلية، والأولى بمنزلة العلة للثانية.

ومن هنا يعد ترك المعصية قوام العبودية، ولا يتقرّب العبد بشيء أفضل منها، وقد ورد أن موسى عليه السلام سأل الخضر ماذا فعلت حتى أمرتُ أن أتعلم منك؟ وكيف بلغت هذه المرتبة؟ قال: ((بترك المعصية))[١].

وأما العبادة والذكر والمواظبة عليهما فيأتيان في الرتبة الثانية، وواضح أن العبادة الموجبة للرحمة ليست الفرائض فقط؛ لأنّها مفروضة على العبد، بل العبادة بمعناها العام التي تتقوّم باستحضار الباري عزّ وجل وربوبيته ومولويته للعبد، فإنّ روح العبادة حضور القلب، ولا تكون العبادة عبادة إلّا بالإقبال والحضور القلبي، فمن دونهما تكون مجرد حركات وسكنات، بل قيل: إن العبادة من دون حضور القلب تورث قساوة القلب[٢].

ومن أفضل ما يوجب الحضور أن يبتدئ العبد بالاستغفار، ويتوسط العمل بالذكر اليونسي. يعني: ﴿**لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾[٣]

---

(١) تذكرة المتقين: ص٤٢.

(٢) تذكرة المتقين: ص٤٣؛ وانظر مستدرك سفينة البحار: ج٦، ص٣٤٣.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٨٧.

ويختمه بالكلمة الطيّبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وهي (لا إله إلّا الله) ويجب أن يقترن ذلك بقصد الاستشفاع بمحمد وآل محمد ليصل العمل إلى مقام الباري عزّ وجل؛ فإن من دون الولاية وذكر محمد وآل محمد عليهم السلام لا يرتفع عمل، ولا يقبل مهما كان.

وبعد ذلك يأتي مقام المراقبة الذي يحفظ العبد في رتبة العبودية التي هي سر الأسرار، ومفتاح البركات الإلهية، ويتحقق بعدم الغفلة عن حضور الحق جل شأنه، وإليه يشير قوله صلى الله عليه وآله: «خف الله كأنك تراه، فإن كنت لا تراه فإنّه يراك»[1] لأنّ عبودية العبد تقتضي أن يكون العبد في حالة باطنية يستشعر ضعفه وفقره وحاجته وغنى الخالق وفضله وألوهيته، فيكون كأنّه قائم في خدمة مولاه، ولا يرى مولاه منه إلّا قيامه وخضوعه وتواضعه، وبهذا يظهر بطلان قول الصوفية بأنّ مقام العبودية يتوقف على تصور الخالق، أو أن يعلمه ما هو، فإن ذلك ممتنع، بل يكفي أن يعلم العابد أنه جلّ شأنه حاضر وناظر، وأنه عبد ضعيف لا يملك من دونه سبحانه أي حول وقوة، ولذا ألحق بهذه الفقرة الشريفة قوله عليه السلام:

(١) فقه الإمام الرضا عليه السلام: ص٣٨٢؛ الكافي: ج٢، ص٦٧-٦٨، ح٢.

﴿يا رَبِّ ارْحَمْ ضَعْفَ بَدَني وَرِقَّةَ
جِلْدي وَدِقَّةَ عَظْمي﴾

العبوديّة والربوبيّة

الرب إما صفة مشبهة أو اسم فاعل مخفف من راب أو مصدر بمعنى اسم فاعل، وفي كل الأحوال (ربّ) بمعنى المربي الصالح، وهو الذي ينشئ الشيء حالاً فحالاً إلى حدّ التمام[1]، ومن هنا وصف نفسه ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ في سورة الحمد؛ لأنه يربّي العالم بإيصال الغذاء إليه، ويوفر له أسباب البقاء، ويربي ظاهر الإنسان وباطنه بالنعم الإلهية، كما يربي نفوس العابدين بأحكام الشريعة، وقلوب المشتاقين بآدابها، واسرار المحبين بآثارها وأنوارها؛ إذ لكل شيء تربية بحسبه تناسب شأنه، ولهذا يسأله بأنه هو الذي ربى هذا الجسد وكمّله وقوّاه وسوّاه وعدله أن يرحمه ويعطف عليه، ويخلصه من العذاب.

ومن الواضح أن ربوبية الحق للخلق ليست كربوبية المالكين لأملاكهم كما يقال (ربّ الأرض) مثلاً، ولا ربوبية الآباء للأبناء، ولا ربوبية النفس لأعضائها؛ إذ هذه الربوبيات كلها مجازية[2]، ولا رب للوجود والموجود إلّا الله سبحانه.

والرب يطلق عليه تعالى باعتبار تربيته للأشياء في السلسلة الصعودية، كما أن اسم (الباري) وأمثاله من الأسماء الحسنى يطلق عليه باعتبار السلسلة النزولية[3].

---

(١) مفردات الراغب: ص٣٣٦، (رب)؛ معجم الفروق اللغوية: ص٢٤٧، (٩٧٥).

(٢) عدة الداعي: ص٣٠٣.

(٣) شرح الأسماء الحسنى: ج١ ص٣١.

وفي هذه الفقرة الشريفة يدخل العبد إلى مراده بطرق بابين:

الأول: الربوبية

والثاني: الرحمة؛ لأجل الاستعطاف، فإن الرب هو الذي يربي العبد وينميه، ولازم ذلك الرحمة، ولما سأله أولاً من باب قبول العذر والضرّ والقصور وهي نواقص النفس وعناصر ضعفها أشار إلى نواقص البدن وضعفه وقصوره عن تحمل العقاب.

والرب أقرب الأسماء إلى الاسم الأعظم، بل هو واسطة الاتصال بين الخالق والمخلوق، فهو من حيث صفات الذات يعود إلى الحياة والعلم والقدرة والرحمة؛ لتقوّم الربوبية بها، ومن حيث صفات الفعل أشمل الأسماء وأوسعها؛ لرجوع كل المخلوقات حدوثاً وبقاءً وكمالاً ونقصاً إليه، ومن هنا اقترن بدعوات جميع الأنبياء، وقد افتتح الأنبياء والصالحون من العباد أدعيتهم به، وببركته طلبوا جميع حاجاتهم المعنوية والمادية: **﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾**(١) و: **﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾**(٢) و: **﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾**(٣) وفي دعاء إبراهيم: **﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ﴾**(٤) وذلك لما في هذا الاسم المبارك من الاستعطاف والدلالة على تربية كل شيء وتكميله وحفظه وإخراجه من

(١) سورة الكهف: الآية ١٠.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٨.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٨٣.

(٤) سورة إبراهيم: الآية ٣٧.

النقص إلى الكمال والإيصال إلى الغايات، ويشير هذا النداء إلى قاعدتين هامتين في الدعاء والمسألة:

الأولى: ضرورة طرق الباب المناسب لكل حاجة؛ لأنّ للغيب أبواباً، ولكل باب مفتاحاً يناسبه، ففي مقام الحاجة إلى الرزق يطرق العبد اسمه المبارك (يا رزّاق) وفي الشفاء يستغيث باسمه المبارك (يا شافي) وفي طلب الذرّية (يا وارث) وأما في جميع الحوائج المادية والمعنوية فيناديه بـ (يا ربّ).

الثانية: أنّ بيان الفقر والتفصيل في ذكر الحال وشرح العبد لحاجاته ونواقصه من أهم أسباب الإجابة؛ لأنّها تنم عن شعوره بالعبودية والعجز المطلق والتواضع للرب تبارك وتعالى، وهنا نكتة مهمة نلفت النظر اليها، وهي:

أنّ كمال الروح ونقصها بيد الإنسان؛ لأنّ كمالها يتوقف على الرياضة الروحية، وهي أمور اختيارية، فقبول العذر فيها موكول إلى الله سبحانه، فله أن يعفو ويتجاوز، وله أن يؤاخذه عليها. أما بدن الإنسان فضعفه وعجزه أمر تكويني لا دخل للإنسان فيه؛ فإنّ الله سبحانه خلق جسم الإنسان ضعيفاً ﴿**وَخُلِقَ الإنسان ضَعِيفًا**﴾[1] وجعل جلده رقيقاً، وعظمه دقيقاً؛ لذا يسأله أن يرحم به لما أعطاه سبحانه من ضعف وعجز عن تحمّل العذاب، وجاء بعبارة يا ربّ قرينة على هذا المعنى؛ لأنّ الله هو الذي ربّى جسم الإنسان هكذا وأنماه، وبهذه الفقرة والفقرة السابقة يضمن العبد أحد أمرين:

---

(١) سورة النساء: الآية ٢٨.

الأول: قبول عذره في نواقصه الروحية، فينال مقامات عالية في التخلية والتحلية بتسديد الله سبحانه.

والثاني: العفو ورفع العذاب عنه بدنياً، فإذا لم يضمن العبد الأول؛ لأنّ ضعفه اختياري فإنه سيضمن الثاني؛ لأنّ ضعفه غير اختياري، وذلك غاية في الدقة والرقة والأدب وحسن الخلق في المعاملة مع الربّ تبارك وتعالى.

يقال: إن يوسف عليه السلام لماّ آتاه الله الملك والسلطان في مصر كان يطل ذات يوم على المدينة من شرفة بيته، وكان معه على الشرفة عبدٌ صالح من عباد الله آتاه الله علماً ونوراً، فمرّ شاب من تحت الشرفة عابراً، فقال ذلك العبد الصالح ليوسف عليه السلام: أتعرفه؟ قال: كلّا. قال: هذا هو الطفل الذي شهد ببراءتك يوم اتهمتك امرأة العزيز: ﴿**وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ**﴾[1] وقد بلغ ذلك الطفل الرضيع الذي شهد لك في المهد مبلغ الشباب، وهو ذا، فاستدعاه يوسف عليه السلام. وأجلسه إلى جنبه وأكرمه وخلع عليه وبالغ في إكرامه، وذلك العبد الصالح ينظر إلى ما يصنع يوسف عليه السلام متعجباً.

فقال له يوسف عليه السلام: أتعجب مما صنعت بهذا الشاب؟ فقال: لا، ولكن هذا الشاب لم يكن له من الجميل عندك غير الشهادة لك بالبراءة، وقد أنطقه الله تعالى بها، ولم يكن له من فضل في ذلك، ومع ذلك فقد

---

(١) سورة يوسف: الآيتان ٢٦-٢٧.

أكرمته بهذه الصورة وبالغت في إكرامه، فكيف يمكن أن يحرق الله بالنار وجه عبد طالما خضع وسجد لمن أوجده وخلقه وربّاه بعد أن كان عدماً.

وفي سورة الحمد بعد ذكر ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يعطف قوله: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ للإشارة إلى أن لازم الربوبية تربية العباد في الدنيا بالرحمة الرحمانية، وفي الآخرة بالرحمة الرحيمية(١).

ومن هنا سأله بعد ذكر الربوبية أن يرحم ضعف بدنه؛ لأن هذا مقتضى الربوبية في الدنيا والآخرة.

والفقرات اللاحقة تؤكد هذا المعنى؛ إذ عدد نعم الربّ على الخلق منذ بدء الخلق وإيصال الغذاء والتنمية إليه، فقال عليه السلام:

---

(١) جاء في تفسير بيان السعادة (للجنابذي): عند تفسير قوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ما يلي: وربوبيته تعالى كربوبية النفس للقوى من حيث إنها تكون محصّلة للقوى، ومقوّمة لها، وحافظة لها إلى كمالاتها الأولية والثانوية، فإن الله تعالى مفيض الوجود على العالمين، وحافظ ومقوّم لها، ومبلغ لها إلى كمالاتها الأولية والثانوية؛ تفسير بيان السعادة: ج١، ص٣٠.

﴿يا مَنْ بَدَأَ خَلْقِي وَذِكْري

وَتَرْبِيَتي وَبِرّي وَتَغْذِيَتي﴾

مراحل إنشاء الخلق وتربيته

وهذه أمور مترتبة طولاً، فبدأ خلق الإنسان أولاً ثم جعله سوياً مذكوراً على صفحة الوجود، وليس معدوماً مجهولاً، ثم ربّاه وعدّله، ثم رحمه وأبرّ به وكمّله، فلم يجعله ناقصاً أو عاجزاً أو فاقداً لعوامل الإرتقاء وربى ومشاعره وأعماله، ثم غذّاه بدوام النعم.

وربما تتضمن الفقرة الشريفة الإشارة إلى المراحل التكوينية للإنشاء والخلق التي تتولاها العناية الإلهية بالإيجاد والتربية والإكمال وهي خمس:

الأولى: التقدير، وهو ما عبّر عنه ببدء الخلق في قوله ﴿بدأ خلقي﴾ فإن بداية الخلق تبدأ من التقدير، وقد ذكروا لبدء الخلق معنيين:

أحدهما: بدء الخلق في عالم الأرواح، وقد دلّت الأخبار على أن عالم الأرواح خُلِق قبل عالم الأجسام كما في الحديث: ﴿أن الله خلق الأرواح قبل الأبدان بألفي عام﴾[1].

وثانيها: ابتدأ خلقي بوجوده الحسي المادي، ولعله الظاهر من كلمة الخلق؛ إذ تطلق على الأجسام والجسمانيات ويغلب فيه التركيب، أي إيجاد الشيء من الشيء؛ كما في قوله: ﴿**خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ**﴾[2] و: ﴿**خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ**﴾[3] وقوله: ﴿**وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ**﴾[4] وهو كذلك

---

(١) الكافي: ج١، ص٤٣٨، ح١.

(٢) سورة النساء: الآية ١.

(٣) سورة النحل: الآية ٤.

(٤) سورة المائدة: الآية ١١٠.

في اللغة؛ إذ عرّف بالتقدير[١] أي بالموجود في مقابل الذرء الذي هو إظهار الشيء بإيجاده بعد العدم[٢]، ولا تنافي بين المعنيين، فالقول بشموله لهما بلا مانع، ولذا قال الراغب: الخَلْق والخُلُق في الأصل واحد، لكن خَصَّ الخلق بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخَص الخُلُق بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة[٣].

الثانية: القضاء، وهو ما عبّر عنه بالذكر في قوله ﴿وذكري﴾ والمراد تعلق إرادته تبارك وتعالى بإيجاد العبد، وقد وجهوه بتوجيهات:

منها: ذكري في العلم الإلهي الأزلي إذا أخذنا الخلق بالمعنى الأول[٤].

ومنها: أي جعله مذكوراً بإيجاده من العدم بالجعل البسيط، وصيرّه مذكوراّ بين الخلق بعد أن لم يكن، ويؤيّده ما في أول سورة الدهر: ﴿**هَلْ أَتَى عَلَى الإنسان حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا**﴾[٥] هذا إذا فسرنا الخلق بالمعنى الثاني[٦].

فالذكر فيهما مصدر بمعنى اسم المفعول، وربما يكون بمعنى اسم الفاعل، أي بدأ خلقي وجعلني ذاكراً لله سبحانه في العلم بأن عرّفني نفسه،

---

(١) معجم الفروق اللغوية: ص٢٢٤، (٨٧٤)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٢٥٢، (خلق).

(٢) معجم الفروق اللغوية: ص٢٤١، (٩٣٩).

(٣) مفردات الراغب: ص٢٩٧، (خلق).

(٤) عالم الأرواح.

(٥) سورة الإنسان: الآية ١.

(٦) عالم المادة والأجسام.

وجعل لي الاستعداد لمعرفته، وفي اللسان بأن أعطاني توفيق ذكره، وفي القلب بأن جعل قلبي حافظاً مستحضراً لمقامه تعالى، والاحتمال الثاني أقرب إلى ظاهر العبارة إلّا أن الإطلاق يشمل الجميع، وحيث لا تنافي بين المثبتات لا مانع من حمله على إطلاقه.

الثالثة: التربية، وتتفرّع عن الإيجاد، ومعناها إيصال النفع والإحسان بالمربوب وتنميته حسب الاستعداد والقابلية، ونسبة التربية إلى الحق نسبة حقيقية، بخلاف سائر التربيات التي تطلق على المربين، سواء على المربين الجسمانيين أو الروحانيين كالوالدين وكمحمد وآل محمد عليهم السلام لقوله: ﴿أنا وأنت أبوا هذه الأمة﴾[1] والعلماء الربانيين من نوابهم.

إذ هذه نسبة مجازية باعتبار السببية الطولية أو المظهرية، وجميعها وسائل وأسباب للتربية الإلهية بعد كونهم مجاري الفيض، فالمربي الحقيقي هو الله، وهذه مربيات في طريق تلك.

وبالجملة: لا ريب في أن الله تعالى هو الربّ الذي يربيّ كل ذرة ومجرة وما بينهما من مخلوقات بما يرى فيها من الاستعداد والقابلية، وتضيء أنوار فيضه على كل شيء بقدر قبول كينونيته، فلا يحرم من فيضه، ولا ينقطع لطفه عن شيء؛ لأنّه هو الرزاق وهو اللطيف.

---

(١) أمالي الصدوق: ص٧٥٤-٧٥٥، ح١٠١٥، وورد في حديث آخر عن أسيد بن صفوان صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله لما مات أمير المؤمنين عليه السلام قال: رحمك الله يا أبا الحسن كنت للمؤمنين أباً رحيماً، الكافي: ج١، ص٤٥٤-٤٥٥، ح٤.

الرابعة: البر، وهو إظهار النعم على العبد في النمو والرشد وظهور الآيات والكمالات. وسائر المواهب الإلهية على العبد في جسمه وروحه وعقله وفعله، والبر هو اسم جامع للخير كلّه يتحقق بإيصال الخير إلى العباد وصلتهم به، ولذا سميت الصلة والهدية والإحسان بالبر. يقال: بررت والدي أي أحسنت معاشرته ومعاملته، ويفترق عن الخير بأنه الخير الواصل إلى الغير مع القصد إليه، والخير أعم؛ لأنه يشمل كل ما وصل وإن كان سهواً، ولذا قالوا: نقيض البر العقوق ونقيض الخير الشر[(١)].

والبر من اسمائه تعالى وهو العطوف على عباده الذي عم بره جميع خلقه[(٢)]، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة.

الخامسة: التغذية، وتتحقق بتكفل الرزق المادي والمعنوي؛ ليدوم وجوده وينمو ويكتمل جسدياً وروحياً، فإن بعد الوجود وإكمال الخلق تأتي الإفاضات الربانية الخاصة على العبد، فيهديه إلى الحق والصواب، ويدله على التوحيد والعبودية والاستماع إلى النبي واتباع الإمامعليهما السلام ومعرفة ما ينبغي أن يفعل وما لا ينبغي، وبهذه الإفاضات يتغذى روحياً ويكتمل، كما يلهمه حب العمل والتعلم من التجارب وتوظيف طاقاته للأحسن، وغير ذلك من موجبات الرزق المادي فيكتمل بدنياً، وبهذه المراحل الخمسة يكتمل الإنسان، ويكون متوافقاً مع سنن الحياة ونواميس الوجود، وتتم الحجة الإلهية عليه فيكون مأموراً بالطاعات ومحاسباً ومعاقباً.

---

(١) معجم الفروق اللغوية: ص٩٥، (٣٨٣)؛ مفردات الراغب: ص١١٤، (برّ).

(٢) مجمع البحرين: ج٣، ص٢١٩، (برر).

وهنا حقيقة أخرى وهي أن التربيات الإلهية للعبد على نحوين: تكوينية وتشريعية.

التربية التكوينية لا تتخلف عن مراده أبداً، ولا تختلف: ﴿**قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾[1] ولهذا يصل المخلوق إلى كمالاته وترقياته التكوينية حسب تربيته بلا تخلف ولا انحراف.

وأما التربية التشريعية فيمكن أن تتخلف عن المراد، كما يمكن أن تتخلف عن الوصول إلى كمالاتها ومراتبها المعنوية؛ لفقدان الشرائط، ففي التربية التكوينية لا يصح التخلف ولا الانحراف؛ لأنها تتم بأسبابها وعللها الطبيعية، والمعلول لا يتخلف عن علته، كما لا ينحرف عنها؛ للزوم السنخية في العلل الطبيعية **أولاً**.

وثانياً: لأن الإنسان في التربية التكوينية مجبور وليس مختاراً، فلا يتخلف عن المشيئة الإلهية، ولا ينحرف عنها.

أما التربية التشريعية فلأنها تتم بالأوامر والنواهي الإلهية والإنسان مختار في التشريعيات لذا أمكن أن تتخلف أو تنحرف. ومن أهم وسائل التربية الإلهية التشريعية هو إتباع المرّبي الإلهي وهو النبي ثم الإمام ثم العالم الرباني، والتخلف عنهم تخلف عن التربية الإلهية، والانحراف عنهم كذلك.

ولعل من هنا فسّر الإمام أبو جعفر عليه السلام قوله تعالى: ﴿**فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ**﴾[2] بالعلم، وقال معنى الآية: ﴿فلينظر الإنسان إلى علمه عمّن

(١) سورة طه: الآية ٥٠.

(٢) سورة عبس: الآية ٢٤.

يأخذه﴾[١] وتشير الفقرة الشريفة إلى قاعدتين هامتين في البناء الروحي والتربية الإنسانية:

الأولى: وجوب الفحص والتحرّي عن الغذاء الطيّب الطاهر واجتناب الشبهات.

الثانية: وجوب الاقتداء والتأسّي بالمعلم والمرشد؛ إذ لا يمكن للإنسان القاصر والمقصّر أن يبلغ شيئاً من المعنويات أو المنازل المادية من دون معلم ومربّ.

فكما أن الإنسان في غذائه الجسدي عليه أن يبحث عن قوة الغذاء وسلامته ونفعه كذلك في غذائه الروحي كالعلم والمعرفة وتهذيب النفس والأخلاق... وأن لا يخلطها بالمضار والآفات، وأن لا يأخذها من غير طريقها الصحيح حتى يصل إلى كمالاته ومقاماته الروحية الرفيعة؛ إذ الأسباب الروحية كالأسباب الطبيعية ملازمة لمسبباتها وآثارها فلا تتخلف عنها ولا تختلف.

ومن هنا أوجب علينا الائتمام بأئمة الحق والتبرّي من أئمة الجور، كما أوجب علينا التقليد في عصر الغيبة، وجعل الفقهاء حججاً على الناس، وشرط لهم شرائط؛ لكيلا يتبع العباد كل أحد، و يأخذوا دينهم من كل أحد.

---

(١) انظر الكافي: ج١، ص٥٠، ح٨؛ الوسائل: ج٢٧، الباب ٧ من أبواب صفات القاضي، ص٦٥، ح٣٣٢١٢.

إذ قال الإمام العسكري عليه السلام: «فأمّا من كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً على هواه، مطيعاً لأمر مولاه، فللعوام أن يقلدوه، وذلك لا يكون إلّا بعض فقهاء الشيعة لا كلّهم»[١].

وفضلاً عن العلم اشترط العدالة؛ لأنها أمان من الانحراف والضلال.

(١) تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص٣٣٠، ح١٤٣؛ الوسائل: ج٢٧، الباب ١٠ من أبواب صفات القاضي، ص١٣١، ح٣٣٤٠١.

﴿هَبْني لاِبْتِداءِ كَرَمِكَ وَسالِفِ بِرِّكَ بي﴾ وفي بعض النسخ: ﴿ومنّك عليّ﴾

الربوبية والعبودية نزولاً وصعوداً

﴿هبني﴾ طلب والتماس ويحتمل معنيين:

الأول: الاحتساب. يقال: (هبني فعلت كذا) أي احسبني واعددني فعلت ذلك، وقولهم: (هب ذلك) أي افرض ذلك واحتسبه.

والثاني: الهدية بلا عوض. يقال: وهبه الشيء أي أعطاه إياه بلا عوض[1] والمعنى على الأول احسبني كما كنت قبل بدئي وخلقي لا أستحق شيئاً من النعم إلّا أنّك وهبتني تكرّماً وفضلاً، وعلى الثاني يطلب نوال الله سبحانه بلا أن يرى شيئاً من عمل العبد وسوء فعله ليعطيه بلا تعويض ومقابلة بعمل؛ لأنّ عادته الإحسان والبر والهبة، وفيه ورد الدعاء في مخاطبة الأئمة عليهم السلام: ﴿لما استوهبتم ذنوبي﴾[2] أي سألتم الله تعالى أن يهبها لي[3]، أو أنتم هبوها لي؛ لأنّكم سلاطين الحساب والعقاب.

وقد استعطف في هذه الفقرة الشريفة سنّة الله سبحانه الجارية في الابتداء بالنعم قبل استحقاقها، وهذا أدب سلكه الأئمة عليهم السلام في العديد من أدعيتهم ومناجاتهم، ففي دعاء أبي حمزة الثمالي الذي كان يدعو به الإمام زين العابدين عليه السلام في وقت السحر من شهر رمضان ورد: ﴿إلهي لا تؤدّبني بعقوبتك، ولا تمكر بي في حيلتك، من أين لي الخيرُ يا ربّ ولا

---

(١) المعجم الوسيط: ج٢، ص١٠٥٩، (وهب).

(٢) عيون أخبار الإمام الرضا عليه السلام: ج٢، ص٣٠٩، ح١.

(٣) مجمع البحرين: ج٢، ص١٨٢، (وهب).

يوجد إلّا من عندك؟ ومن أين لي النجاة ولا تستطاع إلّا بك؟ لا الذي أحسن استغنى عن عونك ورحمتك، ولا الذي أساء واجترأ عليك ولم يرضك خرج عن قدرتك يا ربّ يا ربّ يا ربّ (إلى أن يقول) أنا الصغير الذي ربّيته، وأنا الجاهل الذي علّمته، وأنا الضالّ الذي هديته، وأنا الوضيع الذي رفعته، وأنا الخائف الذي آمنته، والجائع الذي أشبعته، والعطشان الذي أرويته، والعاري الذي كسوته، والفقير الذي أغنيته، والضعيف الذي قوّيته، والذليل الذي أعززته، والسقيم الذي شفيته، والسائل الذي أعطيته﴾[1].

وفي دعاء يوم عرفة ورد عن الإمام الحسين عليه السلام: ﴿اللهّم إنّي أرغب اليك، وأشهد بالربوبيّة لك، مقراً بأنّك ربّي، وأنّ اليك مردّي، ابتدأتني بنعمتك قبل أن أكون شيئاً مذكوراً، وخلقتني من التراب، ثم أسكنتني الأصلاب أمناً لريب المنون واختلاف الدهور﴾[2].

وهذا سؤال دقيق مفعم بالذلة والانكسار يخاطب به العبد ربّه، ويقول كما أنك بدأت بالإحسان متكرماً، وأوجدتني بعد أن كنت معدوماً، وخلّصتني من اللاشيء تمنناً ورحمة وتحنناً عليّ فاعف عنّي، وهبني خلاصي من العذاب والمؤاخذة تحنناً ورحمة.

---

(١) مصباح المتهجد: ص٥٨٢؛ البلد الأمين: ص٢٠٥؛ إقبال الأعمال: ج١، ص١٥٧؛ مفاتيح الجنان: ص٣٠٠، دعاء أبي حمزة الثمالي.

(٢) إقبال الأعمال: ج٢، ص٧٤.

إذ من يبتدئ بالإحسان والبر والمن يختم بالإحسان والبر والمن أيضاً؛ لأنّه من إتمام الفضل وإكمال النعمة، والله سبحانه لا يهب ناقصاً، أو يعطي قليلاً، وهو الجواد الكريم، فلذا سأله بهذه الفقرات تمجيداً بمنّه وكرمه الابتدائي؛ ليضمن ذلك في العاقبة وخاتمة الأمر أيضاً؛ إذ كما ابتدأ خلق الإنسان ومنحه الحياة متكرماً فليختم مسيرته بالكرم والمنّ أيضاً، وهو من شأن الغني الكريم، فبذلك يضمن استجابة الدعاء والخلاص من أمرين:

أحدهما: عذاب العمل، ولأنّ الباري عزّ وجل علّم العبد باللطف والكرم منذ بدأ خلقه حاكى العبد عادته سبحانه، وقال لأجل ألطافك القديمة ومواهبك العظيمة العميمة السالفة التي أعطيتها لي في ابتداء وجودي إلى الآن اغفر ذنوبي، وأعطني سؤلي، فإنّك عودتني بمواهبك السنية ومراحمك البهية العلية[1].

ثانيهما: عذاب القصور والخلاص من نواقص النفس، فإنّ العبد الكامل يسعى للتشبه بخالقه في جماله وجلاله، وقصوره البشري يمنعه منه، ولا يمكنه رفعه بالعمل وحده، بل لابد من توفيق وإعانة من ربّه حتى ينهض بمراسم العبودية، ويبلغ مقام الربوبية، وذلك لا يناله العبد إلّا بالدعاء والتوسل، والقاعدة التي تؤسسها هذه الفقرة الشريفة هي أن دورة العبودية والربوبية لا تكتملان إلّا بأن يرجع العبد إلى ما كان عليه

---

(١) انظر شرح دعاء كميل (للسيد عبد الأعلى السبزواري): ص١٤٠؛ أسرار العارفين، ص٢٤٥، هامش (٣).

أول خلقه ووجوده بريئاً من الذنب، فقيراً إلى الربّ، محتاجاً في كل شؤونه، كما أن ربوبية الربّ تبارك وتعالى تكتمل بتولي العبد في مبدئه وختامه بالرعاية والتربية والإكمال.

ثم أن اللام في (الابتداء) قد تكون زائدة، فيكون المعنى كما أنك في بادئ ذكري وخلقي ابتدأت بالإنعام ووهبتني الوجود والحياة فالآن بعد بعدي عنك بالمعاصي وخوف هلاكي بالعقاب هبني ما وهبتني أولاً من الحياة الجديدة الأخرى واعفو عني.

أو هي لام التعليل.. فيكون المعنى لأنك ابتدأت بالكرم والبر والمن تفضلاً فالآن هبني أيضاً لذلك، والاحتمال الأول يوافق المعنى الأول لقوله: (هبني)، والاحتمال الثاني يوافق المعنى الثاني وأصالة عدم الزيادة وكونها منافية لمقام المعصوم عليه السلام تحمل على الثاني.

﴿يا إلـهي وَسَيِّدي وَرَبّي، أتُراكَ
مُعَذِّبي بِنارِكَ بَعْدَ تَوْحيدِكَ﴾

مراتب التوحيد والموحدين

أتراك: الظاهر أن الهمزة للاستفهام الاستنكاري، والإنكار الإبطالي التي تدل على أن ما بعدها غير واقع، والمعنى كلّا لا تعذّبني وأنا موحّد مؤمن.

وقد وردت بهذه الصيغة من باب تجاهل العارف الذي هو من المحسنّات البديعية، وقد تعارف التعبير به للإشارة إلى بيان الفضل والمقام، أو لمزيد الخضوع ونحوهما من الدواعي العقلية والبلاغية، نظير قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾(١) مع أنه سبحانه عالم بحقيقتها، ومثلها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾(٢) مع أنه صلى الله عليه وآله لا يعقل أن يكون جاهلاً بحقانّية دعوته وهدايته، وكثر استعماله في النثر والشعر العربي نظير قولهم: (أبدر ظاهر أم جبينه وبحر زاخر أم يمينه) وقول شاعر الطف:

أروحك أم روح النبوة تصعد ... من الأرض للفردوس والحور سجّد(٣)

و: ﴿أتراك﴾ أي أترى أنت هكذا من باب الإخبار عن العدم، وفي القاموس: أرأيتك وأريتكما وأرأيتكم، وهي كلمة تقولها العرب بمعنى أخبرني وأخبراني وأخبروني(٤)، والمقصود هنا أخبرني هل ستعذبني بعد أن وحدتك وقد وعدت الموحدين بأن لا تعذّبهم.

---

(١) سورة طه: الآية ١٧.

(٢) سورة سبأ: الآية ٢٤.

(٣) الأخلاق الحسينية: ص٣٨؛ الانتصار: ج٨، ص٣٠٢.

(٤) القاموس المحيط: ج٤، ص٣٣١.

وتسلسل المنادى بأوصاف الذات والفعل: ﴿إلهي وسيدي وربّي﴾ طولي؛ إذ الإله دليل على الذات الإلهية بصفاتها الإلهية الخاصة.. والسيد يشير إلى مالكيته للعبد وسلطته عليه وتولّي أمره وشؤونه كما في اللغة(١)، والمالكية والسيادة من صفات الذات، والربّ إشارة إلى تربيته للعبد وإنشائه وخلقه، وهي من صفات الفعل.

ولعلّ الوجه في ذكرها على التوالي يعود إلى حالات العبد؛ لأنّ الإنسان في معرفته وعبادته يختلف؛ إذ قد يعترف بألوهية ربّه ولكن يكون مملوك غيره، كمن أسرته الدنيا وملكت أمره، أو يعترف بالاثنين ولكن يغلبه الباطل وهكذا.

ولمّا وعد الله سبحانه أن يغفر للموحدين ولا يعاملهم معاملة المشركين والكافرين فقد دخل في دعائه من هذا الباب ليضمن رفع العذاب، وقد تضافر في الأدلة أنّه سبحانه لا يعذّب الموحدين. قال تعالى:

---

(١) السيد: المالك، ويطلق على الربّ والفاضل والكريم والحليم والمتحمل أذى قومه والزوج والمقدم.

وفي حديث النبي صلى الله عليه وآله: ﴿أنا سيّد ولد آدم ولا فخر﴾ قيل قاله إخباراً عما أكرمه الله تعالى به من الفضل والسؤدد، وتحدثاً بنعمة الله تعالى عنده، وإعلاماً لأمته؛ ليكون إيمانهم به على حسبه وموجبه، ولهذا أتبعه بقوله: ﴿ولا فخر﴾ أي أن هذه الفضيلة نلتها كرامة من الله ولم أنلها من قبل نفسي، ولا بلغتها بقوتي، فليس لي أن أفتخر بها.

وفي حديث الحسنين: ﴿أنتما سيّدا شباب أهل الجنة﴾ أي أفضل من مات شاباً في سبيل الله من أصحاب الجنة، ولم يرد به سن الشباب؛ لأنهما عليهما السلام ماتا وقد كهلا، أو أنهما سيدا شباب؛ أهل الجنة فإن أهلها كلهم شباب؛ انظر مجمع البحرين: ج٣، ص٧١، (سيد).

﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[١] وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[٢] والمراد بالمتقين هم أهل الولاية؛ لعدم صدق التقوى على من أنكر ولاية أولياء الله تعالى، وقد فسّر البعض التقوى بالتوحيد ومخالفتها بالشرك[٣]، وبمقتضى هذا التفسير يصبح أهل التوحيد أهل النجاة، وضعفه ظاهر؛ لعدم تمامية التوحيد، بل لعدم صدقه في حق من رد على الله ورسوله إمامة الأئمة عليهم السلام، وتضافر في الأخبار الشريفة عدم تعذيب الموحدين:

منها: ما عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «والذي بعثني بالحق بشيراً لا يعذّب الله بالنار موحّداً أبداً، وأنّ أهل التوحيد يشفعون فيشفعون، ثم قال صلى الله عليه وآله: إنّه إذا كان يوم القيامة أمر الله تبارك وتعالى بقوم ساءت أعمالهم في دار الدنيا إلى النار، فيقولون يا ربّ كيف تدخلنا النار وقد كنّا نوحّدك في دار الدنيا؟ وكيف تحرق قلوبنا وقد عقدت على أن لا إله إلّا أنت؟ أم تحرق وجوهنا وقد عفّرناها لك في التراب؟ أم تحرق أيدينا وقد رفعناها بالدعاء لك؟

فيقول الله جلّ جلاله: عبادي ساءت أعمالكم في دار الدنيا فجزاؤكم نار جهنم، فيقولون: يا ربّ عفوك أعظم أم خطيئتنا؟ فيقول تبارك وتعالى بل عفوي، فيقولون: رحمتك أوسع أم ذنوبنا؟ فيقول عزّ وجل: بل رحمتي، فيقولون: يا ربنا فليسعنا عفوك ورحمتك التي وسعت كل شيء، فيقول الله

---

(١) سورة النساء: الآية ٤٨.

(٢) سورة مريم: الآية ٧٢.

(٣) مجمع البيان: ج٦، ص٤٤٣.

جلّ جلاله: ملائكتي وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحب إليّ من المقرّين بتوحيدي وأن لا إله غيري، وحقّ عليّ أن لا أصلي بالنار أهل توحيدي. أدخلوا عبادي الجنة»[١].

ومنها: ما رواه الصدوق قدس سره عن أبي عبد الله عليه السلام: «إن الله تبارك وتعالى أقسم بعزّته وجلاله أن لا يعذّب أهل توحيده بالنار أبداً»[٢]، وفي رواية أخرى: «إنّ الله تبارك وتعالى حرّم أجساد الموحدين على النار»[٣].

وهل التحريم ناشئ من وجود المانع أي أنّ بدن الموحد في نفسه لا يحترق بالنار فيكون من الآثار التكوينية للتوحيد أو من الفضل واللطف الإلهي؟ والرواية الأولى ظاهرة في اللطف، والثانية ظاهرة في المانع، وربما يرجع إلى عدم المقتضي؛ لأنّ التوحيد نور باطني في الإنسان، وهو ناشئ من لطف الله ورحمته كما يقتضيه قانون تجسّم الأعمال والصفات، والنار ظلمة ناشئة من غضبه وانتقامه، والنور لا يجتمع مع الظلمة، والرحمة لا تجتمع مع الغضب.

ومن هنا وجّه بعض أهل المعرفة حرمة أجساد الموحدين على النار بقوله: إنّ النار مخلوقة من غضب الله جلّ جلاله، وهو سبحانه إنما ينظر أولاً إلى البواطن، فمنشأ النار إنّما هو من باطن الإنسان، فإذا كان الباطن

---

(١) أمالي الصدوق: ص٣٧٢، ح٤٦٩؛ التوحيد: ص٢٩، ح٣١؛ كفاية الموحدين: ج١، ص٣٨.

(٢) التوحيد: ص٢٠، ح٦.

(٣) التوحيد: ص٢٠، ح٧.

معتقداً لتوحيد الله ومؤمناً بكتبه ورسله والدار الآخرة فليس للنار التي هي مخلوقة من غضب الله منشأ ومبدأ في باطن ذلك الموحّد فلا يعذب بالنار[١].

ولا مانع من الجمع؛ لأنّ التوحيد في نفسه فضل، والفضل في السبب فضل في المسبّب كذلك، وهو ما تؤكّده رواية جابر الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام قال: «جاء جبرئيل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا محمد، طوبى لمن قال من أمتك لا إله إلّا الله وحده وحده وحده»[٢] وتثليث (وحده) إمّا لمزيد الانقطاع أو لاعتبار توحيد الأفعال والصفات والذات، وهي المسيرة التي يقطعها العباد الموحدون عادة؛ إذ يعرفون الله سبحانه ويوحدونه بملاحظة أفعاله وآثارها، ثم منها يصلون إلى معرفة كمال صفاته ووحدتها، ومنها يتوصلون إلى كمال الذات ووحدتها.

وواضح أن الأدلة النافية للعذاب عن الموحدين ناظرة إلى الموحدين الحقيقيين؛ لأنّ الألفاظ تحمل على المعاني الحقيقية لا المتوهمة أو المتخيلة أو المجازية، والموحّد الحقيقي هو الذي آمن بالله وبرسوله وبالأئمة عليهم السلام من بعده. أما غيرهم فبعضهم مشبّهة، وبعضهم مجسّمة، وبعضهم مجبّرة، وبعضهم مفوّضة، وهؤلاء توهّموا التوحيد ولم يبلغوا حقيقته؛ لأنّ المشبّهة والمجسّمة أعطوا للخالق صفات المخلوق، والمجبرة نفوا عنه حكمته وقدرته، والمفوضة عطلوه وسلبوا عنه سلطته[٣].

---

(١) انظر أسرار العارفين: ص٢٥٣.

(٢) التوحيد: ص٢١، ح١٠؛ ثواب الأعمال: ص٥؛ الكافي: ج٢، ص٥١٧، ح١.

(٣) انظر الملل والنحل: ج١، ص٨٥، ١٠٨؛ أسس التقديس: ص١٠٧.

﴿بَعْدَ تَوْحِيدِكَ﴾

درجات التوحيد

قد يكون إشارة إلى مقام التوحيد وهو نهاية منازل الطالبين، وحقيقته عند أهل المعرفة إسقاط الإضافات ونفي الصفات الحادثات عنه، بل كل ما أمكن ثبوته له وجب ثبوته كما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «أوّل الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه»(١).

ومراده الصفات الحادثة وليس تجريده من كل صفة حتى صفات الذات؛ لأنّ ذلك من شؤونه وذاتياته التي لا تنفك عن الذات وقد ذكر أهل المعرفة للتوحيد أربع درجات هي:

الأولى: التوحيد الإيماني، وهو عبارة عن الاعتقاد بمبدئيّة الحق تعالى ووحدانيّته وأزليّته وسرمديّته مع سائر الصفات الجماليّة والجلاليّة والتي منها الاعتقاد بالنبوة وإنزال الكتب السماويّة، ثمّ الأئمة والمعاد، وفائدة هذا التوحيد الخلاص من الشرك الجلي والدخول في سلك أهل الإسلام، فيكون له ما للمسلمين، وعليه ما عليهم.

فعن المفضّل قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «إنّ الله تبارك وتعالى ضمن للمؤمن ضماناً» قال: قلت: وما هو؟ قال: «ضمن له إن هو أقرّ له بالربوبيّة، ولمحمد صلى الله عليه وآله بالنبوة، ولعلي عليه السلام بالإمامة، وأدّى ما أفترض عليه

---

(١) نهج البلاغة: ص٣٩، الخطبة ١.

أن يسكنه في جواره﴾ قال: قلت: فهذه والله الكرامة التي لا تشبهها كرامة الآدميين. قال: ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: ﴿اعملوا قليلاً تتنعّموا كثيراً﴾[(١)].

وحيث إن الدين عند الله هو الإسلام، يجب على الناس كافة أن يكونوا موحّدين معتقدين بخالق السموات والأرض، وفي قبال ذلك كفر وهو حرام وخروج عن السنن.

الثانية: التوحيد العلمي، وهو أن يتيقّن الموحّد بأنّ الموجود الحقيقي والمؤثّر المطلق في الكون ليس إلّا الله، وكلّ شيء سواه ليس بشيء، وكلّ فعل وصفة وذات ناشئة منه، مخلوقة إليه (لا حول ولا قوة إلّا بالله) وهذا التوحيد مستفاد من علم اليقين، وهو أوّل مرتبة توحيد الخواص عند أهل المعرفة، ومنشؤه نور المراقبة[(٢)].

---

(١) التوحيد: ص١٩، ح٤؛ البحار: ج٣، ص٣-٤، ح٦.

(٢) قال الحاج السبزواري في شرح الأسماء الحسنى: فإنّ توحيد الأفعال بأن لا يرى الموحد فاعلاً ومؤثراً إلّا الله في أوائل السلوك، ولابد وأن ينتهي (التوحيد الإيجادي) إلى (التوحيد الوجودي) و(توحيد الفعل) إلى (توحيد الذات) فلا يرى في الوجود إلّا هو: ﴿أَلَا إلى الله تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ سورة الشورى: الآية ٥٣، ففي الأول (لا إله إلّا الله) وفي الثاني (لا هو إلّا هو)؛ شرح الأسماء الحسنى: ج١، ص١١١.

وجاء في دعاء الجوشن الكبير المروي عن النبي صلى الله عليه وآله مضامين عديدة في ذلك: ﴿يا من لا مفرّ إلّا إليه، يا من لا مفزع إلّا إليه، يا من لا مقصد إلّا إليه، يا من لا منجى منه إلّا إليه، يا من لا يرغب إلّا إليه، يا من لا حول ولا قوة إلّا به، يا من لا يستعان إلّا به، يا من لا يتوكّل إلّا عليه، يا من لا يرجى إلّا هو، يا من لا يعبد إلّا إياه﴾؛ البلد الأمين: ص٤٠٥.

الثالثة: التوحيد الشهودي، وهو يلازم الموحّد بحيث لا يرى معه أيَّ شيء سواه في الذات والصفات حتى يرى التوحيد صفة الواحد لا صفة الموحّد ومنشؤه نور المشاهدة.

وفي هذا التوحيد والمشاهدة تنتفي أكثر الصفات البشرية وتضمحل كاضمحلال الظلمة بنور الشمس.

وفي هذا أيضاً ترتفع أكثر آثار الشرك الخفي، ومن صفاته أنه يومض في قلب الموحد ومضات سريعة ويذهب، ولعل هذا هو المسمّى عندهم عين اليقين، ويتم برؤية القلب والبصيرة[١].

الرابعة: التوحيد الحق، وهذا ليس من شأن العبد، بل من شأن الربّ نفسه سبحانه، وهو وحدته على ما هي عليه في نفس الأمر والواقع، وهذا ما يسمّى عندهم بتوحيد الحق، ومقام حق المعرفة؛ لأنّه من مختصات الحق تعالى، ويعني أن لا شيء سواه، ولا أحد عرفه حق معرفته، ولن يتمكن على ذلك أحد حتى أولياؤه المقرّبون، ولعل هذا معنى قوله صلى الله عليه وآله: «ما عرفناك حق معرفتك»[٢] وقولهم عليهم السلام: «إن الله احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار»[٣] و: «يا من لا يعلم ما هو إلّا هو»[٤].

---

(١) انظر تفسير الميزان: ج٢٠، ص٣٥١-٣٥٢.

(٢) عوالي اللآلئ: ج٤، ص١٣٢، ح٢٢٧؛ البحار: ج٦٦، ص٢٩٢.

(٣) البحار: ج٦٦، ص٢٩٢، ح٢٣؛ الرواشح السماوية: ص٤١.

(٤) المصباح: ص٢٦٤؛ البحار: ج٨٣، ص٣٣٤.

وقول الباقرعَلَيْهِ السَّلَامُ: «كلّما ميّزتموه بأوهامكم في أدق معانيه مصنوع مثلكم، مردود إليكم»(١) وقول الإمام عليعَلَيْهِ السَّلَامُ: «لا يبلغه بُعد الهِمَم، ولا يناله غوص الفطن»(٢) وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾(٣).

وحاصله: (هو كونه تعالى بذاته في الأزل موصوفاً بالوحدانية لم يكن معه شيء، ويبقى موصوفاً بها في الأبد، ويفنى كل شيء، وهو توحيد ثابت لذاته أزلاً وأبداً اعتبر الخلق أو لم يعتبر)(٤) وسواء كان هناك مخلوق يدرك ذلك أم لا، وهذا ليس من مقامات العارفين، بل من مختصاته سبحانه.

ومن المعلوم أن الموحّد يحصل على عنايات من ربّه لا يحصل عليها المشرك أو الكافر في الرحمة والعطف والمحبة؛ لذا يسأله الخلاص من النار بعد أن وفر شرط الإقبال والاستجابة وهو التوحيد. نعم كلّما ارتفعت درجة الموحدين وارتقت رتبة توحيدهم تكون مقبوليتهم عند بارئهم أكثر، وخلاصهم من العذاب أضمن، ودعاؤهم أسرع إجابة.

---

(١) شرح أصول الكافي: ج١، ص٢٥؛ ج٣، ص٢٢٥؛ البحار: ج٦٦، ص٢٩٣، وفيه: (مخلوق مصنوع مثلكم، مردود إليكم).

(٢) التوحيد: ص٤١، ح٣؛ الكافي: ج١، ص١٣٥، ح١.

(٣) سورة الأنعام: الآية ٩١؛ سورة الحج: الآية ٧٤.

(٤) أنظر البحار: ج٣، ص١٣، ح ٣٢.

التوحيد الفطري

بقيت هنا حقيقة لا ينبغي أن يغفل عنها وهي:

أن الأصول الاعتقادية الخمسة -على المشهور- التي يقوم عليها الدين أي التوحيد والعدل والنبوة والإمامة والمعاد مآلها إلى توحيد الصفات والأفعال، وهي الأخرى ترجع إلى توحيد الذات، وقد فطر الإنسان على هذه الحقيقة، ويشهد لها وجدانه، ويركن إليها في مواطن الضعف وقلّة الحيلة، كما أشار القرآن في مثل قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾[1] وقال: ﴿**وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾[2].

وهذا ما يقرّه العقل؛ لأن الله سبحانه مشهود لخلقه غير غائب عنهم، بل قريب منهم، وأقرب إليهم من حبل الوريد، غير أن ثقلهم البدني والروحي وانشدادهم إلى الدنيا وغرورها والنفس وشهواتها والتفاتهم إلى ذواتهم وشؤونهم أوقعهم في الغفلة الدائمة، وحجبهم عن التنبه إلى هذه الحقيقة الباهرة.

وواضح أن احتجاب المخلوق عن الخالق لا يضر بحقيقة الخالق وكماله، بل بكمال المخلوق، ومن هنا أمرهم بإقامة وجوههم إلى الدين والتنبيه إلى ما أودعه الباري في فطرهم؛ ليبلغوا الحق، فقال سبحانه: ﴿**فَأَقِمْ**

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٦٥.

(٢) سورة لقمان: الآية ٣٢.

وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

والعلم الذي نفته الآية عن أكثر الناس هو العلم التحصيلي أو الالتفاتي لا واقع العلم الفطري؛ لأنّ الله سبحانه عرّف عباده عليه، وهداهم إلى وحدانيّته وجماله وجلاله. أشار إلى ذلك الإمام الباقر عليه السلام في بيان معنى الآية الشريفة فقال: «فعرّفهم وأراهم نفسه، ولولا ذلك لم يعرف أحد ربّه»[2] وذلك يؤكد أنّ الحق واحد لا يتعدد، وأنّ الإنسان بفطرته يعرف ذلك إلّا أن الانحراف ينشأ من الموانع والتعليم المنحرف كما بيّنه رسول الله صلى الله عليه وآله بقوله: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجّسانه»[3] ولم يذكر الإسلام؛ لأنّ الفطرة هي الإسلام، والإسلام هو الفطرة، فلو خلي البشر وطبعهم دون تأثير بالعوامل الخارجية لاهتدى إلى حقيقة الإسلام في أصوله الخمسة المتلخصة بالتوحيد.

وقد تضافرت الأخبار الشريفة بتفسير الفطرة بالتوحيد، فعن زرارة قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام أصلحك الله قول الله عزّ وجل في كتابه: **﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾**[4] قال: «فطرهم على التوحيد عند الميثاق على

---

(١) سورة الروم: الآية ٣٠.

(٢) الكافي: ج٢، ص١٣، ح٣.

(٣) الخلاف: ج٣، ص٥٩١؛ ج٥، ص٥٣٣؛ التوحيد: ص٣٣١؛ أمالي المرتضى: ج٤، ص٢.

(٤) سورة الروم: الآية ٣٠.

معرفته أنّه ربهم﴾ قلت: وخاطبوه؟ قال: فطأطأ رأسه ثم قال: ﴿لولا ذلك لم يعلموا من ربّهم، ولا من رازقهم﴾[(١)].

وعن أبي عبد الله عليه السلام في بيان معنى الآية قال: ﴿فثبتت المعرفة ونسوا الموقف وسيذكرونه، ولولا ذلك لم يدر أحد من خالقه ورازقه﴾[(٢)].

وقوله: ﴿نسوا الموقف﴾ أي موقف الميثاق، وسبب النسيان هو الانشغال بذواتهم وشهواتهم وحجبهم البدنية.

والمستفاد من النصوص الشريفة أن معرفة الفطرة لا تنحصر بأصل وجود الخالق، بل تشمل ربوبّيته. يشهد له أنه سبحانه لّما أشهدهم على أنفسهم في الميثاق سألهم عن ربوبّيته، وأقروا بها؛ لأجل إتمام الحجة عليهم، فقال سبحانه: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ**﴾[(٣)].

وفي آية أخرى أشار إلى أن الشهادة والميثاق شملت العبودية لله سبحانه وتجنّب عبادة الشيطان؛ إذ قال سبحانه: ﴿**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ**﴾[(٤)].

ونلاحظ أن معرفة الله سبحانه في ذاته وصفاته وأفعاله التي تتلخص في وحدانيّة الربوبّية والعبوديّة مودعة في جِبِلَّةِ البشر منذ أول الخليقة، ومن

---

(١) التوحيد: ص٣٣٠؛ البحار: ج٣، ص٢٧٨.

(٢) تفسير القمي: ج١، ص٢٤٨.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٧٢.

(٤) سورة يس: الآيتان ٦٠-٦١.

مقتضيات الربوبية العدل والمعاد، ومن مقتضيات العبودية النبوة والإمامة، ولذا لا يحتاج سليم الفطرة إلى برهان أو دليل أكثر من فطرته للوصول إلى الحق والإقرار بالنبي صلى الله عليه وآله والإطاعة للإمام عليه السلام.

ولو رجع اليهود والنصارى والمشركون إلى فطرتهم الأولى لم يبق أحد على وجه الأرض غير مسلم؛ لأن الإسلام دين الفطرة، والفطرة السليمة تهدي إلى العقيدة الحقة، إلّا أنّهم غفلوا عن ذلك بسبب انشدادهم إلى ذواتهم ومصالحهم، أو منعوا أنفسهم من المعرفة بسبب تعصبهم أو تشوّش أفكارهم فضلوا السبيل، ومن ذلك نستنتج أن الشهوة والتعصب هما سرّ الانحراف والضلال في العقيدة والعمل، وقد لخصتهما الآية بعنوان الغفلة.

وحدة التشريع وربوبيّته

ومن المعلوم أن التوحيد في الربوبية والعبودية يستدعي التوحيد في الربوبية التشريعية، ولا يكتمل توحيد الموحّد إلّا بها، فإنّ العبد إذا اعتقد بأن الله سبحانه هو الخالق والمدبّر والرب وأنه المعبود ولا معبود غيره لابد وأن يعتقد بأنّ التشريع بيده ولا مشرع في الوجود غيره، فكل قانون أو شريعة أو أمر يجب أن يكون منه مباشرة كما في القرآن، أو بالواسطة كأوامر النبي والإمام عليهما السلام، فلا يمكن أن يكتمل توحيد العبد وهو يأخذ تشريعه من غيره سبحانه، ويحكم ويحتكم إلى غيره، ولذا وصف القرآن الذين يأخذون تشريعهم من غيره تارة بالكافرين، وتارة بالظالمين، وتارة

بالفاسقين[١]؛ لأنّ جعل التشريع لغير الله مساوق للكفر به، والاعتقاد بأكملية غيره منه، وهو ظلم وتجاوز عليه سبحانه، ومنشأ الفسق والخروج عن النهج الصحيح، والحياة البشرية اليوم وما فيها من ظلم وفساد يشهد لهذه الحقيقة، ولا يمكن أن ترجع يوماً إلى عدل وسلام إلّا بالرجوع إلى توحيد التشريع؛ لأن الإعراض عن الله سبحانه مساوق لضنك العيش وضيق المعيشة كما قال القرآن[٢].

وتوحيد الربوبية والعبودية والتشريع يستدعيان توحيد الاستعانة والمحبة، والمراد من الأول أن لا يطلب العبد العون من أي أحد غير الله، وإذا أشتد ذلك وصار صفة لازمة في النفس صار توكلاً، وبلغ بالعبد مقام المتوكلين، وهو من أشرف المقامات؛ لأنّه يستخلص منطلقات العبد وغاياته وأساليبه، ويجعلها من الله، وحينئذ يستغني عن قوته وماله وحسبه وجاهه ومنصبه وقوة نفوذه مباشرة أو بالواسطة، وقد جعله الباري شرط الإيمان في قوله: ﴿**وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾[٣] ومفهومه أنّ التوكل على غيره مساوق للخروج من الإيمان، ولذا جعل الذكر الأساس في كل صلاة في قوله تعالى: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾[٤] وهو إنشاء من العبد لا يصدق إلّا بالعمل.

---

(١) انظر سورة المائدة: الآيات ٤٤-٤٧.

(٢) انظر سورة طه: الآية ١٢٤.

(٣) سورة المائدة: الآية ٢٣.

(٤) سورة الفاتحة: الآية ٥.

توحيد المحبّة

ولازم ذلك توحيد المحبة، وهو يهذّب غايات العبد ونواياه، ويورثه الصبر والاستقامة والتضحية، فإنّ من يعتقد أنّ الجمال والكمال والحول والقوة كلها لله سبحانه لا يمكنه أن يحب غيره، وكلُّ حُبه يكون لله سبحانه بالذات وبالعرض، فإذا أحب شخصاً يكون حبه لله ومِنْ أجلِ الله، وبهذا يكون العبد خالصاً مخلصاً في توحيده؛ إذ لا مكان لغير الله في قلبَ العبد وفكره وعمله، وهذا هو سرّ كماله وسعادته ونجاته، وإليه يشير حديث المعراج؛ إذ قال رسولﷺ: ﴿يا ربِّ أعطيت أنبياءك فضائل فأعطني، فقال الله: وقد أعطيتك فيما أعطيتك كلمتين من تحت عرشي: لا حول ولا قوة إلّا بالله، ولا منجى منك إلّا إليك﴾[1].

وبهذا يعلم معنى الروايات التي نصّت على أنّ الله تبارك وتعالى أقسم بعزته وجلاله أن لا يعذّب أهل توحيده بالنار.

ويستفاد من مجموع ما تقدم عدة قواعد:

القاعدة الأولى: أنّ الله سبحانه لا يحتجب عن خلقه إلّا أنّ الأعمال تحجب العباد عنه، ومن لا يغيب ولا يحتجب يسمع كل دعاء، وينظر كل عمل، ويجيب كلّ مضطر، فينبغي أن لا ييأس العبد ولا يغفل.

القاعدة الثانية: أنّ التوحيد هو أصل الوجود منذ نشأته إلى منتهاه، ولا يمكن للعبد أن يكون عبداً دون استحضار هذه الحقيقة واستشعارها

---

(١) تفسير القمي: ج٢، ص١١.

والإذعان لها والاندماج بها، وهو سرّ النجاة والخلاص من العذابين: عذاب القصور التكويني وعذاب التقصير.

القاعدة الثالثة: أنّ الموحدين لا يعذّبون بالنار في الآخرة لكنّهم مبتلون بالآلام والمشكلات في الدنيا؛ لأنّ الارتقاء إلى الكمال ملازم للصعوبات والمكاره، ولذا كان الأنبياء أشد بلاء، وكلّما ازدادت درجاتهم ازدادت ابتلاءاتهم، فالمعاناة والآلام في الدنيا تطهير وترقية لأهل القلوب، وممحية لذنوب أهل المعاصي.

القاعدة الرابعة: أنّ الحشر والمعاد يكون للأجساد وليس للأرواح فقط، وأن الأجساد بأرواحها هي المتنعمة والمعذبة في الآخرة.

هذا ولبعض الحكماء هنا توجيه لعدم تعذيب الموحدين بالنار لا يساعد عليه عقل ولا نقل[(١)].

---

(١) انظر شرح توحيد (الصدوق): ج١، ص٣٣-٣٤؛ الالهيات (الشفاء): ص٤٦٢؛ أسرار العارفين: ص٢٥٣.

﴿وَبَعْدَ مَا انْطَوى عَلَيْهِ قَلْبي مِنْ
مَعْرِفَتِكَ، وَلَهِجَ بِهِ لِساني مِنْ ذِكْرِكَ،
وَاعْتَقَدَهُ ضَميري مِنْ حُبِّكَ﴾

أبواب العبودية وصفات العابدين

أشار إلى ثلاث حقائق من مفاتيح العبودية، وجعلها أبواباً لنجاته وارتقائه هي:

١- المعرفة ٢- الذكر ٣- الحب

وهي في جوهرها تتكامل مع الحقائق التي أشارت إليها الفقرات السابقة في التوحيد في مراتبها السبعة، أي توحيد الذات والصفات والأفعال والربوبية والعبودية والاستعانة والمحبة.

ولا يخفى أن الحقائق الثلاث هنا لا تكفي للنجاة بمجردها، بل لابد من الدوام والاستمرار حتى تكون ملكة في نفس العبد، ودوام المعرفة تتحقق بالاستحضار وعدم الغفلة ودوام الذكر بمراتبه كما ستعرف، وكذا دوام الحب حتى لا يفعل العبد شيئاً ولا يقدّم أو يؤخّر إلّا لأجل الله وفي محبته، وهذه هي الغاية الكبرى التي يطلبها أهل السير والسلوك، وأسمى مراتب المعرفة معرفة القلب؛ لأنّ معرفة الله تارة تظهر على اللسان ولا تقرّ بالقلب، بل القلب يحكي عكسها كمعرفة المنافقين، وهذا عذاب لهم في الدنيا والآخرة؛ إذ ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾[١] وتارة تنعقد بالقلب على ما أقر به اللسان من المعرفة، ولكن لا تشرق في القلب إشراقاً تاماً بسبب ظلمة القلب وبقايا الهوى، وتارة ينعقد القلب على ما أقره اللسان إقراراً تاماً بحيث يشرق القلب بما يرى ويعتقد، وهذا أعلى مراتب المعرفة[٢].

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٦٧.

(٢) انظر شرح أصول الكافي: ج٢، ص١٣٥-١٣٨، ح٢.

وواضح أن معرفته سبحانه تتم بمعرفة آيات جماله وجلاله بقدر طاقة العبد واستعداده لا على قدر ما هو الواقع، ومتى بلغ العبد هذه المعرفة كان موحداً، وعبثاً يسعى العرفاء والحكماء وغيرهم ممن أراد الوصول إلى أكثر من ذلك؛ لأنّه مستحيل، ولا يزيد مزيد القول والبحث في ذلك إلّا بعداً وضلالاً.

ومن هنا يؤكد في هذه الفقرات أنّ إقراري بالتوحيد من إقرار العابدين، وليس من توحيد المنافقين أو الجاهلين الضالين، بل توحيد العارف المخلص، بحيث انطوى عليه القلب واللسان ولا يردد غيره، والضمير اعتقد به، واستوطن فيه الحب، فأنا من رأسي إلى أخمص قدمي توحيد لله وحب، ومن حالته هذه لابد وأن يبلغ غاية المقصود؛ لأنّ الله سبحانه لا يعذّب قلباً أشرق بنور معرفته، ولا لساناً لهج بذكره، ولا ضميراً انعقد على محبته، وإليه يشير قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن لا إله إلّا الله كلمة عظيمة كريمة على الله عزّ وجل. من قالها مخلصاً استوجب الجنة، ومن قالها كاذباً عصمت ماله ودمه، وكان مصيره إلى النار»(١).

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن قول الله عز وجل: ﴿**إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ قال: «القلب السليم الذي يلقى ربّه وليس فيه أحد سواه» قال: «وكلّ قلب فيه شرك أو شك فهو ساقط»(٢).

---

(١) التوحيد: ص٢٣، ح١٨؛ البحار: ج٣، ص٥، ح١٣.

(٢) الكافي: ج٢، ص١٦، ح٥.

والكلام في هذه الحقائق الثلاث يأتي على التوالي:

أولاً: المعرفة القلبية ومراتبها. يطلق القلب تارة على القلب الصنوبري الجسمي الذي يحرّك الدورة الدموية في البدن، وهو محل الروح الحيوانية[1]، وهو مشترك بين سائر الحيوانات وليس هو المراد هنا.

وتارة يطلق ويراد به اللطيفة الروحانية الربانية التي أودعها الله سبحانه في الإنسان، ويقال لها في بعض المراتب النفس، وفي بعض المراتب الروح،

---

(١) القلب(heart): عضو أجوف يؤمِّن بحركته الانقباضية والانبساطية المنتظمة (أو النبض) استمرار الدورة الدموية، ومن هنا شُبِّه عمله بعمل المضخة. يقع بين الرئتين في الجانب الأيسر من القفص الصدري، ويتألف في الثديات والطيور من أربع حجرات ويتراوح معدّل النبض عند المرأة ما بين٧٨ نبضة و٨٢ نبضة في الدقيقة، وعند الرجل ما بين ٧٠ نبضة و٧٢ نبضة في الدقيقة حتى إذا توقف القلب عن الخفقان لسبب من الأسباب حدثت الوفاة؛ موسوعة المورد: ج٥، ص٨٣.

ولو شاهدت فلماً سينمائياً يتحرك ببطء للاحظت أن كل جانب من جانبي القلب يعمل في اتساق؛ إذ تنقبض الغرفتان العلويتان معاً ثم ترتخيان، وبعد ذلك تنقبض الغرفتان السفليتان ثم ترتخيان، وتشكل هذه الحركة الدقة القلبية التي تحدث في الإنسان بمعدل سبعين مرة في الدقيقة، أي أكثر من مائة ألف دقة في اليوم الواحد.

وإذا قارنا هذا المعدل بدقات قلوب المخلوقات الأخرى لوجدنا أن قلب عصفور الكناري يدق ألف مرة في الدقيقة، وقلب الفيل يدق خمساً وعشرين دقة فقط. ويدق قلب الإنسان بسرعة أكبر إذا ما ارتفعت درجة حرارة جسمه في إحدى الحميات، أو إذا كان متهيج الشعور، وتقل السرعة أثناء النوم. كل شيء عن جسم الإنسان، برنارد جلمسر، ص٤٥.

وفي بعضها الإنسان[١]، وهذا هو الذي وقع محلاً للتكليف، ووعاءً للمعارف والاعتقادات، ومداراً للثواب والعقاب، كما يقع عليه الموت والحياة في الفصل عن البدن وعدمه.

ولكن بين هذا القلب والقلب الصنوبري نوع ارتباط وتعلّق حتى إن هذا علة حركة ذاك ونموه وقوته ونشاطه، وقد ادعى بعض الحكماء أن الروح تحوي على رأس وقلب وأعضاء ولكن بصورة لطيفة شفافة تقابل كل عضو منها أعضاء البدن[٢].

---

(١) القلب والروح والنفس الناطقة واحدة عند الحكماء، وفي اصطلاحات العرفاء: الروح هي اللطيفة الإنسانية المجردة، وعند الأطباء: الروح هو البخار اللطيف المتولد في القلب الصنوبري القابل لقوة الحياة والحس والحركة، ويسمى هذا البخار في اصطلاح العرفاء (بالنفس) والمتوسط بينهما المدرك للكليات والجزئيات (بالقلب) فالقلب عند العرفاء: جوهر نوراني مجرد يتوسط بين الروح بالمعنى الأول والنفس، والروح باطنه، والنفس مركبه، وظاهره المتوسط بينه وبين الجسد؛ شرح الأسماء الحسنى: ج١، ص٦٧.

والنفس وأسماؤها وقواها الأربع: ما عرفت من تجرد النفس إنما هو التجرد في الذات دون الفعل؛ لافتقارها فعلاً إلى الجسم والآلة، فحدّها أنها جوهر ملكوتي يستخدم البدن في حاجاته، وهو حقيقة الإنسان وذاته، والأعضاء والقوى آلاته التي يتوقف فعله عليها، وله أسماء مختلفة بحسب اختلاف الاعتبارات، فيسمى (روحاً)؛ لتوقف حياة البدن عليه، و(عقلاً)؛ لإدراكه المعقولات، و(قلباً)؛ لتقلبه في الخواطر، وقد تستعمل هذه الألفاظ في معان أخرى تعرف بالقرائن؛ جامع السعادات: ج١، ص٥١.

(٢) مظاهر الروح: تتجلّى الروح في مجموعة من القوى والقدرات المتناسقة المرتبطة فيما بينها ارتباطاً منتظماً، وهذه القدرات والقوى هي:

١- النفس ٢- القلب ٣- العقل ٤- الحواس.

مظاهر العظمة والإبداع في خلق الإنسان: ج٢، ص١٧.

←

ولكن الشيء الذي حار فيه العقلاء هو معرفة نوع التعلق؟ وكيف يتحقق؟ وقد ذهب كل مذهباً.

بعضهم قال: تعلق الروح بالبدن من قبيل الأعراض للأجسام لها حلول أو عروض على الخلاف، وبعضهم قال: هو من قبيل الأوصاف للموصوفات فيه اتصاف، وبعضهم قال: هو من قبيل تعلق صاحب الآلة بالآلة. ومثله مثل سائق السيارة للسيارة، وآخرون: من قبيل تعلق السلطان بالمملكة(١).

ولكن إذا ذكر القلب في القرآن الكريم وفي الأخبار فغالباً يراد منه المعنى اللطيف، لكن تارة يعبّر عنه بالفؤاد وتارة بالقلب وأخرى بالنفس:

→

الروح (soul): المبدأ أو المظهر اللاماديّ الذي يؤلف بالإضافة إلى الجسد (body) الكائن البشري، وكثيراً ما يستخدم لفظ (الروح) أيضاً عند الكلام على جميع الكائنات الحية، بل وعلى الكون بأسره، وعلى ما يعتبر عادةً أشياء غير ذات حياة (كالنجوم مثلاً) وأياً ما كان فالأديان السماوية كلها تقول بوجود الروح البشرية، وتؤكد أنها خالدة، بمعنى أنها تبقى بعد موت الجسد وفنائه، وكثير من الأديان الأخرى ومن الفلسفات والمجتمعات يؤمن بوجود الروح البشرية أيضاً، على الرغم من اختلافها الكبير حول حقيقة هذه الروح وأصلها ومآلها، والواقع أن علمنا بالروح نَزْر إلى أبعد الحدود، وفي محكم التنزيل إشارة صريحة إلى هذه الواقعة. قال تعالى جلّ من قائل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ سورة الإسراء: الآية ٨٥؛ موسوعة المورد: ج٩، ص٩٠؛ وانظر البحار: ج٥٨، ص١- ١٣٠، باب حقيقة النفس والروح وأحوالها.

(١) انظر البحار: ج٥٨، الباب ٤٢ من أبواب حقيقة النفس وأحوالها، ص١.

قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[1]، إذ القلب في مملكة البدن له مقام المَلِكِ المدبّر والمحرك والمنظم والمقرِّر والمدير، وله في ذلك أعوان وأنصار، وهو بهذا المعنى قابل للنورانية والإشراق بالمعارف الحقة، وقابل للظلمة بالخرافات والاعتقادات الفاسدة[2]، ولذا قد يكون بصيراً وقد يكون أعمى مطبوعاً عليه. قال تعالى:

---

(١) سورة الحج: الآية ٤٦؛ هذا وجعل الصدر ظرفاً للقلب من المجاز في النسبة، وفي الكلام مجاز آخر ثان من هذا القبيل، وهو نسبة العقل إلى القلب، وهو للنفس؛ تفسير الميزان: ج١٤، ص٣٨٩.

(٢) وقد مُثِّل في القرآن الحكيم القلب (بالزجاجة) و (بالكوكب الدري) والروح (بالمصباح) والنفس (بالشجرة الزيتونة) الموصوفة بكونها (مباركة لا شرقية ولا غربية)؛ لازدياد رتبة الإنسان وبركته بها، ولكونها ليست من شرق عالم الأرواح المجرّدة ولا من غرب عالم الأجساد الكثيفة، وكما مثل البدن بالمشكاة هذا على اصطلاحاتهم.

إذا عرفت معنى القلب فاعلم أنه تعالى (مقلب القلوب) الصنوبرية من الاعتدال إلى الانحراف، ومن الانحراف إلى الاعتدال، والكافل بمعرفة اعتدالها وانحرافها علم الطب، وفي الحديث: ﴿إنّ في جسد ابن آدم لمضغة إذا صلحت صلح بها الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد بها جميع الجسد، ألا وهي القلب﴾ وكذا هو تعالى (مقلب القلوب) المعنوية من الاعتدال إلى الانحراف وبالعكس، فإنّ للإنسان ثلاث قوى: قوة درّاكة، وقوة شهوية، وقوة غضبية، فانحراف القوة الدرّاكة منه إلى جانبي الإفراط والتفريط يسمى (جربزة) و (بلاهة) واعتدالها (حكمة) وانحراف القوة الشهوية إلى طرفي الإفراط والتفريط يسمى (شرهاً) و(خموداً) واعتدالها (عفّة) وانحراف القوة الغضبية إلى حدّي الإفراط والتفريط يسمى (تهوراً) و(جبناً) واعتدالها (شجاعة). وهذا الاعتدال هو المسمى (بالعدالة) وهو الصراط المستقيم الذي هو أحدّ من السيف، وأدقّ من الشعر.

والكافل بمعرفة اعتدالها وانحرافها علم الطب الروحاني الذي وضعه أطباء النفوس من العلم الإلهي وعلم الأخلاق، وفي كلام أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿وخلق الإنسان ذا نفس ←

﴿أَن لَّوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ﴾[١] و: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم﴾[٢] والرين هو الغطاء والحجاب الكثيف[٣]، ويتصف به القلب إذا قسا وتدنس بسبب الذنوب والمعاصي. إذا عرفت هذا يظهر لك أن قولهعَلَيْهِ السَّلَامُ في فقرة الدعاء: ﴿**وبعد ما انطوى عليه قلبي من معرفتك**﴾ المراد منه احتمالات:

منها: المعرفة الاكتسابية بواسطة الأدلة والبراهين القطعية، فإنها بعد ثبوتها تنطوي في القلب.

→

ناطقة إن ركبها بالعلم والعمل، فقد شابهت جواهر أوائل عللها، وإذا اعتدل مزاجها وفارق الأضداد فقد شارك بها السبع الشداد﴾، شرح الأسماء الحسنى: ج١، ص٦٨.

فالقلب منبع حياة جميع الأعضاء، ومنزلته في الإنسان الصغير منزلة الشمس في الإنسان الكبير، وعند كثير من الحكماء: القلب محلّ تكوّن الروح مطلقاً، ثم تسفل قسطٌ منه إلى الكبد، وتصعد قسطٌ صالحٌ منه من طريق بعض الشرائين إلى الدماغ، ونضج فيه مرة أخرى، فاعتدل وصار روحاً نفسانية مطيّة للقوى المدركة الظاهرة والباطنة والقوى المحركة، وهذا هو الدور الحيواني، وإلى هنا التصويرات في الأرحام.

وإذا خرج المولود من بطن أمّه إلى رحم الأرض كانت في درجة الحيوانية إلى أوان البلوغ الصوري، ثم يأخذ في الدورة الإنسانية مستعملاً للفكر والروية، فإمّا يسلك مسلك التوحيد ويستكمل في العقل والمعقول، وإمّا يسلك مسالك أخر فينخرط في سلك (المقربين) أو في زمرة (أصحاب اليمين) أو في حزب (أصحاب الشمال) من الضالين والمكذبين؛ شرح الأسماء الحسنى: ج١، ص٢٦٣.

(١) سورة الأعراف: الآية ١٠٠.

(٢) سورة المطففين: الآية ١٤.

(٣) مجمع البحرين: ج٦، ص٢٥٩، (رين)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٣٨٦، (ران).

ومنها: المعرفة الإلهامية أو الإفاضية التي يقذفها الله سبحانه في قلب المؤمن.

ومنها: المعرفة الاتحادية بمعنى اتحاد النفس مع نور التوحيد المسمّى عند الحكماء باتحاد العاقل والمعقول، فالمراد من الانطواء الاتحاد القلبي بنور معرفته ووحدانيته.

والظاهر أن الاتحاد نتيجة المعرفة لا ذاتها، ولعله المقصود هنا؛ لأنّ الانطواء لا يكون إلّا بعد الثبوت والرسوخ، فإنّ المعرفة ليست متواطية بل مشككة، وقد قسمّوها إلى مراتب، وقد شبهوها بمعرفة النار، وأدنى مراتبها المعرفة الوثوقية، فإن من سمع بوجود النار وسمع عن خصوصياتها وآثارها فآمن بها ولم يرها أو يدركها بنفسه تكون معرفته ناشئة من أخبار الثقات وتعريفهم له، نظير معرفة المقلدين الذين صدّقوا بالدين وبوجود الخالق من أقوال العلماء الثقات من غير وقوفهم على الحجة والبرهان.

وخصوصية هذه المعرفة أنها أولية سطحية وظنية أو وثوقية لا يمكن أن ترتقي إلى مستوى المعرفة الصحيحة، ومن هنا ذهب أكثر الفقهاء إلى أن التقليد في أصول الدين غير جائز؛ لأن العقيدة مشروطة بالعلم والمعرفة بالحجة والبرهان، ولكنها بالنسبة لعوام الناس تكون مجزية إذا قصروا عن بلوغ الحقائق الغيبية بالدليل والبرهان ولو بواسطة الشرح والبيان، لكنها في المحصلة تعتبر أدنى مراتب المعرفة، والمرتبة الأعلى منها معرفة الخواص، وتستند إلى الحجة والدليل، فيكون العارف بمنزلة من لم ير النار ولكنه رأى دخانها وتوصل من وجود الدخان إلى وجودها؛ لإدراكه أن المعلول لابد له من علة، وهذه هي معرفة أهل النظر

والاستدلال الذين يتوصلون إلى معرفة الخالق تبارك وتعالى عبر البراهين والأدلة، ولذا تسمى المعرفة التحصيلية.

وهناك رتبة أعلى منها وهي المعرفة الشهودية، ومثلها مثل من شاهد النار وأدركها بنفسه فأحس بحرارتها ونورها وأنتفع بآثارها، وكذلك معرفة الله سبحانه، وهي قد تستعين بالاستدلال والنظر، ولكنها لا تتقوم بهما، وإنما تقوم على رؤية القلب والفطرة واطمئنانه.

وأعلى المراتب هي المعرفة اليقينية، ومثلها مثل من مسّ النار واحترق بها، وهي معرفة أهل السر من الأنبياء والأولياء، ومن خصوصياتها أنّها تقوم على اليقين فلا تزول أو تتزلزل، ولا يساورها ضعف أو فتور، ولذا نجد أن قلوبهم عليهم السلام دائماً في شوق ولهفة عامرة بالحق، ملازمة للذكر، تائقة إلى لقائه، لا تغفل ولا تنصرف، مشغولة عن الدنيا وغرورها.

ولعلّ هذا أحد أسرار عصمة الأنبياء والأولياء عليهم السلام وزهدهم وإخلاصهم وتضحياتهم الجسام في سبيله، وفي الحديث الشريف: ﴿من عرف الله وعظّمه منع فاه من الكلام، وبطنه من الطعام، وعنى نفسه بالصيام والقيام﴾[١] أي لا يكون كلامه وطعامه وكل حركاته وسكناته إلّا إعداداً للقائه سبحانه، وفي حديث آخر: ﴿لو يعلم الناس ما في فضل معرفة الله عزّ وجل ما مدوا أعينهم إلى ما متع الله به الأعداء من زهرة الحياة الدنيا﴾[٢].

(١) الكافي: ج٢، ص٢٣٧، ح٢٥، وفيه: (وعفى نفسه بدل وعنى نفسه)؛ أمالي الصدوق: ص٣٨٠، ح٤٨٢.

(٢) الكافي: ج٨، ص٢٤٧، ح٣٤٧؛ وانظر مجمع البحرين: ج٣، ص١٦٣، (عرف).

ويستفاد من الفقرة الشريفة أنّ المعرفة محلها القلب، وأما العقل فهو آلة الفكر ومحل الاستدلال، فما يتوصل إليه العقل بالبرهان يرسله إلى القلب ليستوطن ويستقر فيه فيكون عقيدة، ولذا قال: ﴿**انطوى عليه قلبي من معرفتك**﴾.

ومن هنا يتضح أن العالم الرباني لابد وأن يهتم بالعلم الباطن ومراقبة القلب والالتفات إلى نزاهة النفس ومعرفة طريق الآخرة واستشعارها في كل قول وفعل أكثر من أي علم آخر وإن كان ذلك العلم واجب التحصيل والتعليم، فإن الفيوضات الإلهية تنزل على النفس والقلب الطاهر، وإن معرفة الحق تنكشف عن طريقها، وبها يتكامل الإنسان ويتشبه بخالقه؛ لأنّ تهذيب الإنسان وتربيته هي غاية العلوم والشرائع، ولا ينبغي أن ينشغل العالم بالوسيلة ويترك الغاية.

الذكر وأقسامه

ثانياً: دوام الذكر، وقد عبر عنه بقوله: ﴿ولهج لساني من ذكرك﴾.

لهج أي أولع. يقال: لهج بالشيء -بالكسر- يلهج لهجاً: إذا أغرى به، وأولع فيه، من اللهج بالشيء: الولوع فيه، والمثابرة عليه ومنه (قد لهج بالصوم والصلاة) أي أولع بهما[1].

---

(١) مجمع البحرين: ج٢، ص٣٢٨، (لهج)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٨٤٠، (لهج).

وعبّر باللهج دون غيره من المفردات كالدوام للإشارة إلى أن الذكر مقرون بالمحبة والوله بذكر الحبيب؛ لأنّ الذكر قد يكون دائماً ولكنه لا يتعدى جارحة اللسان، وليس هذا هو منشأ الأثر هنا وإن كان في نفسه لا يخلو من أثر، إلّا أنه في بلوغ غايات الطالبين لا يجدي إلّا اللهج بالذكر، كما لم يعبر بالنطق والكلام؛ لأنها أعم من اللهج؛ لأنهما يصدقان مع المثابرة وبدونها، والأول هو المقصود.

ومن المعلوم أن الذكر الإلهي لا يحصل بتمامه بدون الذكر القلبي وتنّور القلب بالمذكور فقط مع نسيان غيره.

والذكر على أقسام:

منها: الذكر اللساني، وهو عبارة عن تحلية اللسان وتزيينه بذكر الله، وكلّما كان الذكر أكثر كانت تحليته أجمل وأكمل، ومن آثاره تنزيه الباطن وتحليته بالفضائل، ولعل هذا أحد معاني قوله صلى الله عليه وآله: «أفضل الذكر لا إله إلّا الله»[١]؛ لأنه من أفضل الأذكار في تهذيب النفس وتصفية الباطن وتنزيه الخواطر[٢].

ومن هنا اتفق أهل المعرفة على ضرورة المواظبة على هذا الذكر، وأن له من الآثار والخصوصيات ما يعجز اللسان عن وصفه، وفي رواية أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «شيعتنا الذين إذا خلوا ذكروا الله كثيراً»[٣]

---

(١) مسند زيد بن علي عليه السلام: ص٤٤١؛ سبل السلام: ج٤، ص٢١٦.

(٢) انظر البحار: ج٦٨، ص٢٠٤، توضيح.

(٣) الكافي: ج٢، ص٣٩٩، ح٢؛ عدة الداعي: ص٢٣٤؛ البحار: ج٩٠، ص١٦٢، ح٤٢.

وقال الله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿أكثر ذكري بالليل والنهار، وكن عند ذكري خاشعاً﴾[(١)].

وواضح أن كثرة الذكر والخشوع فيه هو منشأ الآثار والبركات وإلّا كان لقلقة لسان، والمعروف عند أهل المعرفة أن المداومة على التهليل يهيئ النفس للإفاضات الإلهية، ويشعرها بلذة الذكر وحلاوته، وإليه يشير قوله عليه السلام: ﴿يا من ذكره حلو﴾[(٢)] باعتبار أن ذكر كل شيء علم به، والعلم به لابدّ أن يكون بصورة مطابقة له؛ لما تقرّر أن الأشياء تحصل بأنفسها في الذهن، وكلّما كان ذو الصورة جميلاً بهياً كانت الصورة كذلك، وكلما كانت الصورة العلمية كذلك كانت حلوةً لذيذةً، وحلاوتها بقدر الجمال والبهاء لذي الصورة، ولأنّ شرف العلم بشرف المعلوم. قالوا: إن علم التوحيد أجلُّ العلوم؛ لأنّه علم بأجلّ المعلومات، فحيث كان الحق تعالى أجمل من كل جميل وأبهى من كل بهي كانت حلاوة ذكره أتمّ وأعظم، ولهذا ورد في الدعاء: ﴿اللهمّ أذقني حلاوة ذكرك﴾[(٣)].

ومنها: الذكر الحالي، وهو أن يكون حال العبد حال تذكر بسبب المراقبة الدائمة في ملاحظة الجمال والجلال الإلهي واستمداد التأييدات الإلهية، وهذه المرتبة من الذكر لها من اللذات ما يفوق حد الوصف، وهي سرّ الدواء في معالجة القصور الذاتي والفعلي في البشر.

---

(١) عدة الداعي: ص٢٣٤.

(٢) المصباح: ص٢٥٣؛ البحار: ج٩١، ٣٩٠.

(٣) شرح الأسماء الحسنى: ج١، ص١٨٢.

وقد ورد في الدعاء الشريف: ﴿يا طبيب القلوب﴾[١] أي القلوب التي مرضت بالرذيلة وداء الجهل ولا علاج لها إلّا بالفضيلة، والذكر أسماها، وفي مناجاة سيّد الساجدينعليه السلام: ﴿وآنسنا بالذكر الخفي، واستعملنا بالعمل الزكي﴾[٢] فإنّ اسمه تعالى دواء، وذكره شفاء، والقلوب إذا أسقمها حبّه فلا دواء لها إلّا وصاله؛ إذ المحبّ لا يتسلّى بغير محبوبه، ولا يسكن إلّا بوجدانه: (من طلبني وجدني)، و: (من كان لله كان الله له) و: (يا أنيس القلوب) أي كل قلب. أما قلوب أصفيائه ومريديه وذاكريه كما في الأسماء الآتية فلأنّها لا تأنس بغيره، كالطير الذي لا يأوي إلى الناس وحيداً فريداً، وأما قلوب غيرهم، فلأنّ أنسها بغيره لأجل أنّ ذلك الغير ليس خلواً عن نوره النافذ، ورحمته الشاملة، فإنّه: ﴿نور المستوحشين في الظلم﴾[٣].

ومنها: الذكر الحقيقي، وهو عبارة عن مشاهدة الحق مشاهدة لا يرى فيها غيره، ولا يجد لنفسه وجوداً في قبال وجود الحق وكمالاته، وجوهر الذكر هو التخلّص من الغفلة والنسيان واستحضار الحق في كل الأحوال، ووجدانه في جميع الحالات، فالذكر اللساني مع غفلة القلب عنه ليس بذكر حقيقة عند أهل المعرفة، ولا يترتب عليه الأثر المقصود، ويتحقق الذكر الحقيقي بمراحل:

---

(١) المصباح: ص٢٤٨؛ البحار: ج٩١، ص٣٨٥؛ شرح الأسماء الحسنى: ج١، ص٦٩.

(٢) الصحيفة السجادية: ص٤١٩، مناجاة الذاكرين.

(٣) شرح الأسماء الحسنى: ج١، ص٦٩، (بتصرف).

مراحل الذكر الحقيقي

الأولى: نسيان الغير؛ لأنّ العبد إذا لا ينسى غيره سبحانه لا يجده، والمقصود بالنسيان عدم الالتفات والانهماك في الانشغال به، ولذا عرّفوا الذكر بالتخلص من الغفلة والنسيان[١].

والثانية: الذكر الظاهر بالثناء والدعاء والمراعاة، ولابد أن تلازم المرحلة الأولى، ولعل الذكر الجامع للثلاثة قوله: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم» وأفضل ما فيه: «لا إله إلّا الله» كما ورد في الحديث المتقدم؛ لأنّها كلمة التوحيد والتنزيه عن الشريك، والفارقة بين الكفر والإيمان، كما أنّها أجمع للقلب، وأنفى للغير، وأشد تزكيه للنفس، وتصفية للباطن، وتنقية للخاطر، وأطرد للشيطان، ولذا أجمع أهل السر على أن المريد يجب أن يداوم على هذا الذكر وحده[٢]، وقراءة آيات الدعاء الواردة عن لسان الأنبياء والأولياء عليهم السلام لها آثار كبيرة أيضاً. مثل قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ**﴾[٣] ودعاء إبراهيم عليه السلام لأولاده وذريته[٤]، وكلّ ما كان من القرآن أو مروياً عن المعصومين عليهم السلام، خصوصاً ما فيه

---

(١) انظر مجمع البحرين: ج٣، ص٣١٣، (ذكر).

(٢) منازل السائرين: ص٤٦٥.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٨.

(٤) انظر سورة إبراهيم: الآية ٣٧.

طلب الهداية والاستقامة وما يناسب مقام الداعي وحاجته وفقره كان أبلغ أثراً بشرط استحضار المعنى.

والثالثة: الذكر الخفي، ويراد به استحضار الخالق وعظمته وجلاله وجماله في القلب والاجتهاد لعدم الفتور، ويتحقق بدوام الحضور والمراقبة وتخليص القلب من الخواطر الظلمانية، وفي أحاديث الغرر عن أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تذكر الله سبحانه ساهياً، ولا تنسه لاهياً، واذكره ذكراً كاملاً يوافق فيه قلبك لسانك، ويطابق إضمارك إعلانك، ولن تذكره حقيقة الذكر حتى تنسى نفسك في ذكرك، وتفقدها في أمرك»[(١)].

ولازم هذا الاستحضار المناجاة والمؤانسة والمكاشفة؛ لأنّها نتائج الانقطاع إليه، والذهول عن غيره، ولعل إليه يشير قوله تعالى: ﴿**وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ**﴾[(٢)].

هذا وقد ذكروا أن للذكر صورة ومعنى وحقيقة وإن شئت سمِّ الثالثة غاية، فصورته اللفظ، ومعناه المفهوم التفصيلي، وحقيقته وغايته التوجه إلى المتوجّه إليه الواحد والمفهوم الإجمالي، فمن جوّز ذلك كان نظره إلى الحقيقة والغاية، كما قالوا: (خذ الغايات واترك المبادئ) ثم لما كانت الاطوار عند أهل المعرفة سبعة: الطبع، والنفس، والقلب، والروح، والسرّ، والخفي، والأخفى كان الذكر موزّعاً على هذه المراتب وبقدرها كاللساني والنفسي والقلبي والروحي والسري والخفوي والإخفائي[(٣)].

---

(١) عيون الحكم والمواعظ: ص٥٢٥.

(٢) سورة غافر: الآية ١٣.

(٣) شرح الأسماء الحسنى: ج١، ص١٨٤، (بتصرف).

خصوصيات الذكر

ونلفت النظر إلى ثلاث من خصوصيات الذكر وآثاره:

الأولى: أنّ ذكره سبحانه حسن على كل حال، ففي الكافي الشريف بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال: «مكتوب في التوراة التي لم تغير: أن موسى سأل ربه فقال: يا ربّ أقريب أنت مني فأناجيك أم بعيد فأناديك؟ فأوحى الله عز وجل إليه: يا موسى أنا جليس من ذكرني، فقال موسى عليه السلام: فمن في سترك يوم لا ستر إلّا سترك؟ فقال: الذين يذكرونني فأذكرهم، ويتحابون فيّ فأحبهم، فأولئك الذين إذا أردت أن أصيب أهل الأرض بسوء ذكرتهم فدفعت عنهم بهم»[(١)].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام يا موسى لا تفرح بكثرة المال، ولا تدع ذكري على كل حال، فإنّ كثرة المال تنسي الذنوب، وإنّ ترك ذكري يقسي القلوب»[(٢)].

الثانية: أنّ ذكره سبحانه لا حدّ له، ففي الكافي بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ما من شيء إلّا وله حد ينتهي إليه إلّا الذكر فليس له حد ينتهي إليه. فرض الله عز وجل الفرائض فمن أداهن فهو حدهن، وشهر رمضان فمن صامه فهو حده، والحج فمن حج فهو حده، إلّا الذكر فإن الله عز وجل لم يرض منه بالقليل، ولم يجعل له حداً ينتهي إليه، ثم تلا هذه الآية:

---

(١) الكافي: ج٢، ص٤٩٦، ح٤.

(٢) الكافي: ج٢، ص٤٩٧، ح٧.

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا**﴾[(١)] فقال: لم يجعل الله عز وجل له حداً ينتهي إليه. قال: وكان أبي عليه السلام كثير الذكر، لقد كنت أمشي معه وإنّه ليذكر الله تعالى، وآكل معه الطعام وإنّه ليذكر الله، ولقد كان يحدّث القوم وما يشغله ذلك عن ذكر الله، وكنت أرى لسانه لازقاً بحنكه يقول: لا إله إلّا الله، وكان يجمعنا فيأمرنا بالذكر حتى تطلع الشمس، ويأمرنا بالقراءة من كان يقرأ منّا، ومن كان لا يقرأ منّا أمره بالذكر»[(٢)].

الثالثة: المواظبة على الذكر الكثير، وتشمل قراءة القرآن، فإن القرآن يجلي القلب، وينقي الضمير، وينير الفكر والنفس، والبيت الذي يقرأ فيه القرآن ويذكر الله فيه تكثر بركته، وتحضره الملائكة، وتهجره الشياطين، ويضيء لأهل السماء كما يضيء الكوكب الدري لأهل الأرض، وبخلافه البيت الذي لا يقرأ فيه القرآن، وأكثر المشاكل النفسية والأسرية الضاجة في حياة الناس اليوم ناشئة من ترك أهلها للذكر وتلاوة القرآن، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أعطي لساناً ذاكراً فقد أعطي خير الدنيا والآخرة»[(٣)].

ومن خير الدنيا الخلق الحسن، والبيت الواسع، والزوجة الصالحة، والذرية الطيبة، وللذكر الكثير مصاديق عديدة، فقد قيل: إنه أن لا ينسى الله أبداً، وقيل: أن يذكره سبحانه بصفاته العلى وأسمائه الحسنى، وينزهه عما لا يليق به، وهما تعريف للمفهوم.

---

(١) سورة الأحزاب: الآيتان ٤١-٤٢.

(٢) الكافي: ج٢، ص٤٩٨، ح١؛ أسرار العارفين: ص٢٥٧.

(٣) الكافي: ج٢، ص٤٩٨، ح١؛ شرح أصول الكافي: ج١٠، ص٢٨١.

والوارد عن الأئمة الأطهار عليهم السلام أنّ أدنى مصاديقه أن يقول العبد: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر» ثلاثين مرة[١]، وفي رواية زرارة وحمران ابني أعين عن الصادق عليه السلام قال: «من سبّح تسبيح فاطمة الزهراء عليها السلام فقد ذكر الله ذكراً كثيراً»[٢].

وعن الصادق عليه السلام: «تسبيح فاطمة الزهراء عليها السلام من الذكر الكثير»[٣] الذي قال الله عزّ وجل: ﴿**اذْكُرُوا الله ذِكْرًا كَثِيرًا**﴾.

وعن ابن عباس قال: جاء جبرائيل إلى النبي عليه السلام فقال: يا محمد، قل: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلّا بالله عدد ما علم الله، وزنة ما علم، وملء ما علم، فإنّه من قالها كتب الله له بها ست خصال. كتب من الذاكرين الله كثيراً، وكان أفضل من ذكره بالليل والنهار، وكان له غرساً في الجنة، وتحاتت عنه خطاياه كما تحات ورق الشجرة اليابسة، وينظر الله إليه، ومن نظر الله إليه لم يعذّبه[٤].

---

(١) مجمع البيان: ج٨، ص١٦٦؛ البحار: ج٨٣، ص٢٤، ح٢٥؛ تفسير نور الثقلين: ج٤، ص٢٨٧، ح١٥٤.

(٢) مجمع البيان: ج٨، ص١٦٧؛ الوسائل: ج٦، الباب ٨ من أبواب التعقيب وما يناسبه، ص٤٤٣، ح٨٣٩٥؛ البحار: ج٨٢، ص٣٣٥، ح٢٢.

(٣) الكافي: ج٢، ص٥٠٠، ح٤؛ الوسائل: ج٦، الباب ٨ من أبواب التعقيب وما يناسبه، ص٤٤١، ح٨٣٩٠.

(٤) مجمع البيان: ج٨، ص١٦٧.

ثالثاً: رسوخ المحبة وشدتها. ماذا يعني: ﴿واعتقده ضميري من حبّك﴾؟

الضمير ما يضمره الإنسان في نفسه ويصعب الوقوف عليه[١]، ولذا يعبّر عنه بالسرّ، والجمع ضمائر، وأضمرت الشيء: أخفيته[٢].

وأضمرت في نفسي شيئاً: أي نويت، وهو ما يضمره الإنسان في نفسه من دون التكلم، والاسم الضمير، والجمع الضمائر، ومنه الحديث: ﴿لو أنك توضأت فجعلت مسح الرجل غسلاً ثم أضمرت ذلك من المفروض لم يكن ذلك بوضوء﴾[٣].

وعلى هذا الأساس يطلق على النية؛ لأنها تخفى في النفس ولا يعلمها إلّا الله وصاحبها، كما يطلق على الاعتقاد؛ لأنّ محله القلب، ولا يعلم صدقه إلّا الله وصاحبه، والحب كذلك؛ لأنّ محله القلب ولا يعلمه إلّا الله وصاحبه، والاعتقاد في قوله: ﴿واعتقده ضميري من حبك﴾ يراد به ثبات الحب وصدقه وصلابته. يقال: اعتقد الأمر أي صدقه وعقد عليه قلبه وضميره.

والعقيدة الحكم الذي لا يقبل الشك لدى معتقده، ولا يراد بها العقيدة بمعناها الخاص، أي ما يقصد به الاعتقاد دون العمل، كعقيدة وجود الخالق ووحدانيته، وبعثة الرسل ونحوها[٤]؛ لوضوح أن الحب متفرع عن العقيدة الحقة، فإذا كان صادقاً ثابتاً يقال له اعتقد الحب.

---

(١) المعجم الوسيط: ج١، ص٥٤٤، (ضمر).

(٢) لسان العرب: ج٤، ص٤٩٢، (ضمر).

(٣) مجمع البحرين: ج٣، ص٣٧٥، (ضمر).

(٤) المعجم الوسيط: ج٢، ص٦١٤، (عقد)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص١٠٦، (عقد).

والمحبة من جملة أحوال الصالحين، وقد وصفهم الباري عز وجل بالحب المتبادل بينه وبينهم، فقال سبحانه ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[1] والمحبة هي مبدأ الحالات الروحية وغاياتها، بل الولاية الكلية على الأشياء تقوم على المحبة، بل يستفاد من بعض النصوص أنّ المحبة هي سبب النشأة التكوينية، ولولاها لم يخلق الله سبحانه الأشياء، ففي الحديث القدسي: «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أُعرف فخلقت الخلق لكي أُعرف»[2] والمحبة تتضمن الإرادة؛ لتقوّم التكوين بالإرادة فتفسير البعض المحبة بالإرادة من باب الملازمة، والمحبة قسمان عند أهل المعرفة: محبة ظلمانية ومحبة نورانية.

أما الظلمانية فهي محبة الخلق لبعضهم البعض للدواعي الشهوانية، وهذه ظلمات تزداد وتنقص بحسب الشدة والضعف.

أما النورانية فهي المحبة الإلهية، ومحبة الخلق للحق أيضاً، كمحبة الأئمة والوالدين؛ لأنها في طول محبة الله، أو من مظاهرها، وهي قسمان: محبة عامة وخاصة.

أما العامة فهي محبة العبد للحق، ولكنها مخلوطة بالشهوات والميول إلى آثار الرحمة الرحيمية والرحمانية، وعطاؤها من اللذات المادية، ولأنها تنبعث عن المشتهيات النفسية فهي لا تخلو من الأغراض والمطامع.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٥٤.

(٢) معارج نهج البلاغة: ص٥٧، ح٢٥٥؛ مشارق أنوار اليقين: ص٣٩.

وأما الخاصة فهي محبة العبد لمشاهدة كمال الحق ومظاهر لطفه وقهره، وهي مجرّدة عن الأغراض النفسية الخاصة؛ لذا تكون خالصة منزهة[(١)]، وهي من أعظم النعم والفضائل، وإليها تعود سائر الكمالات، وإليه يشير قول الصادقعليه السلام: ﴿حب الله إذا أضاء على سرّ عبد أخلاه عن كل شاغل وكل ذكر سوى الله عنده ظلمة، والمحب أخلص الناس سراً لله، وأصدقهم قولاً، وأوفاهم عهداً، وأزكاهم عملاً، وأصفاهم ذكراً، وأعبدهم نفساً، تتباهى الملائكة عند مناجاته، وتفتخر برؤيته، وبه يعمر الله تعالى بلاده، وبكرامته يكرم عباده؛ ليعطيهم إذا سألوا بحقه، ويدفع عنهم البلايا برحمته، فلو علم الخلق ما محله عند الله ومنزلته لديه ما تقرّبوا إلى الله إلّا بتراب قدميه﴾[(٢)].

ورابطة المحبة من أعظم الروابط التي تجذب المحب إلى المحبوب بجذبات تجرّده من صفاته، وتلبسه صفات المحبوب؛ لذا يكون قريباً منه، متخلقاً بأخلاقه وصفاته، وبذلك يكون (سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به)[(٣)] و: ﴿يكون مثله يقول للشيء كن فيكون﴾[(٤)].

وعن الإمام الصادقعليه السلام قال: ﴿إنّ أولي الألباب الذين عملوا بالفكرة حتى ورثوا منه حب الله، فإنّ حبّ الله إذا ورثه القلب واستضاء به أسرع

---

(١) انظر شرح أصول الكافي: ج١، ص٧٠، الحاشية.

(٢) البحار: ج٦٧، ص٢٣، ح٢٣.

(٣) الكافي: ج٢، ص٣٥٢، ح٧؛ المحاسن: ج١، ص٢٩١، ح٤٤٣.

(٤) انظر مشارق أنوار اليقين: ص١٠٠.

إليه اللطف، فإذا نزل اللطف صار من أهل الفوائد، فإذا صارمن أهل الفوائد تكلّم بالحكمة، وإذا تكلّم بالحكمة صار صاحب فطنة، فإذا نزل منزلة الفطنة عمل في القدرة، فإذا عمل في القدرة عرف الأطباق السبعة، فإذا بلغ هذه المنزلة صار يتقلّب في فكر بلطف وحكمة وبيان، فإذا بلغ هذه المنزلة جعل شهوته ومحبته في خالقه، فإذا فعل ذلك نزل المنزلة الكبرى فعاين ربّه في قلبه، وورث الحكمة بغير ما ورثه الحكماء، وورث العلم بغير ما ورثه العلماء، وورث الصدق بغير ما ورثه الصدّيقون»(١).

وطريق المحبة هو التحبب إليه سبحانه بالنوافل التعبدية كالصلاة المستحبة والصيام والعبادة كتلاوة القرآن والمعاونة على البر والتقوى بناء على أنها غير التعبدية والتوصلية كما هو التحقيق، والتوصلية كخدمة الخلق وإصلاح ذات البين وتطهير الباطن، وإليه يشير قول المصطفى صلى الله عليه وآله: «قال الله: ما تحبب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ مما افترضته عليه، وإنّه ليتحبب إليّ بالنافلة حتى أحبّه، فإذ أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، إذا دعاني أجبته، وإذا سألني أعطيته»(٢).

---

(١) كفاية الأثر: ص٢٥٧؛ البحار: ج٦٧، ص٢٥، ح٢٦، باختلاف يسير عن الكفاية.

(٢) المحاسن: ج١، ص٢٩١، ح٤٤٣؛ البحار: ج٦٧، ص٢٢، ح٢١.

علامات المحبة

ومن ذلك يعرف أن للمحبة علامات ومظاهر:

منها: أن قلب المحب يخلو من محبة غير الله سبحانه؛ إذ لا تجتمع محبتان في قلب واحد؛ لأنّ الله لم يجعل للمرء قلبين في جوفه كما تضافرت به النصوص الشريفة[١]، فلو لوحظ أن العبد ميّال إلى الدنيا طمع بها ورغب إليها عرف أنه لا يحب الله سبحانه وإن ادعى ذلك، فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «كيف يدّعي حب الله من سكن قلبه حب الدنيا»[٢].

وفي الحديث القدسي: «أن الله تعالى أوحى إلى بعض الأنبياء إذا أطلعت على قلب عبد فلم أجد فيه حب الدنيا والآخرة ملأته من حبي»[٣] والمراد بحب الآخرة أي حب لذاتها وشهواتها.

وقال لداود عليه السلام: «إنّي حرمت على القلوب أن يدخلها حبي وحبّ غيري»[٤].

إن قلت: فكيف يحب الأنبياء والأولياء أولادهم وأسرهم وأصحابهم وفي نفس الوقت يحبّون الله ويحبهم؟

والجواب: أن حبهم عليهم السلام لهؤلاء من باب المظهرية أو الطريقية، والمنفي هو أن يكون حبهم لأنفسهم لا لأجل الله سبحانه، فهم يحبون الخلق ويحبون أولادهم وأسرهم لأن الله أمرهم بمحبة أولادهم، أو لأن حبهم

---

(١) انظر سورة الأحزاب: الآية ٤.

(٢) عيون الحكم والمواعظ: ص٣٨٣، غرر الحكم ودرر الكلم: ص٢٩٢.

(٣) شرح نهج البلاغة: ج١١، ص٧٩.

(٤) شرح نهج البلاغة: ج١١، ص٨٠.

من حقوقهم فيكون في الحقيقة هذا الحب حباً لله، وإما أن تكون علاقتهم مع أولادهم علاقة الشفقة وليست المحبة، وهي تعني الرقة والعطف[١]؛ لأجل تربيتهم ورعاية مصالحهم، وهي من أمارات حب الله سبحانه؛ لأنه يحب خلقه، وإليه يشير قول العقيلة زينب لأمير المؤمنين عليهما السلام: ﴿أتحبنا يا أبتاه؟ فقال عليه السلام: وكيف لا أحبكم وأنتم ثمرة فؤادي فقالت عليها السلام: يا أبتاه إن الحب لله تعالى والشفقة لنا﴾، وقد وصفه الشيخ النقدي بالكلام المتواتر عنها عليها السلام[٢]، وهو صريح في أن من يحب الله لا يحب غيره، وقولها عليها السلام حجة كسائر المعصومين عليهم السلام؛ لعصمتها، ولأنها لا تنقل إلّا ما أخذته منهم، ولشهادة الإمام السجاد عليه السلام بعلمها اللدني فضلاً عن تقرير أمير المؤمنين عليه السلام لقولها الشريف، وإنما عبّر عليه السلام بالحب إما لأنه أراد الحب بمعناه الأعم الشامل للشفقة؛ لأنها معلولة له، أو لأجل إظهار هذه الفضيلة العلمية لعقيلة الرسالة عليها السلام، ويعززه ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿حب الدنيا وحب الله لا يجتمعان في قلب أبداً﴾[٣].

ومنها: محبة أوامر المحبوب والوسائل الموصلة إليه، ومن هنا عشق الأنبياء والأولياء العبادة والطاعة والخلوة في الليالي مع الحبيب، وكان علي عليه السلام راهباً في الليل تهتز الحيطان من بكائه، ويصلّي في اليوم والليلة ألف ركعة[٤].

---

(١) انظر لسان العرب: ج١٠، ص١٨٠، (شفق)؛ الفروق اللغوية: ص٣٠٠، الرقم ١٢٠٥.
(٢) زينب الكبرى عليها السلام (للشيخ جعفر النقدي): ص٣٥-٣٦؛ العقيلة والفواطم: ص٢٩.
(٣) تنبيه الخواطر: ج٢، ص٤٤١.
(٤) الكافي: ج٤، ص١٥٤، ح١؛ البحار: ج٤١، ص٢٣، ح١٦.

ومنها: محبة أولياء الله ومظاهر جلاله وجماله، ولذا لا يمكن للعبد أن يكون محباً لله ولا يحب محمداً وآل محمد؛ لأنهم باب الله ووجهه الذي منه يؤتى، فمن وحّده قبل عنهم، ولولاهم ما عرف الله ولما وصل إليه[1].

﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ**﴾[2] ولا يمكن أن يكون العبد محباً من دون متابعة وانقياد للمحبوب، والآية حصرت محبته سبحانه من جهة القابل والفاعل باتباع النبي المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه؛ لأن الاتباع ملازم للمعرفة والإخلاص والمحبة، ومن هنا تواترت الأخبار بمحورية الولاية في قبول دين العبد وطاعته، فعن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه: «من أحب أن يركب سفينة النجاة ويستمسك بالعروة الوثقى ويعتصم بحبل الله المتين فليوال علياً بعدي، وليعاد عدوه، وليأتم بالأئمة الهداة من ولده»[3] ولا يقبل عمل عبد مهما عظم إلّا بالولاية.

فعن أبي حمزة الثمالي قال: قال لنا عليّ بن الحسين زين العابدين عَلَيْهِمَا السَّلَام: «أيّ البقاع أفضل؟» فقلنا: الله ورسوله وابن رسوله أعلم. فقال: «إنّ أفضل البقاع ما بين الركن والمقام، ولو أنّ رجلاً عمّر ما عمّر نوح في قومه ألف سنة إلّا خمسين عاماً يصوم النهار ويقوم الليل في ذلك الموضع ثم لقي الله بغير ولايتنا لم ينفعه ذلك شيئاً»[4].

---

(١) انظر الكافي: ج١، ص١٩٣، ح٢، شرح أصول الكافي: ج٥، ص١٧٥، ح٢.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٣١.

(٣) عيون أخبار الرضا عَلَيْهِ السَّلَام: ج١، ص٢٦٢، ح٤٣؛ تفسير نور الثقلين: ج١، ص٢٦٣، ح١٠٥٦.

(٤) أمالي الطوسي: ص١٣٢، ح٢٠٩؛ البحار: ج٢٧، ص١٧٢، ح١٦.

كما لا يمكن للعبد أن يكون موالياً بالولاية التامة دون طاعة، فعن الباقر عليه السلام قال: «يا جابر، بلّغ شيعتي عنّي السلام، وأعلمهم أنه لا قرابة بيننا وبين الله عزّ وجل، ولا يتقرّب إليه إلّا بالطاعة له، يا جابر، من أطاع الله وأحبّنا فهو ولينا، ومن عصى الله لم ينفعه حبّنا»[١].

وهذا ما يؤكد قول النبي صلى الله عليه وآله: «أفضل الناس من عشق العبادة فعانقها وأحبها بقلبه، وباشرها بجسمه، وتفرّغ لها، فهو لا يبالي على ما أصبح من الدنيا على يسر أم على عسر»[٢].

وفي الحديث القدسي: «يا بن عمران، كذب من زعم أنه يحبني فإذا جنّه الليل نام عني، أليس كل محب يحب خلوة حبيبه؟ ها أنا ذا يا بن عمران مطلع على أحبائي إذا جنّهم الليل حوّلت أبصارهم من قلوبهم، ومثلت عقوبتي بين أعينهم، يخاطبوني عن المشاهدة، ويكلموني عن الحضور، يا بن عمران، هب لي من قلبك الخشوع، ومن بدنك الخضوع، ومن عينك الدموع في ظلم الليل، وادعني فإنك تجدني قريباً مجيباً»[٣].

---

(١) أمالي الطوسي: ص٢٩٦، ح٥٨٢؛ البحار: ج٦٨، ص١٧٩، ح٢٨.

(٢) الكافي: ج٢، ص٨٣، ح٣؛ مشكاة الأنوار: ص٢٠٣، ح٥٤١.

(٣) أمالي الصدوق: ص٤٣٨، ح٥٧٧؛ الوسائل: ج٧، الباب ٣٠ من أبواب الدعاء، ص٧٨، ح٨٧٧٨، وفيه: (حولت أبصارهم في قلوبهم) و: (وادعني في ظلم الليل فإنك تجدني قريباً مجيباً)؛ البحار: ج٦٧، ص١٤، ح٢.

الحبُ والاتباع

ويستفاد من الآية المباركة المتقدمة عدة أمور:

الأول: أن الحب من المعاني القلبية ولكن لا يصدق إلّا بظهورها على الجوارح؛ لأن الغاية من الحب لا تتحقق إلّا بذلك، فالإنسان يحب الغذاء؛ لأنه يرفع الجوع، ويحب النكاح؛ لأنه يدفع الغريزة ويحقق الرغبة في الإنجاب، ويحب العلم؛ لأن به كماله وهكذا، فلو لم يظهر أثر الحب على الجوارح كان وهماً وخيالاً، ولذا أمرت الآية باتباع النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ؛ لأنه الأثر الكاشف عن الحب الحقيقي لله، فلا يمكن أن يكون المؤمن مؤمناً يحب الله ورسوله دون اتباع منه، كما لا يمكن أن يكون المتبع للرسول غير متبع للإمام من بعده، فقول العامة وعملهم على الاكتفاء بمودة أهل البيت عَلَيْهِمُالسَّلَامُ في القلب دون الاتباع باطل.

الثاني: أن إخلاص العبد في عبوديته لا يتحقق إلّا بحبه عز وجل وانقطاعه عما سواه، فلا يمكن أن يكون العبد محباً لله ورسوله وقلبه منشغل بالدنيا وتوافهها، كما لا يمكن أن يكون العبد محباً ولا يحب الأشياء لأجله، فيحب الناس لأجل الله، ويخدم خلقه لأجله، ويرحم الصغير ويحترم الكبير ويجل زوجته ويكرم ذريته وينصح ويعلم ويرشد ويأكل ويشرب -كله- لأجله سبحانه؛ لأنّ محبة هذه مظهر محبة الله سبحانه، فمتى ما كانت في عرض محبة الله كانت باطلة، وكشفت عن زيف الحب وفساده، وهذه هي العلامة الفارقة بين الحب لله والحب للهوى والشهوة.

وكلّما ازداد العبد معرفة بالله ازداد محبة له عزّ وجل، وكلّما ازداد معرفة بالرسول والإمام عليهما السلام ازداد محبة واتباعاً لهما، وكلّما كان الحب أشد كانت السعادة أتم وأعظم، وكان البغض لأعدائهما أقوى وأشد؛ إذ لا يجتمع حب الله وأوليائه مع حب أعدائهم في قلب واحد، ومن هنا صار التولي والتبري من أركان العقيدة الحقة ومفتاح قبول الأعمال.

الثالث: أن محبة الله سبحانه متفرعة عن محبة العبد لله، وهذا يعني أن رابطة الحب تبدأ من العبد نفسه، فهي أمر اختياري، فإذا أحب العبد ربّه أحبه تبارك وتعالى؛ لأنه يكافئ الإحسان بالإحسان، وعلامة محبة الله للعبد هي التوفيق للطاعة والهداية والبعد عن المعصية والانقطاع إلى دار الخلود، فإذا لاحظ العبد نفسه ضالاً تائهاً أو مبتلياً بالآفات والمشكلات فليعرف أن ذلك منه، وهي نتيجة أعماله، ولو كان محباً لربّه متقرباً إليه أحاطت به الرحمة والبركة من كل جانب.

فإنّ الذنوب هي التي تحجب العبد وتبعده عن ربه، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿**كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ * كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ**﴾[١] فقسوة القلوب ناشئة من كثرة الذنوب، وكثرة الذنوب تحجب العبد وتلقيه في الحضيض.

وهنا حقيقة هامة لا ينبغي أن يغفل عنها وهي أن محاولة البعض الجمع بين محبة الله وأوليائه ومحبة أعدائهم باطلة وتنتهي إلى الفساد؛ لأنّ بتولي

---

(١) سورة المطففين: الآيتان ١٤-١٥.

الأعداء تشتد الحجب، وتستولي على قلب العبد، وتقوده إلى ولاية الأعداء، ولأجل ذلك ورد النهي في القرآن عن تولي الكافرين والمنافقين والجائرين والظالمين[١]، ونصت الأخبار على أن أعدى الأعداء هو قرين السوء[٢]، وهو ما يقضي به العقل؛ لأن اجتماع النور والظلمة في القلب توجب غشاوة النور وانحجابه، فلا يتنور القلب إلّا بالتخلية والتحلية.

فعبثاً يحاول دعاة التقريب واحترام رموز أهل الكفر والنفاق إذا أرادوا من دعوتهم جعل العدو صديقاً، وجعل من لا يستحق الحب محبوباً؛ لأنه محال ذاتي أو وقوعي أو عادي، بل في الغالب سينتهي دعاة هذه المشاريع إلى الوقوف إلى جنب الأعداء؛ لاتساع رقعة الظلمة في القلوب والنفوس حتى تستولي عليهم.

نعم لو أريد منها تنسيق المواقف السياسية والمشاريع العملية تحقيقاً للمصالح العليا دون المساس بالعقائد والمواقف الفكرية والتأريخية فمما لا بأس به وله أشباه ونظائر في التاريخ البشري.

الرابع: أن محبة الله سبحانه على قسمين: محبة ذاتية لأجلها أوجد الخلق وأعطاه كماله، فهي من صفات الذات؛ لرجوعها إلى العلم والقدرة؛ بداهة أن المحبة ترجع إلى الإرادة، وإعطاء كل ذي حق ما يستحقه، وهما من

---

(١) انظر سورة النساء: الآية ٨٩؛ وسورة التوبة: الآية ٢٣؛ وسورة الممتحنة: الآية ١.

(٢) انظر الاختصاص: ص٣٣٧؛ عيون الحكم والمواعظ: ص١٠٣، ص٣٧٢، ص٤٠٢، ص٥٠٦.

شؤون العلم والقدرة، ومثلها تكون متواطية لا مشككة، فلا يتصور فيها شدة وضعف؛ لأنها عين الذات.

ومحبة فعلية بها أعطى ومنع، ووهب ورضي، ووفق وسدد وهدى، فترجع إلى صفات الفعل فتقبل الشدة والضعف؛ لما قرر في علم المعقول من أن صفات الفعل حادثة ولا مانع من طرو التغيير والتبديل عليها؛ لأنها خارجة عن الذات، وهذه المحبة هي صلة الوصل بين محبة العبد لربه ومحبة الرب لعبده، ولذا قلنا إن الحب لابد وأن يظهر أثره، فإن المحبة الذاتية إلهية ابتدائية لطفية بها خلق وأعطى الوجود نشأته، والمحبة الفعلية تابعة لمحبة العبد نفسه؛ لذا قلنا إنها اختيارية، فتبدأ أولاً من العبد، وتتفرّع منها محبة الرب تبارك وتعالى، ولذا عبّروا عنها بأنها موضوع السير والسلوك والوصول إلى مقامات العارفين، وبعضهم سمّى أهل هذا السير والسلوك بالقافلة الإلهية، ورائد هذه القافلة ورئيسها حبيب الله المصطفى ﷺ وإبراهيم خليل الله[1]، وبعضهم قال: إن المحبة آخر منازل العوام الذي إذا نزلوه خرجوا من رتبة العوام ودخلوا في زمرة الخواص، فيكون أول مقام من مقامات الخواص[2].

فإن من سار على طريق المحبة نال عدة مقامات، وظهرت عليه آثارها:

أولاً: ترتفع عنه مشقة السعي والاجتهاد، بل يشعر بالسعادة واللذة،

---

(١) انظر مواهب الرحمن: ج٥، ص٢٦٦.

(٢) منازل السائرين: ص٥٦٦.

فيكون العناء راحة، والتعب سعادة، والداء دواء، ولذا يتلذذ الأنبياء والأولياءﻹ بتضحياتهم، ويزدادون شكراً وخضوعاً وعبودية، وهم في أشد حالات العناء.

ثانياً: يعتصم بالطاعة والخضوع، ويتنفر من المعصية وفعل القبيح، فحب الله سبحانه يعصم العبد وينجّيه من الرذائل، وهو شاهد آخر على أن العصمة اختيارية لا جبرية.

ثالثاً: نورانية القلب والفكر والأثر، فيكون المحب محلاً لمعرفة الله ووعاء لإرادته ومشيئته، ومظهراً للخيرات والبركات؛ لأنّ من لازمه حب الله سبحانه يظهر عليه أثر الحب بالهداية والتوفيق والتسديد واللطف والرحمة.

ولذا كانت المحبة غاية الطالبين من الأولياء والأنبياءﻹ، وبها يشيدون، وعنها يخبرون، ففي دعاء سيد الشهداء؏ في يوم عرفة: ﴿وأنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبائك حتى لم يحبوا سواك، ولم يلجؤوا إلى غيرك... يا من أذاق أحباءه حلاوة المؤانسة فقاموا بين يديه متملّقين﴾[(١)].

وفي مناجاة سيّد الساجدين؏: ﴿إلهي فاجعلنا من الذين ترسّخت أشجار الشوق إليك في حدائق صدورهم، وأخذت لوعة محبتك بمجامع قلوبهم﴾[(٢)].

---

(١) البحار: ج٩٥، ص٢٢٦.

(٢) الصحيفة السجادية: ص٤١٧.

فلو أخذت المحبة بمجامع القلب لا يحب العبد سوى الله، ولا يقول أو يعمل ولا يأكل ولا يشرب إلّا في محبته ورضاه، وهذا المقام هو أعلى مقامات العارفين، وله مراحل ومظاهر أشار إليها أمير المؤمنين عليه السلام في قوله الوارد عنه: «إنّ لله تبارك وتعالى شراباً لأوليائه إذا شربوا سكروا، وإذا سكروا طربوا، وإذا طربوا طابوا، وإذا طابوا ذابوا، وإذا ذابوا خلعوا، وإذا خلعوا طلبوا، وإذا طلبوا وجدوا، وإذا وجدوا وصلوا، وإذا وصلوا اتصلوا، وإذا اتصلوا لا فرق بينهم وبين حبيبهم»[1]؛ لأنّ العبد بهذا الحب يكون مظهراً لجمال الله وجلاله.

ومن ذلك يتضح أن القاعدة العامة التي تقوم عليها منظومة السلوك المعنوي تتقوّم بثلاثة أركان هي:

١- المعرفة ٢- دوام الذكر ٣- وخلوص المحبة.

---

(١) تفسير المحيط الأعظم: ج١، ص٢٦٦؛ شرح الأسماء الحسنى: ج١، ص١٩٨؛ أسرار العارفين: ص٢٦٢.

﴿وَبَعْدَ صِدْقِ اعْتِرافِي وَدُعائِي
خاضِعاً لِرُبُوبِيَّتِكَ﴾

صدق العبد والعبودية

الواو عاطفة على ما سبق، وصدق اعترافي من قبيل إضافة الصفة إلى الموصوف، والمراد (بعد اعترافي الصادق) مقابل الكاذب الذي يظهر باللسان ولا ينعقد بالقلب.

والصدق: هو الخبر المطابق للواقع(١)، وهو نفس الأمر أو اللوح المحفوظ، كأن يقول زيد في الدار ويكون فيها في مقابل الكذب(٢)، وفيه نظر؛ لسببين:

الأول: أنّه يستلزم اتحاد الصدق والحق في المعنى، وكونهما مترادفين، وهو باطل؛ لأنها عرفاً وعقلاً معنيان، ولامتناع الترادف، فإن الحق في اللغة هو الثابت الذي لا يسوغ إنكاره من حق الشيء يحق إذا ثبت ووجب(٣)، وهذا يتطابق مع قولهم الصدق: الخبر المطابق للواقع، ولو قيل إن الحق ناظر إلى الواقع والصدق ناظر إلى الخبر وهو يكفي للتفريق بينهما فإنه منقوض في الإخبار عن الواقع الذي يتصف بالكذب، كإخبار المنافق عن حقانية الرسول، فإنّها وإن كانت حقة في الواقع إلّا أن قول المنافق يتصف بالكذب، ولذا قال: ﴿**وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ**﴾(٤) مع أنّها شهادة لنبوة النبي صلى الله عليه وآله.

---

(١) شرح الأسماء الحسنى: ج١، ص١٧٩.

(٢) مجمع البحرين: ج٥، ص١٩٩-٢٠٠، (صدق).

(٣) انظر معجم الفروق اللغوية: ص١٩٣، (٧٧٣).

(٤) سورة المنافقون: الآية ١.

الثاني: لأن العرف يرى صدق المخبر إذا كان يعتقد بصحة ما أخبره وإن خالف الواقع، فالجاهل المركب والمخطئ في إخباره صادق بشهادة صحة الحمل وعدم صحة السلب، فالحق أن الصدق أعم من الحق؛ لأنه يقال في حالتين:

الأولى: الإخبار المطابق للواقع.

الثانية: الإخبار المطابق للاعتقاد وإن خالف الواقع.

والأولى يقال لها صدق وحق ويقابلها الباطل، وأما الثانية فهي صدق وليست بحق ويقابلها الكذب، ومن هنا قال في المفردات: الصدق مطابقة القول الضمير والمخبر عنه معاً[(١)]، وبعضهم عرفه بمطابقة الكلام للواقع بحسب اعتقاد المتكلم[(٢)] وفي مثل شهادة المنافقين لنبوة المصطفى صلى الله عليه وآله يصح وصفه بالصدق بمعنى الحق؛ لأنه مطابق للواقع، ويصح وصفه بالكذب؛ لأنه لا يوافق معتقدهم فإن الاعتراف الصادق في الفقرة الشريفة يراد به مطابقته لما في ضمير العبد.

والصدق صفة النبي صلى الله عليه وآله؛ لأن إخباره مطابق للواقع، وخلافه الكذب.

وفي الحديث: «فاطمة عليها السلام صدّيقة لا يغسلها إلّا صدّيق»[(٣)].

---

(١) مفردات الراغب: ص٤٧٨، (صدق).

(٢) المعجم الوسيط: ج١، ص٥١١، (صدق).

(٣) انظر الكافي: ج١، ص٤٥٩، باب مولد الزهراء فاطمة عليها السلام، ح٤؛ علل الشرائع: ج١، ص١٨٥، ح١.

والصدّيق فعّيل للمبالغة في الصدق، ويكون الذي يصدّق قوله بالعمل، وأراد بالصدّيق ها هنا علياًعليه السلام، وفيه (ذكر النية الصادقة) وفسرت بانبعاث القلب نحو الطاعة غير ملحوظ فيها شيء سوى وجه الله تعالى(١).

وفي شرح الأسماء الحسنى: و(الصدّيق) في اصطلاح أهل المعرفة: من كان صادقاً في الأقوال والأفعال والأحوال والنيات والعزمات، وكان صادق الوعد، وإذا كان كل ذلك ملكة له كان (صدّيقاً) وإليه أشار بقوله تعالى: ﴿**فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ**﴾(٢) وهم المنعم عليهم المشار إليهم في سورة الفاتحة، فالمقصود من الصدّيقين والأخيار: الأولياء والسلاك من الأئمة الاثني عشرعليهم السلام وأتباعهم الذين هم بروج سماء الولاية، وكواكب فلك الهداية(٣).

مراتب الصدق

والصدق عند أهل المعرفة عبارة عن احتواء كل شيء على كماله اللائق به؛ لأنه يخبر عن حقيقته وواقعه سواء في مقولة العزم والنية أو مقولة القول أو العمل، ومن هنا قسّموا الصدق إلى مراتب طولية(٤).

---

(١) انظر علل الشرائع: ج١، ص١٨٤، ح١؛ البحار: ج٤٣، ص٢٠٦، ح٣٢؛ مجمع البحرين: ج٥، ص١٩٩، (صدق).

(٢) سورة النساء: الآية ٦٩.

(٣) شرح الأسماء الحسنى: ج١، ص٢٠٤، (بتصرّف).

(٤) انظر أخلاق أهل البيتعليهم السلام: ص٢٦؛ جامع السعادات: ج٢، ص٢٥٨.

الأولى: الصدق في النية، وهو الثبوت في مقام التوجّه إلى الله وطريق العبودية.

الثانية: الصدق في القول وكماله بمطابقة أقواله للواقع الأعم من القلبي والخارجي، ولعل قوله: «بعد صدق اعترافي» إشارة إليه.

الثالثة: الصدق في الأفعال، وهو أن يحوي كل فعل كماله اللائق به، وهو من أعلى مراتب الصدق.

وبعضه إلهي تكويني يتحصل بأصل إيجاد الشيء على ما يستحقه من الكمالات، وبعضه اختياري بيد العبد، وهو الذي عليه تدور المقامات المعنوية، وهو ثلاث مراتب الظاهر والباطن والغيب. أما الظاهر فله ثلاثة خصوصيات هي الصلابة في الدين والتمسك بالنبي والوحي وحسن المعاملة، وللباطن ثلاثة أيضاً هي أن يعمل العبد بما يقول، وأن يطابق باطنه ظاهره مع صدق النيّة، والغيب كذلك، وهو أن يجد ما يريد، ويرى ما يفهم على واقعه، وأن يكون العبد عند ربّه كما أراده.

والدعاء الصادق هو المنبعث عن شعور العبد بالفقر والحاجة، وفي حالة الخضوع والانكسار والخشوع يطلب من ربّه ومولاه الغني أن يسمع مناجاته، ويجيب دعوته، ويقضي حاجته.

وقوله عليه السلام: «**خاضعاً لربوبيتك**» حال من الاعتراف والدعاء، فهو معترف صادق في إقراره بالتوحيد، وفي دعائه وطلبه حال كونه خاضعاً لربوبيته سبحانه في الإنماء والتربية والعطاء، ومستسلماً لإرادة الربّ وعناياته وألطافه.

وقد طرق عليه السلام بالفقرة الشريفة باب الوعد الإلهي بالاعتراف والإقرار والصدق بالتوحيد.

والمعنى: بعد صدق اعترافي بتوحيدك ودعائي وخضوعي لربوبّيتك فلا يمكن أن أنال العذاب، وأحرم من فيض الرحمة؛ لأنّ الله سبحانه وعد الموحدين بعدم العذاب، كما وعد الداعين بالإجابة، ووعد الفقراء المحتاجين بالعطاء والإغناء، وهو ما ورد متضافراً في الأخبار، فقد روى ابن عباس عن المصطفىﷺ قال: قال رسول اللهﷺ: «والذي بعثني بالحق بشيراً لا يعذّب الله بالنار موحداً أبداً، وإنّ أهل التوحيد ليشفعون فيشفعون.. ثم قالعليه السلام: إنّه إذا كان يوم القيامة أمر الله تبارك وتعالى بقوم ساءت أعمالهم في دار الدنيا إلى النار، فيقولون: يا ربّنا كيف تدخلنا النار وقد كنّا نوحدك في دار الدنيا؟! وكيف تحرق بالنار ألسنتنا وقد نطقت بتوحيدك في دار الدنيا؟! وكيف تحرق قلوبنا وقد عقدت على أن لا إله إلّا أنت؟! أم كيف تحرق وجوهنا وقد عفّرناها لك في التراب؟! أم كيف تحرق أيدينا وقد رفعناها بالدعاء إليك؟! فيقول الله جل جلاله: عبادي ساءت أعمالكم في دار الدنيا فجزاؤكم نار جهنم، فيقولون: يا ربنا عفوك أعظم أم خطئنا؟ فيقول عز وجل: بل عفوي، فيقولون: رحمتك أوسع أم ذنوبنا؟! فيقول عزّ وجل: بل رحمتي، فيقولون: إقرارنا بتوحيدك أعظم أم ذنوبنا؟! فيقول عز وجل: بل إقراركم بتوحيدي أعظم، فيقولون: يا ربنا فليسعنا عفوك ورحمتك التي وسعت كل شيء، فيقول الله جل جلاله: ملائكتي وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحب إليّ من المقرين بتوحيدي وأن لا إله غيري، وحق عليّ أن لا أصلي بالنار أهل توحيدي، أدخلوا عبادي الجنة»[1].

---

(١) التوحيد: ص٢٩، ح٣١؛ أمالي الصدوق: ص٣٧٢، ح٤٦٩؛ البحار: ج٨، ص٣٥٨-٣٥٩، ح٢٣.

ويستفاد من مثله أن الإقرار المنجي هو الصادق، أي ما كان عن اعتقاد قلبي وإذعان نفسي، وأن المراد من التوحيد هو التوحيد الكامل الذي عمدته الإقرار بإمامة الأئمة الأطهار عليهم السلام واتباعهم قلباً وعملاً بكل ما أتوا به؛ لأنّ التوحيد بلا ولاية ناقص، بل توهّم التوحيد يؤيده حديث السلسلة الذهبية الذي رواه الصدوق قدس سره بإسناده عن إسحاق بن راهويه قال: لما وافى أبو الحسن الرضا عليه السلام نيسابور واراد أن يرحل منها إلى المأمون اجتمع إليه أصحاب الحديث فقالوا له: يا بن رسول الله ترحل عنّا ولا تحدثنا بحديث فنستفيده منك؟ وقد كان قعد في العمارية، فأطلع رأسه وقال: ﴿سمعت أبي موسى بن جعفر عليه السلام يقول: سمعت أبي جعفر بن محمد عليه السلام يقول: سمعت أبي محمد بن علي عليه السلام يقول: سمعت أبي علي بن الحسين عليه السلام يقول: سمعت أبي الحسين بن علي عليه السلام يقول: سمعت أبي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: سمعت جبرئيل عليه السلام يقول: سمعت الله عزّ وجل يقول: لا إله إلّا الله حصني فمن دخل حصني أمن عذابي، فلمّا مرّت الراحلة نادانا: بشروطها وأنا من شروطها﴾[1] والمشروط عدم عند عدم شرطه، ولأن الرب حكيم عليم وخبير لا يقضي بما هو في ضرر العبد أو هلاكه قال في الفقرة:

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص١٤٤، ح٤؛ أمالي الصدوق: ٣٠٦، ح٣٤٩؛ التوحيد: ص٢٥، ح٢٣.

﴿هَيْهاتَ أَنْتَ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ تُضَيِّعَ مَنْ
رَبَّيْتَهُ، أَوْ تُبْعِدَ (تُبَعِّدَ) مَنْ أَدْنَيْتَهُ، أَوْ
تُشَرِّدَ مَنْ آوَيْتَهُ، أَوْ تُسَلِّمَ إِلَى الْبَلاءِ
مَنْ كَفَيْتَهُ وَرَحِمْتَهُ﴾

حسن الظن بالله

وبهذه العبارات الشريفة يظهر العبد مقام الرجاء وحسن الظن بالله سبحانه الذي وعد أن يكون عند حسن ظن عبده المؤمن.

هيهات: اسم فعل بمعنى بعد[1].

والتشريد: الطرد[2]، وإدناء العبد من ربّه تارة يكون تكوينياً بإيجاده أولاً ثم تربيته، فإن الإيجاد والتربية يتقومان بالدنو والاتصال بين الربّ والعبد، ولو لا ذلك لم يكن شيئاً مذكوراً، وتارة يكون تشريعياً بهدايته وجعله عابداً ذاكراً لربه، ولولا حب الله لعبده لما هداه، وإذا نال العبد مقام القرب من ربّه تكويناً وتشريعاً فمن البعيد أن يطرده الباري منه ثانية، ويبعده عنه؛ لأنّه لو فعل ذلك لكان بالأولى أن لا يوجده ولا يهديه؛ فإنه أوجده وهداه دون استحقاق منه فكيف يطرده مع وجود سبيل القرب منه وهو المحبوبية والعبودية، والإيواء الضم عن رقة ورحمة[3]، وهو أخص من الضم والجمع يشهد له قوله تعالى: ﴿**إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ**﴾[4] للخلاص من شر أهل زمانهم وسلطانهم، وقوله تعالى: ﴿**آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ**﴾[5] أي ضمّهُ

---

(١) شرح ابن عقيل: ج٢، ص٣٠٢؛ الشافي في الإمامة: ج٤، ص٧٤، الهامش.

(٢) انظر مختار الصحاح: ص٢٠٦، (طرد).

(٣) انظر معجم مقاييس اللغة: ص٧٨، (أوي)؛ مفردات الراغب: ص١٠٤، (أوى).

(٤) سورة الكهف: الآية ١٠.

(٥) سورة يوسف: الآية ٦٩.

إلى نفسه محبة ورحمة، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾[(١)] والمأوى السكن الذي يلجأ إليه الإنسان فيقيه الضر، وفي حديث الدعاء «الحمد لله الذي كفانا وآوانا» أي ردّنا إلى مأوى لنا، ولم يجعلنا منتشرين كالبهائم[(٢)]، وبهذا المعنى وردت فقرة الدعاء الشريف ويراد بها طرد العبد وإبعاده بعد أن ضمه إلى رحمته وأولاه بعنايته ولطفه، وهو خلق بعيد عن سنن الخالق ونهجه عزّ وجل، ومن يطرده الباري معناه أنّه سلّمه إلى البلاء والهلكة، وبهذه الكلمات الخاضعة يطرق باب الحكمة الإلهية مقترنة بحسن الظن، وبهما يضمن السلامة والنجاة؛ لأنّ الباري عزّ وجل هو ربّ العبد ومالكه وسيّده، وهو الذي خلقه وأطعمه وأشربه وآواه وحفظه. كل ذلك رحمة منه ولطفاً، والرحيم لابد وأن يكون ودوداً بالمرحوم، محباً له، وحريصاً على نفعه، ولا يريد عذابه وأذاه وإن كان بتقصير العبد وسوء فعله نظير الأم الحنون التي ترعى صغيرها، ولا تحب له الأذى والضر وإن كان بسوء فعله، وكذلك الراعي الحريص على قطعانه فإنه يسعى لحمايتها من الآفات، ويوفر لها الغذاء والأمن، وإذا فلت منها فالت أو شرد شارد لا يؤاخذه، بل يجهد لإرجاعه إلى حضيرته، ولهذه الحالة أسرار معنوية وبركات كثيرة، ومن هنا كان العديد من الأنبياء والأولياء لاسيّما سيّدهم وإمامهم المصطفى صلى الله عليه وآله يرعون الغنم، ولذا أشار القرآن بحبّه ووداده بالمؤمنين بقوله:

---

(١) سورة الضحى: الآية ٦.

(٢) مجمع البحرين: ج١، ص٣٧، (أوا).

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[(١)] فإن مقتضى الرحمة بالرعية يستدعي أن يرعاهم ويتحمل بعدهم وسوء أفعالهم؛ لأجل هدايتهم وإنقاذهم من الهلكات.

وشواهد سيرته المباركة تتضافر بحبه ورأفته وجهده؛ لإنقاذ رعيته وأمته من العذاب. نكتفي بواحد منها:

ففي الوقت الذي خالف بعض المسلمين أمر رسول الله في أُحد انهزموا وتركوا النبيصلى الله عليه وآله وحده مع أمير المؤمنينعليه السلام وآحاد من الصحابة بين الأعداء يقاتلان، ويذبّان عن الدين، وقد تحاشد الأعداء؛ لأجل قتل النبيصلى الله عليه وآله حتى جرح في جبهته الشريفة، وكسرت مقدمة أسنانه، وأصيب وابن عمه بجراحات كثيرة. في ذلك الحال قيل: يا رسول الله، ادع عليهم ولكنه -ومع أن الدماء غسلت بدنه الشريف وانصبغ قميصه بالدم- رفع يديه إلى السماء وقال: «اللهمّ اهد قومي فإنّهم لا يعلمون»[(٢)] فسأل لهم الرحمة بدل العذاب والنقمة، وسأل الهداية لقوم سببّوا له الأذى، وأرادوا قتله، وأسالوا دمه، ولا زالوا يسببون له ذلك في أولاده وذريته، ولم يقل: اللهم اهدهم، بل قال: اهد قومي، فأضافهم إلى نفسه؛ ليستنزل الرحمة الإلهية لهم ببركته وشفاعته؛ لأنهم أمته ومحسوبون عليه.

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٢٨.

(٢) انظر العقد النضيد والدر الفريد: ص٥٠-٥١، ح٣٦؛ مناقب آل أبي طالب: ج١، ص١٦٦.

ولم يكتف بالدعاء لهم بل بحث لهم عن عذر أمام الله، ووصفهم بأنهم لا يعلمون؛ لتتأكد الاستجابة فيعفو عنهم الخالق المنتقم؛ لأنهم جهّال لا يعلمون بشفاعته، ولذا وصفه الباري عز وجل بأنه رحمة للعالمين[١].

هذا شيء من رحمة النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وعنايته وحرصه على رعيته وأمته، ولا يرضى لهم العذاب وإن استحقوه، وهو معلّمهم وهاديهم فكيف بخالقهم وبارئهم؟

ولو كان الخالق الحكيم يعامل العبد بما يستحق من العذاب لما أوجده وأكرمه ونعمّه، فحكمة الخالق ولطفه بعبده يستدعيان العفو عن العبد ورفع الضرّ عنه وإن كان لا يستحق ذلك، وهذا هو مقتضى ظن العبد بربه الكريم الرحيم الحكيم.

فبعيد على الكريم أن يضيّع من ربّاه، وبعيد عليه أن يبعّد من أدناه وقرّبه بسبب توحيده له وخضوعه لربوبيته، وبعيد عليه أن يطرد من آواه وأغاثه. آواه من العدم إلى الوجود، ومن الفقر والحاجة إلى الغنى، ومن الجهل إلى العلم، ومن الضلالة إلى الهدى.

وبعيد عليه أن يسلّمه إلى البلاء تفعل به النوازل ما تشاء وكان قد كفاه ورحمه، وهذا الاستبعاد شأن الخالق العظيم؛ إذ لو لم يستجب دعاء العبد ويرحمه ويكفيه لورد السؤال لماذا؟

---

(١) انظر سورة الأنبياء: الآية ١٠٧.

هل لأنّه ليس بكريم فهو بخيل أو محتاج؟ أو غير حكيم بحيث يضيّع من ربّاه؟ أو غير رحيم يطرد من آواه وأحبّه؟

وكلّها صفات نقص لا تليق بشأنه تعالى، لذا فهو بعد أن شكا حاله واعترف بقصوره وتقصيره يبدأ بتمجيد مولاه وحبيبه، ويذكر صفات عظمته وكماله بهذه الطريقة التي فيها غاية الخضوع والتذلل الموجب لاستجابة الدعاء.

وإلى هنا ينتهي الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث، ويبدأ بقولهعَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿وليت شعري يا سيّدي وإلهي ومولاي، أتسلّط النار على وجوه خرّت لعظمتك ساجدة؟﴾

الفهرس

﴿اللّهُمَّ إنّي أتَقَرَّبُ إلَيْكَ بِذِكْرِكَ، وَأسْتَشْفِعُ بِكَ إلى نَفْسِكَ﴾ ١٣
التقرّب بذكر الله سبحانه.......................... ١٥
المواظبة على الذكر.......................... ١٩
مراتب الذكر.......................... ٢٣
﴿وَأَسْأَلُكَ بِجُودِكَ أنْ تُدْنِيَني مِنْ قُرْبِكَ، وَأنْ تُوزِعَني شُكْرَكَ، وَأنْ تُلْهِمَني ذِكْرَكَ﴾.......................... ٣٧
الشكر والذكر ٣٩
آثار دوام الشكر.......................... ٤٣
أقسام الشكر.......................... ٤٦
منازل الذاكرين.......................... ٥٣
مراتب الذكر.......................... ٥٤
﴿اللّهُمَّ إنّي أَسْأَلُكَ سُؤالَ خاضِعٍ مُتَذَلِّلٍ خاشِعٍ أنْ تُسامِحَني وَتَرْحَمَني﴾ ٥٧
سؤال الخاشعين.......................... ٥٩
﴿أنْ تُسامِحَني وَتَرْحَمَني﴾.......................... ٦٥
في التنزيه والتحلية ٦٧
﴿وَتَجْعَلَني بِقِسْمِكَ راضِياً قانِعاً، وَفي جَميعِ الأَحْوالِ مُتَواضِعاً﴾ ٦٩
الرضا بالمقدّرات الإلهية.......................... ٧١

الرضا بقضاء الله وقدره ٧٢
في القناعة ٧٥
حقيقة القناعة وحدودها ٧٧
﴿وَفي جَميعِ الْأَحْوالِ مُتَواضِعاً﴾ ٨٣
دوام التواضع ٨٥
﴿اللّهُمَّ وَأَسْأَلُكَ سُؤالَ مَنِ اشْتَدَّتْ فاقَتُهُ﴾ ٨٩
الفقر إلى الله سبحانه ٩١
﴿وَأَنْزَلَ بِكَ عِنْدَ الشَّدائِدِ حاجَتَهُ﴾ ٩٩
الدعاء عند الشدائد ١٠١
﴿وَعَظُمَ فيما عِنْدَكَ رَغْبَتُهُ﴾ ١٠٥
في الرغبة ومنازل السالكين ١٠٧
﴿اللّهُمَّ عَظُمَ سُلْطانُكَ﴾ ١١١
خصوصيات السلطنة الإلهية ١١٣
﴿وَعَلا مَكانُكَ﴾ ١١٥
في علو المراتب الإلهية ١١٧
﴿وَخَفِي مَكْرُكَ﴾ ١٢٣
في المكر الإلهي ١٢٥
ما معنى خفاء المكر؟ ١٢٨
﴿وَظَهَرَ أَمْرُكَ﴾ ١٣٣
في علو أمر الله سبحانه ١٣٥

﴿وَغَلَبَ قَهْرُكَ، وَجَرَتْ قُدْرَتُكَ﴾ ١٤١
قهر الله وقدرته.. ١٤٣
﴿وَلا يُمْكِنُ الْفِرارُ مِنْ حُكُومَتِكَ﴾ ١٤٥
الحكومة الإلهية... ١٤٧
﴿أَللّهُمَّ لا أَجِدُ لِذُنُوبي غافِراً، وَلا لِقَبائِحي ساتِراً، وَلا لِشَيْءٍ مِنْ عَمَلِي الْقَبيحِ بِالْحَسَنِ مُبَدِّلاً غَيْرَكَ﴾.................................. ١٤٩
في تبديل السيئات إلى حسنات.................................... ١٥١
في إمكان تبديل الصفات الإنسانية ١٥٨
الطريق إلى تغيير الأخلاق.. ١٦٣
﴿لا إلـهَ إلّا أَنْتَ سُبْحانَكَ وَبِحَمْدِكَ﴾ ١٦٩
في كلمة التوحيد وآثارها القدسية................................ ١٧١
آثار التسبيح المعنوية.. ١٧٨
﴿ظَلَمْتُ نَفْسي، وَتَجَرَّأْتُ بِجَهْلي، وَسَكَنْتُ إلى قَديمِ ذِكْرِكَ لي وَمَنِّكَ عَلَيَّ﴾
.... ١٨٣
الإقرار بالذنوب وعلو المراتب ١٨٥
﴿وَمَنِّكَ عَلَيَّ﴾.. ١٩٥
المنن الإلهية.. ١٩٧
﴿اللّهُمَّ مَوْلاي كَمْ مِنْ قَبيح سَتَرْتَهُ، وَكَمْ مِنْ فادِح مِنَ الْبَلاءِ أَقَلْتَهُ (أَمَلْتَهُ) وَكَمْ مِنْ عِثار وَقَيْتَهُ، وَكَمْ مِنْ مَكْرُوه دَفَعْتَهُ، وَكَمْ مِنْ ثَناءٍ جَميلٍ لَسْتُ أَهْلاً لَهُ نَشَرْتَهُ﴾.. ٢٠٣
أصناف المنن الإلهية ٢٠٥

الثناء الجميل...٢١٧
﴿اللّهُمَّ عَظُمَ بَلائي وَأَفْرَطَ بي سُوءُ حالي، وَقَصُرَتْ (قَصَّرَتْ) بي أعْمالي، وَقَعَدَتْ بي أغْلالي، وَحَبَسَني عَنْ نَفْعي بُعْدُ أمَلي (آمالي)، وَخَدَعَتْنِي الدُّنْيا بِغُرُورِها، وَنَفْسي بِجِنايَتِها (بِخِيانَتِها) وَمِطالي﴾...........٢٢١
معالجة القصور الذاتي للبشر...٢٢٣
معالجة الأمراض الروحية..٢٣٢
حقيقة النفس وتجرّدها ٢٥٤
﴿يا سَيِّدي فَأَسْأَلُكَ بِعِزَّتِكَ أنْ لا يَحْجُبَ عَنْكَ دُعائي سُوءُ عَمَلي وَفِعالي﴾
....٢٥٩
أسباب موانع الدعاء...٢٦١
موانع إجابة الدعاء...٢٦٩
في طلب المحال ٢٧٣
تصنيف موانع الدعاء ٢٨١
﴿وَلا تَفْضَحْني بِخَفِي مَا اطَّلَعْتَ عَلَيْهِ مِنْ سِرّي﴾........................٢٨٣
الستر والفضيحة...٢٨٥
أصناف الناس ٢٨٦
علامة ذي الوجهين...٢٨٧
﴿وَلا تُعاجِلْني بِالْعُقُوبَةِ عَلى ما عَمِلْتُهُ في خَلَواتي مِنْ سُوءِ فِعْلي وَإساءَتي، وَدَوامِ تَفْريطي وَجَهالَتي، وَكَثْرَةِ شَهَواتي وَغَفْلَتي﴾ ٢٩٣
أثر الولاية والنصب في تبديل الأعمال وانقلابها ٢٩٥

سوء الفعل والإساءة... ٣٠٠
أسباب الذنوب... ٣٠٣
شروط تبدّل الأعمال... ٣١٣
﴿وَكُنِ اللّهُمَّ بِعِزَّتِكَ لي في كُلِّ الأحْوالِ (فِي الأحْوالِ كُلِّها) رَؤوفاً، وَعَلَيّ في جَميعِ الأمُورِ عَطُوفاً﴾.. ٣١٩
رأفة الله وعطفه (التوفيق).. ٣٢١
﴿إلـهي وَرَبّي مَنْ لي غَيْرُكَ أَسْأَلُهُ كَشْفَ ضُرّي وَالنَّظَرَ في أمْري﴾ ٣٢٥
مفتاح التوفيق والعناية الإلهية.. ٣٢٧
﴿إلهي وَمَوْلاي أجْرَيْتَ عَلَي حُكْماً اتَّبَعْتُ فيهِ هَوى نَفْسي وَلَمْ أَحْتَرِسْ فيهِ مِنْ تَزْيينِ عَدُوّي، فَغَرَّني بِما أهْوى وَأسْعَدَهُ عَلى ذلِكَ الْقَضاءُ، فَتَجاوَزْتُ بِما جَرى عَلَي مِنْ ذلِكَ بَعْضَ حُدُودِكَ، وَخالَفْتُ بَعْضَ أوامِرِكَ﴾ ٣٣١
أثر القضاء والقدر في مصير العبد...................................... ٣٣٣
العلم والقضاء والقدر ٣٣٦
﴿فَلَكَ الْحَمْدُ (اَلْحُجَّةُ) عَلَيّ في جَميعِ ذلِكَ﴾......................... ٣٤١
كمال الحجة وفلسفة الابتلاء.. ٣٤٣
﴿وَلا حُجَّةَ لي فيما جَرى عَلَيَّ فيهِ قَضاؤُكَ، وَأَلْزَمَني حُكْمُكَ وَبَلاؤُكَ﴾ ٣٤٧
الحجة التامة ٣٤٩
﴿وَقَدْ أتَيْتُكَ يا إلـهي بَعْدَ تَقْصيري وَإسْرافي عَلى نَفْسي مُعْتَذِراً نادِماً مُنْكَسِراً مُسْتَقيلاً مُسْتَغْفِراً﴾ ٣٥٣
أثر التوبة في سعادة الإنسان ٣٥٥

مراتب التوبة.. ٣٥٨
خصوصيات التوبة الصادقة... ٣٦٢
﴿مُنيباً مُقِرّاً مُذْعِناً مُعْتَرِفاً﴾ ٣٧١
التوبة عهدٌ بين العبد وربّه ٣٧٣
﴿لا أَجِدُ مَفَرّاً مِمّا كانَ مِنّي وَلا مَفْزَعاً أَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ في أَمْري غَيْرَ قَبُولِكَ عُذْري وَإِدْخالِكَ إِيّايَ في سَعَةٍ (مِنْ) رَحْمَتِكَ﴾.................................... ٣٧٥
الفرار إلى الله ومراتبه.. ٣٧٧
﴿اللّـهُمَّ (إلـهي) فَاقْبَلْ عُذْري، وَارْحَمْ شِدَّةَ ضُرّي، وَفُكَّني مِنْ شَدِّ وَثاقي﴾ ٣٨١
قاعدتان للوصول إلى مقام القرب.................................... ٣٨٣
﴿يا رَبِّ ارْحَمْ ضَعْفَ بَدَني وَرِقَّةَ جِلْدي وَدِقَّةَ عَظْمي﴾............ ٣٨٧
العبوديّة والربوبيّة.. ٣٨٩
﴿يا مَنْ بَدَأَ خَلْقي وَذِكْري وَتَرْبِيَتي وَبِرّي وَتَغْذِيَتي﴾ ٣٩٥
مراحل إنشاء الخلق وتربيته.. ٣٩٧
﴿هَبْني لِابْتِداءِ كَرَمِكَ وَسالِفِ بِرِّكَ بي﴾ وفي بعض النسخ: ﴿ومنّك عليّ﴾ ٤٠٥
الربوبية والعبودية نزولاً وصعوداً ٤٠٧
﴿يا إلـهي وَسَيِّدي وَرَبّي، أَتُراكَ مُعَذِّبي بِنارِكَ بَعْدَ تَوْحيدِكَ﴾ ٤١١
مراتب التوحيد والموحدين.. ٤١٣
﴿بَعْدَ تَوْحيدِكَ﴾.. ٤١٩

كميل ٤٩١
درجات التوحيد.. ٤٢١
التوحيد الفطري.. ٤٢٥
وحدة التشريع وربوبيّته.. ٤٢٨
توحيد المحبّة.. ٤٣٠
﴿وَبَعْدَ مَا انْطَوى عَلَيْهِ قَلْبي مِنْ مَعْرِفَتِكَ، وَلَهِجَ بِهِ لِساني مِنْ ذِكْرِكَ، وَاعْتَقَدَهُ ضَميري مِنْ حُبِّكَ﴾ ٤٣٣
أبواب العبودية وصفات العابدين................................ ٤٣٥
الذكر وأقسامه.. ٤٤٤
مراحل الذكر الحقيقي.. ٤٤٨
خصوصيات الذكر.. ٤٥٠
علامات المحبة.. ٤٥٧
الحبُ والاتباع.. ٤٦١
﴿وَبَعْدَ صِدْقِ اعْتِرافي وَدُعائي خاضِعاً لِرُبُوبِيَّتِكَ﴾ ٤٦٧
صدق العبد والعبودية.. ٤٦٩
مراتب الصدق... ٤٧١
﴿هَيْهاتَ أَنْتَ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ تُضَيِّعَ مَنْ رَبَّيْتَهُ، أَوْ تُبْعِدَ (تُبَعِّدَ) مَنْ أَدْنَيْتَهُ، أَوْ تُشَرِّدَ مَنْ آوَيْتَهُ، أَوْ تُسَلِّمَ إِلَى الْبَلاءِ مَنْ كَفَيْتَهُ وَرَحِمْتَهُ﴾ ٤٧٥
حسن الظن بالله... ٤٧٧
الفهرس... ٤٨٥